

جحا العربي

د. محمد رجب النجار

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير

د. محمد رجب النجار

المراسلات :

توجه باسم السيد الامين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

جُحَا العَرَبِيّ

شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير

تأليف
د. محمد رجب النجار

تمهيد

عندما يكون التعبير الفني ـ عند أمة ما ـ عريقا واصيلا ، قائما في أساسه على الرواية الشفوية ، وفيا بحاجات المجتمع الشعورية والمعنوية ، معبرا عن موروثه الثقافي ، وخصائصه القومية ، وقيمه الانسانية العليا ومثله الاجتماعية ، صادرا من وجدان جمعي ، تحقيقا للذات العامة ، معينا على حركة التاريخ ، متسما بالمرونة والحيوية قادرا على النماء والتطور ... دون الجمود عند صورة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل راصدا في نهاية الامر ـ الحصيلة الكاملة لثقافة شعب بعينه ، على اختلاف أجياله وبيئاته ومراحل تعليمه النظامي وغير النظامي ، وحين لا يقف في رصده عند تراث البسطاء او وهم الاميين أو ثقافة الريفيين أو اهل البداوة ، بل يتجاوز ذلك فيكون تراث شعب بأسره ، هو المؤلف وهو المتذوق والمتلقى في آن واحد ، فذلكم هو الابداع الشعبي ووظائفه .

ان التراث الادبي كما يحدده استاذنا الفاضل الدكتور عبد الحميد يونس ، لم يعد هو الذي « يصدر عن لهجة بعينها ، ولا عن طبقة بعينها ، لان التعبير الفني حيوي في جميع الشعوب والافراد والطبقات » (١) .وعلى ذلك يصبح الفيصل بين الادب الشعبي وغيره ، عند الاستاذ الدكتور « انما يلتمس في واقع الامر في الوظيفة التي يقوم بها الادب » ومن ثم يخطىء من يظن أن الفيصل يكمن في المعيار اللغوي دون المعيار التاريخي (الاصالة)

---

(١) المحاضرات العامة لجامعة القاهرة في الموسم الثقافي ١٩٥٩ / ١٩٦٠ ص ٤ وما بعدها ـ مطبعة جامعة القاهرة .

او المعيار النفسي أو الثقافي أو الفني ـ حين يتوسل هذا الابداع باللهجة العامية فالواقع ـ كما يقول الاستاذ الدكتور « ان اللهجة العامية ليست الفيصل في التمييز بين الشعبي وغير الشعبي ، وانما الفيصل هو وجدان الجماعة (لا الوجدان الفردي في اطار العبقرية الفردية) الذي يجعل المؤلف مجهولا مختفيا ، لا تبين له خصوصية ، والذي يجعل الآثار الادبية الشعبية مجهولة المؤلفين في الغالب ، وهي ان نسبت الى مؤلف ، فتحقيق هذه النسبة عسير أو يكاد يكون مستحيلا (1) ولو وجد لكان ذلك ـ في الاغلب الاعم ـ على سبيل الشهرة والانتحال ، كالخلاف الذي لا يزال حول هوميروس ، ومؤلف اغنية رولان على سبيل المثال . فليست اللهجة اذن فيصلا ـ بحال ـ الى التمييز ، ولكن الوجدان الجمعي هو الفيصل .

في ضوء هذه المنطلقات ، وفي ضوء المفهوم العلمي للتراث بعامة ، باعتباره كل ما هو موروث عن السلف من فكر وقيم ومآثر وفنون ، والمعبر عنها **قولا او كتابة او عملا** ، تأتي دراستنا لشخصية جحا وللمأثور الجحوي في صميم الدراسات الفولكلورية. ومما له مغزاه في هذا المقام انني اعتمدت في انتخاب النوادر التي تمثلت بها في تلك الدراسة على ما ورد في كتاب (أخبار جحا) للمحقق اللغوي الكبير الاستاذ عبد الستار فراج ، أول من تنبه الى المأثور الجحوي في كتب التراث ، فجمعه وحققه ، ونشره مقدما بذلك خدمة كبرى من خدماته الجليلة للغتنا الجميلة في مجال نشر التراث وتحقيقه على نحو ما هو معروف ...

والحق ان التراثيين العرب انفسهم ، كانوا من رحابة الافق، وشمول الرؤية ، وبعد النظر وموضوعية التفكير ، في مؤلفاتهم ـ الموسوعية منها بخاصة ـ فلم يعرفوا مثل هذه التفرقة او النظرة

---

(1) الادب الشعبي عند ابن خلدون ـ مجلة المجلة ـ العدد ٤٩ يناير سنة ١٩٦١ ـ القاهرة ص ٣٩ ـ وما بعدها .

القاصرة المحدودة الى ضروب الثقافة العامة وفنون التعبير الادبي بخاصة . ولعل في العودة الى ما أبدعته مثل هذه القرائح المعبرة ، ما يؤكد ذلك ، من امثال المقريزي والقلقشندي والنويري والطبري وابن خلدون (١) والقزويني والدميري والحصري وابن عبد ربه ، وابي علي القالي ، والمقري ، وأبي حيان التوحيدي ، وأبي الفرج الاصفهاني والجاحظ (٢) والاصمعي (٣) ، وعبد الله ابن المقفع ــ رائد النثر الفني في الادب العربي (٤) ــ وغيرهم كثير جدا . بل لقد بلغوا قدرا من الحرية والجراة والامانة في التعبير ما نعجز نحن ــ المعاصرين ــ عن مجاراتهم او تقليدهم (بحجة خدش الحياء مثلا) أو دون أن يتهمهم احد بالتشيع الاقليمي ...

وليتنا ندرك انه ما من شيء ، يساهم في تأكيد الوحدة القومية ، وتجسيد غاياتها ومثلها قدر ما ساهم الفولكلور العربي في صنعها ... (ابتداء من وحدة العادات والتقاليد ، وانتهاء بوحدة الابداع الادبي الشعبي كالقصص والملاحم والسير والحكايات والامثال والنوادر ... الخ) ولعل هذه الدراسة عن جحا ، تؤكد هذه الحقيقة ، وترد بذاتها على هذه الدعوى الموهومة ، فما من قطر عربي الا عرف جحا ، بسمته وملامحه وأسلوبه وفلسفته

---

(١) انظر المقال السابق ، وانظر ايضا دراسة « منهج ابن خلدون في تفسير التراث الشعبي » لنجاح هادي كبه بمجلة التراث الشعبي العدد الخامس السنة التاسعة ١٩٧٨ م . بغداد ص ٦١ ــ وما بعدها .

(٢) انظر : مناهج بحث الفولكلور العربي ، بين الاصالة والمعاصرة للاستاذ صفوت كمال ، مجلة عالم الفكر م ٦ ع ٤ يناير ١٩٧٦ ــ الكويت ص ١٧٣ ــ ٢١٠ . وانظر ايضا الموروث الشعبي في آثار الجاحظ ــ معجم مفصل ــ أصدره المركز الفولكلوري العراقي ــ وزارة الاعلام سنة ١٩٧٦ ــ العراق .

(٣) انظر : الاصمعي من وجهة نظر المأثورات الشعبية ــ للدكتور احمد كمال زكي ، مجلة عالم الفكر م ع ١ ابريل ١٩٧٢ ــ الكويت ص ٢٢٧ ــ ٢٥٨ .

(٤) انظر : ــ « ابن المقفع » للدكتور عبد اللطيف حمزة ، وانظر ايضا مقدمة كتاب « الاسفار الخمسة » « البانجاتنترا » ترجمة ودراسة الدكتور عبدالحميد يونس ــ سلسلة التراث العربي ــ وزارة الاعلام ــ الكويت .

في الحياة والتعبير ، فعرف في هذا النموذج (القومي) عصا توازن في خضم تحدياته ومعوقاته ـ وتمثل نوادره زادا فنيا ونفسيا بعيد الاثر قد يدفعه الى الابتسام والسخر ، وقد يدفعه الى الضحك والدعابة ، لما فيها من انحراف عن المالوف أو تلاعب باللفظ او خطأ في القياس ولكننا لو تجاوزنا قشرتها الخارجية ، وتأملناها من الداخل لوجدناها وسيلة حيوية من وسائل الدفاع عن الذات العامة باعتبارها النموذج والمثال ... مؤكدة بالتناقض الظاهر أو الخفي ـ القيم الانسانية العليا ، والغايات القومية ، التي تعمل الجماعة كلها على تحقيقها ... واذا تلك النوادر هي البلسم الشافي ـ في مأساة الحياة ـ الذي يغرس في أعماق نفوسنا اروع البسمات فلا يتزلزل المرء عند مواجهة المواقف الصعبة او الحرجة او امام اعقد الامور واخطر المشكلات ، فتتبدد حينئذ الرهبة التي يحسها وهو يتصارع معها ، الامر الذي يعيد اليه التوازن النفسي ومن ثم التوازن العقلي فيكون بمقدوره أن يتخذ الموقف الصحيح حيالها ، دون أن تقضي عليه مهما كانت .

وهذا الدور للنوادر اقرب ما يكون ـ كما نعلم ـ الى الدور الذي يلعبه فن « الكاريكاتير » المعاصر ، في حياتنا . ومماله دلالته القومية والفنية ـ في هذا المقام ـ ايضا أنه على الرغم من اصالة الشخصية الجحوية في ادبنا الشعبي ـ من حيث الواقع التاريخي ـ فان المأثور الجحوي ـ لم يكن كله من تاليف أو ابداع جحا ، (أبي الغصن دجين بن ثابت الفزاري) بل كان تعبيرا جمعيا من ابداع الشعب العربي بعامة ، ترسيبا للتجربة ، ونزوعا الى السمر في وقت معا . فاعلن على لسان جحاه ـ الرمز أو النموذج أو المشجب الفني ـ تأملاته في الحياة والاحياء ، ومواقفه من الواقع الانساني ، وتصوراته السياسية والاجتماعية ، ورؤيته للقيم والمثل والمعايير كما ينبغي ان تكون ، في صياغة جمالية ، توسلت فيها بقالب أو شكل فني مميز هو فن الحكاية المرحة ، او ما عرف في بيئاتنا الادبية باسم النوادر . وبخاصة تلك التي اتخذت من جحا بطلا محوريا لها .

وثمة ملاحظة ، قبل ان نشير الى مجمل الفلسفة الجحوية ، هي ان المأثور الجحوي ـ عبر رحلته الطويلة في المكان والزمان العربيين ـ قد اعتصم بالانتخاب الطبيعي ، وهي بدهية يعرفها جيدا المتخصصون ، ويعرفون مبرراتها وما يترتب عليها من الحذف والتغيير والتعديل والاضافة الى هذا المأثور (انطلاقا من طبيعة المادة الفولكلورية ذاتها ومسايرة لمنطق الحياة الشعبية النامية المتطورة ، وفي ضوء المزاج القومي ، لتواكب أو تزامن ما سيحدث من تطورات ومواقف وقضايا ، الامر الذي يؤكد في النهاية « الاصالة التاريخية والتواصل الثقافي » للثقافة العربية بعامة . (١) حسب الظروف التاريخية والمكانية أو التيارات السياسية والاجتماعية ، التي رويت فيها . الامر الذي يحقق ميزة المرونة والاصالة معا ... ولا سيما اذا وضعنا في الاعتبار ان الزمن او المكان الذي تدور فيه احداث مثل هذا النوع من الحكايات زمن مجرد ومكان مجرد ، مما يضفي عليها طابعا شموليا وانسانيا (وحياديا) بحيث لا يصعب تقبلها وتذوقها لدى السامع أو القارىء في اي مكان . فضلا عن قصر حجمها واعتمادها على عنصر واحد مما يسهل تداولها شفاهيا من راو الى اخر ، بل ان استخدامها للافعال والازمنة له وظيفته الحيوية التي تؤكد هذا التواصل ، حين تتداخل الافعال المضارعة والماضية اي تداخل الازمنة فيها ، وذلك حتى ياخذ الحدث امتدادا ـ شعوريا ـ ومعنويا ـ في حياة السامع والقارىء .

وتتمثل عبقرية « الفلسفة الجحوية » او بالاحرى عبقرية الشعب العربي في امرين : احدهما : في **اسلوب هذه الشخصية** في المواجهة ، حين اكتشفت بعبقريتها ان المأساة يمكن ان تتحول الى ملهاة ، في ضوء الحالة النفسية التي نواجه منها وقائع واعباء الحياة ، فاندماج الانسان ـ كما نعلم ـ في بؤرة الحدث أو الموقف

---

(١) صفوت كمال ، مناهج بحث الفولكلور العربي ، بين الاصالة والمعاصرة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس ، العدد الرابع ـ الكويت يناير ١٩٧٦ م .

يضنيه ، وخروجه منه وفرجته عليه يسري عنه ، وقد يضحكه ، وهكذا استطاع جحا ان يكابد الحيـاة ، ويضطرب فيها ، وان يخلق من نفسه شخصا اخر بعيدا عن الاول ، يتفرج عليه ويسخر منه . وهكذا تحولت المآسي عنده الى طرائف وملح ــ ذات طابع انساني ــ تخفف عنه وتسرى عن افراد الشعب العربي تأسيا بــه ... **والاخر ، في « تنميط » هذه الشخصية** .. فلم يكن الحمق او الغباوة السمة الغالبة عليه ولكنه التحامق او الذكاء الباحث عن جوهر الحقيقة .. .ولهذا لم يكن جحا مخبولا أو ناقص العقل ــ كما يُتوهم ــ ولكنه كان الانسان الذي يتناول الامور ــ مهما بدت معقدة او تظاهرنا نحن بتعقيدها ــ من اقرب الزوايا الى الحق والواقع ، فيبدو مناقضا لصنيع الاخرين الذين لا يتصورون الحق قريبا ويمدون ابصارهم وبصائرهم الى بعيد . كما كان صريحا في التعبير عن نفسه ، لا يشغل باله بأن الاطار الاجتماعي والسياسي كثيرا ما يفرض على الناس أن يسكتوا او يرمزوا ، فهو يستسلم دائما لرغباته في لحظاتها ، وهذه الفلسفة الخاصة به ــ وبأمثاله ــ تجعله بريئا من الخوف او الكبت وتبرزه اقوى من غيره ــ ولعلها هي التي جعلت شخصيته اقرب ما تكون الى من يسقط عنه التكليف الاجتماعي .

ولهذا لم تشأ الامة العربية أن تجعل هذه الشخصية التي ابدعتها بعبقريتها سلبية أو منعزلة ، وانما جعلتها شخصية رجل عادي من الناس ، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم ، وآمالهم وآلامهم ، عليه أن يسعى ــ في سبيل العيش ــ كما يسعى غيره ــ ويختلف الى الاسواق ــ ويرحل الى الامصار ، ويلتقي بالحكام ويتحدث الى العامة .. كذلك نفرت الامة العربية أيضـا من تصوير شخصيتها العربية في صورة الانسان المنفرد بنفسه ــ فجعلته رب أسرة ، له زوج ، وبينه وبينها ما يكون بين الرجل وصاحبته من الاحداث والمواقف ، وله معها نوادر تجسم فلسفته الخاصة في الحياة ، بل تجسم ما يريده الشعب العربي من

ترسيب التجربة ونقد الحياة الاجتماعية ، واتصلت حياة جحا ، فكان له ابن ينشئه بحكمته ويحاوره بفكاهته وسخريته ، وكأنما اراد أن تمتد حياته وفلسفته أجيالا متعاقبة . بل سوف نرى أن هذه الشخصية الساخرة تؤكد بدورها وحدة الحياة عند الامة العربية ، فلم تقتصر مواقف جحا على علاقاته بالناس . وخير ما يصور ارتباط جحا بالاحياء تعاطفه مع حماره الذي ارتقى به حتى جعل منه صديقا او شبه صديق ، يتحدث اليه ويصب في اذنيه سخرياته اللاذعة من الحياة والاحياء . ولم يكن في صنيعه شذوذ او انحراف لان ارتباط العاملين في معاشهم على هذه الانعام جعلهم يقدرون حياتها ، ويتعاطفون معها ، ويعرفون لها مكانها ، وهي علاقة تدل في ذاتها على اكبار الشعب العربي للحياة والاحياء (1) .

تعالج هذه الدراسة موضوعها من ثلاث نواح : ـ

الناحية التاريخية : ـ وكيف تطورت الشخصية الجحوية من واقع تاريخي الى رمز فني وهي معالجه ما اظن احدا مهد لها الا الاستاذ عبد الستار فراج في كتابه اخبار جحا ، سنة (١٩٥٤) ، كما ادين له بتحقيق النوادر .

الناحية الموضوعية : ـ وهي تعني بدراسة موضوع فلسفة النموذج الجحوي في ضوء نوادره ، وهي معالجة أدين فيها لاستاذي الجليل الدكتور عبد الحميد يونس ، الذي يعود اليه الفضل في اكتشاف هذا النموذج اكاديميا وعلميا . ولعل جهدي ـ ليس تواضعا ـ يتمثل في هذه المعالجة ، في تصنيف النوادر الجحوية تصنيفا موضوعيا ، وتناولها بالتحليل وبيان وظائفها الحيوية وعناصرها المحورية في ضوء الفلسفة الجحوية

---

(1) انظر المقال كاملا عن (أبي الغصن جحا وحكمته الشعبية) للاستاذ الدكتور عبد الحميد يونس . في مجلة الفنون الشعبية العدد ـ الحادي عشر سنة ١٩٦٩ ـ القاهرة ص ٣ ـ ٨ .

العامة التي أجملها الاستاذ الدكتور في مقاله المذكور ، وهو امر سوف يلمسه القارىء طويلا .

الناحية الفنية : واظن انني عالجت فيها ـ لاول مرة (١) الشكل الفني للنادرة الجحوية ، وما تتسم به من سمات وملامح فنية ، ووضعها في مكانها الصحيح من فنون التعبير الادبي ، وبخاصة « الحكاية الشعبية المرحة » الى جانب بعض اشكال الابداع الشعبي الاخرى (كالمثل ، واللغز ، والحكمة) وعلاقتها جميعها بالاسلوب الجحوي في التعبير ، وخصائصه الموضوعية والنفسية .

واذا كان المأثور الجحوي ، يسعى دائما الى ان يفيد سامعه او قارئه من حيث يجب ان يمتعه ، أو أن يمتعه من حيث يجب أن يفيده ... فارجو ان ياتي هذا الكتاب محققا لهذه الغاية . ولغاية أخرى اراها تؤكد يقينا أن تراثنا الادبي العربي الشعبي ، اوسع واعظم مما يظن فيه ، وأن فيه ، من الظواهر ما تغافله المؤرخون والباحثون والمتادبون ، وان هـذا الادب المتسع المتنوع باشكاله التعبيرية وانماطه الفنية الكثيرة المتعددة ـ لا يزال يحتفظ في مضامينه بوظائف حيوية ، اعتقد أن حياتنا القومية والحضارية في حاجة اليها ، واذا كان التراث عند الامم الاخرى مصدر قوة واشعاع في حياتها ، فان البعض منا لا يزال ـ مع كل الاسف ـ اسير النظرية السلفية التي سادت في مطلع هذا القرن في الآداب والفنون ، فيدفع بتراثنا الفني الى دائرة ضيقة ومحدودة ، الامر الذي وسم معه الادب العربي بالجمود (والقصور) في اغراضه واساليبه الفنية وبالعجز في التعبير عن جوهر الانسان العربي وحقيقة وجوده ، واهمية دوره الحضاري ، تعبيرا دراميا يتوسل بالتجسيم والتشخيص وذلك الى الحد الذي اتهمت معه العقلية العربية ذاتها ـ بما يشبه المسلمات ـ بأنها لا تعرف التحليل

(١) كان هذا سنة ١٩٧٠ ـ حين كتبت هذه الدراسة .

والتركيب وانما تغرق نفسها في الجزئيات ، ولا تقوى على تصور الكليات وعجزها عن التجسيم الملحمي والدرامي ، وهو راي غير صحيح من الناحية العلمية في ضوء توسيع دائرة التراث الادبي لتشمل التراث الشعبي (١) .

وهل كان محض مصادفة ، ان يتمثل تأثير الادب العربي في الآداب والفنون الاوروبية ، ابان العصور الوسطى وعصر النهضة - في مأثوراتنا الادبية الشعبية اكثر من سواها ؟ (٢)

ولهذا كله كان العمل على احياء تراثنا الادبي الشعبي ، ضرورة قومية وحضارية وانسانية وعلمية في وقت واحد .

● ● ●

ولعل خير ما اختتم به هذا التمهيد ان اتقدم بالشكر والامتنان الى كل من الاخوة الاصدقاء الدكتور احمد علي مرسي استاذ الادب الشعبي المساعد بجامعة القاهرة . والدكتور عبدالله العتيبي مدرس الادب القديم - بجامعة الكويت ، والاستاذ صفوت كمال ، خبير الفنون الشعبية بدولة الكويت لتفضلهم جميعا بتتبع هذه الدراسة ، ومناقشتهم الدائمة والمستفيضة لكثير من نتائجها ، وما ورد فيها من آراء ، ولا أنكر اني مدين

---

(١) انظر دراسة لنا بعنوان : ملاحظات حول أدب الملاحم العربية ، منشورة ضمن « دراسات في الادب واللغة » اعداد وتقديم الدكتور عبد الله المهنا . جامعة الكويت . سنة ١٩٧٦ - ص ٩٢ / ٩٣ .

وانظر أيضا مقدمة كتاب : اضواء على السير الشعبية للاستاذ فاروق خورشيد (ص ١ : ٣١) . المكتبة الثقافية - العدد ١٠١ يناير ١٩٦٤ - القاهرة . وانظر أيضا للاستاذ الدكتور يونس البحث الذي القي في الدورة الرابعة لمؤتمر الادباء العرب الذي عقد بالكويت في ديسمبر ١٩٥٨ - بعنوان (البطولة في الادب الشعبي) وقد اعيد نشره في كتاب « دفاع عن الفولكلور » ص ١٣٥ .

(٢) انظر على سبيل المثال : دراسة المستشرق الانجليزي هـ. أ. ر - جب . عن تأثير الادب العربي في الآداب الاوروبية ، بعنوان « الادب » وهي دراسة منشورة في كتاب « تراث الاسلام » تأليف جمهرة من المستشرقين باشراف سير توماس أرنولد . ص ٢٥٩ - ٣٠٢ من الترجمة العربية ، الطبعة الثانية . سنة ١٩٧٢ - دار الطليعة - بيروت .

للاستاذ صفوت كمال باختيار اسـلوب التصنيف الفولكلوري للنوادر ، في ضوء خبراته العلمية والميدانية في هذا المجال . اما استاذنا **الدكتور عبد الحميد يونس** ، فان فضـله ـ رائـدا واستاذا ـ اكبر من ان يحيط به شكر تلميذ لاستاذه او ان يفي بحقه عرفان بالجميل الا أن يسير على الدرب الذي اختطه وراده اكاديميا ، في ظروف تاريخية وثقافية واكاديمية ، يعلمها جيدا تلاميذه ومحبوه ، تأصيلا لدراسة الآداب والفنون الشعبيةالعربية ... ففي هذا وحده ، بعض حق الوفاء الذي طالما تغنى به ـ في ايثار نبيل ـ مؤلفنا الشعبي ، ذلك العبقري المجهول .

والحمد لله من قبل ومن بعد ...

محمد رجب النجار
كلية الآداب ـ جامعة الكويت



البَاب الأَول

شَخصَية جُحَا بَينَ الوَاقع التَاريخي وَالرَمز الفَنيْ

١
جُحَا العَرَبي

الواقع التاريخي في ضوء المصادر العربية



في ضوء غلبة الرمز الفنـي للنموذج الجحـوي في الادب العربي ، غاب عن بال الكثـير من الدارسين أن جحـا العربـي شخصية حقيقية ذات واقع تاريخي ، وأن نسبه ينتهي به الى قبيلة فزارة العربية ... اذ ولد في العقد السادس من القرن الاول الهجري وقضى الشطر الاكبر من حياته في الكوفة ... وبذلك تخبرنا كتب التراث العـربي ، وبخاصـة كتب الادب والاخبار والتراجم والسير ... وقد أشارت الى اسمه ، وما يشتهر به من نوادر وحكايات ، هو صاحبها ... وعلى الرغم ، من اضطراب اخباره أحيانا في تلك المصادر الا انها تجمع في النهاية على وجوده « التاريخي » بسمته وملامحه المعروفة بيننا . وفي ضوء تلك الاخبار وما نسب اليه من نوادر واقوال نحـاول أن نجمع بينها في نسيج واحد يكشف عن حقيقة تلك الشخصية ، ونصيبها من الواقع التاريخي والفني معا .

وعنايتنا بالواقع التاريخي لجحـا ، أو بالاحرى للنموذج الجحوى قد لا تجد من يؤيدها من دارسي الفولكلور ، الذيـن يحتفون عادة بالرمز الفني ودلالاته ووظائفه الحيوية أكثر من احتفائهم بالواقع التاريخي للشخصية ، ما دامت قد تحولت الى نموذج فني ، ورمز قومي ، يحمل في أعطافه جانبا من جوانب التعبير عن الجماعة ، وقد اتخذ اسلوبا مميزا في الابداع الادبي الشعبي هو أسلوب الحكاية المرحة ... التي عرفت في كتب التراث باسم « النوادر » غير أن عنايتنا هنا بالواقع التاريخي جاءت لاكثر

من سبب ، فالوقوف عند تاريخ هذه الشخصية ـ ما دامت حقيقية ـ يشكل حلقة من حلقات تطورها الى نموذج فني قومي ، ويحسم في الوقت نفسه ، ذلك الخلط او الاضطراب الذي يلحق بالنموذج الجحوي واصالته في تراثنا العربي عامة ، ومأثوراتنا الشعبية خاصة ... وما يترتب على ذلك من نتائج تساعدنا في تحليل البواعث التي ادت الى نمو هذه الشخصية وتطورها الى رمز فني ، ولسوف نرى عند التناول التاريخي بعض الحقائق الادبية والفنية التي اقترنت بهذا النموذج ، وصارت معلما مشتركا بين النموذج العربي وبين النماذج الجحوية اللاحقة ... وبخاصة النموذجين التركي والمصري . فضلا عن ان هذا التناول سوف يتيح لنا ـ الى حد ما ـ امكانية تتبع النوادر المنسوبة الى النموذج الجحوي بعامة ، ودراستها ومعرفة اصولها ، ومن ثم مقارنتها ، والوقوف على مدى ما اصابها من حذف او تغيير أو اضافة ... في ضوء المزاج القومي الذي ابدعها ورددها تراثا شفاهيا او مدونا لاجيال متعاقبة وقرون متطاولة .

ومما هو جدير بالذكر ان « **ابن النديم** » المتوفي سنة ٣٨٥ هـ ٩٨٧ م ، صاحب الفهرست (الذي انتهى من تأليفه سنة ٣٧٧ هـ) يذكر لنا كتابا قائما بذاته اسمه « كتاب نوادر جحا » ، وقد وضعه في أول قائمة كتب النوادر ضمن « أسماء قوم من المغفلين ، الف في نوادرهم الكتب ، ولا يعلم مؤلفها » (١) . واذا كان ابن النديم قد صنف نوادره ضمن نوادر الحمقى والمغفلين فالذي يعنينا هنا أن نوادر جحا العربي قد باتت في القرن الرابع الهجري من الشهرة والذيوع ، بحيث وجدت من يحفل بجمعها وتدوينها وتصنيفها ، ويأتي ابن النديم نفسه ليضع هذا الكتاب ، في صدر قائمة كتب النوادر التي أشار اليها ، مما يؤكد مدى شيوعها وذيوعها آنذاك .

---

(١) الفهرست ـ الفن الثالث من المقالة الثامنة ص ٤٣٥ ـ المطبعة التجارية ، مصر .

ويرى أحد الدارسين المعاصرين (١) ان هذا الكتاب ، ربما كان عونا **للآبي** (المتوفي سنة ٤٢٢ هـ) صاحب نثر الدرر ، **وللميداني** (المتوفي سنة ٥١٨ هـ) صاحب مجمع الامثال ، مستدلا على ذلك من وجود تشابه بين كتابيهما في انتخاب بعض النوادر وترتيبها ، مما يدل في نظره على أن الابي والميداني ، قد استقيا مادتهما عن جحا من مصدر واحد ... غير ان هذا الاحتمال ضئيل ، ما دام المصدر الاصلي مفقودا من ناحية ، ولعل أقرب الاحتمالات لتفسير ذلك التشابه ـ أن الميداني نفسه، ربما كان قد استقى مادته من نثر الدرر للآبي ، ثم اضاف اليها ما سمعه في عصره من نوادر وامثال ، كان جحا العربي بطلها .

وقبل ان نمضي في ترجمتنا لجحا العربي ، فانه من الاهمية بمكان أن نشير بادىء ذى بدء الى أصالة النموذج الجحوي العربي ، واصالة نوادره في ضوء ما ذكرته كتب التراث حتى القرن السادس الهجري .

ومن ثم تتأكد اسبقيته ـ تاريخيا ـ على نظيره جحا الاتراك المعروف بنصر الدين خوجه ، الذي لم يكن قد ظهر الى الوجود بعد ، وبذلك تكون مصادر التراث العربي قد حسمت نهائيا ذلك الخلط او الاضطراب بين شخصيتين ، وهو خلط قد وصل بنا الى حد انكار وجود شخصية جحا العربي ، أو اعتبارها ـ في أحسن الاحوال ـ شخصية خرافية أو وهمية لا أصل لها ، وهو أمر مجاف للحقيقة والواقع معا ...

عندما يشرع باحث ، في الترجمة لحياة جحا العرب ـ وغايته تأصيل تلك الشخصية من الناحية التاريخية ـ فسوف يجد نفسهملزما بأن يتخذ منهجا مغايرا ـ نوعا ما ـ لما الفناه في التراجم ومن ثم فسوف نسمح لانفسنا ، بأن نترجم لجحا ترجمة

---

(١) الاستاذ المحقق عبد الستار فراج ، اخبار جحا ، ص ١١ .

تتبع التسلسل الزماني للمصادر نفسها التي استقينا منها مادة البحث العلمية ، وغايتنا من وراء ذلك أن نتتبع التسلسل التاريخي ـ قبل الموضوعي أحيانا ـ لنمو هذه الشخصية وتطورها في وجدان الامة العربية تاريخيا وفنيا على السواء .

وفي ضوء ما ذكرت تلك المصادر ، فان اول خيط بين ايدينا يمكن أن نأخذ به هو ما اورده **الجاحظ** (المتوفي سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) في كتابه « **القول في البغال** » من نادرة بطلها جحا (١) ، دون أن يترجم له مما يدل على أن جحا كان معروفا في أوائل القرن الثالث الهجري . ومن ثم لم يكن الجاحظ في حاجة للترجمة له ، بالرغم من أن اسم جحا لم يتردد بعد ذلك فيما بين أيدينا من كتبه ، أو لعله ترجم له ـ كما سنرى ـ في بعض ما ضاع من كتبه . ومما هو جدير بالذكر أن شارل بلا ـ عند تحقيقه لهذا الكتاب ـ كاد يشك في نسبة هذا الكتاب الى الجاحظ ، بسبب تلك النادرة التي حاول أن يعزوها اول الامر الى النساخ ، لكنه عاد فرجح وجود جحا العرب اعتمادا على رواية ابن النديم التي سبقت الاشارة اليها (٢) .

واذا ما تجاوزنا اشارة ابن النديم المتوفي سنة ٣٨٥ هـ ، فان الخيط التالي الذي نمسك به ، يتمثل في اشارة **الجوهري** المتوفي سنة ٣٩٣ هـ ، في قاموسه « الصحاح » عندما ذكر « أن ابا الغصن كنية جحا » (٣) وكانت تلك الاشارة اول واقدم خيط تحت يدنا يشير الى كنيته ... بالرغم من أن محقق الصحاح ينفي ـ توهما ـ وجود علاقة بين جحا صاحب النوادر ، وبين جحا صاحب الكنية التي ذكرها الجوهري ... وهو نفي لا سند له

---

(١) انظر : القول في البغال . تحقيق شارل بلا ص ٣٦ ، مكتبة الحلبي بمصر .

(٢) نفسه ص ٤ .

(٣) الصحاح للجوهري (اسماعيل بن حماد) تحقيق احمد العطار . مادة (غصن) ص ٢١٧٤ ، دار الكتاب العربي ، مصر .

كما سيتضح بعد ذلك . وما نكاد نمضي قدما حتى نستطيع ان نلتقط خيطا اخر ، ورد في مخطوط « نثر الدرر في المحاضرات » للآبي المتوفي سنة ٤٢٢هـ حيث يذكر » حكى الجاحظ أن اسمه نوح ، وكنيته أبو الغصن ، وانه اربي على المائة ، وفيه يقول عمر ابن أبي ربيعة :

دلهت عقلي ، وتلعبت بي   حتى كاني من جنوني جحا

ثم أدرك ـ جحا ـ أبا جعفر ، ونزل الكوفة (١) .

ويروي الآبي بعد ذلك مجموعة من النوادر التي نسبت اليه . ومما هو جدير بالذكر ان الآبي ، قد صنفها بين نوادر الحمقى والمغفلين ، وهذا يعني في رايه ان جحا كان واحدا من الحمقى ... غير أن الذي يعنينا ، في ضوء هذا المخطوط ـ المعلومة التاريخية التي تجعلنا نرجح أن جحا ولد في النصف الثاني من القرن الاول الهجري ـ ما دام قد اربى على المائة وادرك ابا جعفر المنصور ـ وهذا يعني ـ من ناحية اخرى ، أنه عاش في أواخر الدولة الاموية ، ثم أدرك سقوطها اثر الصراع العسكري (الدموي) الذي نشب بين الامويين والعباسيين ، وانه نزل الكوفة أيام أبي جعفر . كما يعنينا أيضا من رواية الآبي تلك الصفة التي اشتهر بها جحا في راي معاصريه ، وجاءت على لسان عمر بن أبي ربيعة ، عندما ضرب به المثل في الجنون ، وان الاخرين يتلعبون به أو يتلاعبون معه ... على اعتبار أن الجنون هنا لا يعني زوال العقل ، بل فساد التفكير . ـ كالحمق تماما ـ وهذا ما يؤكده الآبي نفسه كما ذكرتُ ـ ودلالة تلك الصفة هنا تأتي على غاية الاهمية ، اذ أن الجنون او الحمق يعني سقوط التكليف عن صاحبه وبخاصة التكليف الاجتماعي الذي يثقل كاهلنا دائما ـ ومن المعروف ان سقوط التكليف اذا شاع عن

---

(١) نثر الدور في المحاضرات . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤٢٨ ادب ، تأليف الوزير زين الكفاءة ابي سعد منصور بن حسن الآبي ، الفصل الخامس من الباب السابع عشر ص ٥٧١ وما بعدها .

شخص ما ، يجعل من اقواله ـ مهما كانت صريحة أو جارحة او حادة ـ مادة ثرة لا تنفد للفكاهة والسخرية ، دون أن تعرضه للعقاب المادي او حتى للجزاء الاجتماعي وحينئذ يكون بمقدوره أن يقول ما يشاء لمن يشاء ، دون خوف أو تردد . وتلك السمة ـ كما سنرى ـ تشكل واحدة من اهم سمات الشخصية الجحوية ، من الناحيتين التاريخية والفنية على السواء . وما دام الآبي قد ترجم لجحا في معرض حديثه عن حمقى العرب ومغفليهم من المعاصرين لجحا (وما أكثرهم في هذه الفترة ، الامر الذي يستحق دراسة قائمة بذاتها ، عن تلك الظاهرة في كتب التراث وبيان دلالاتها) . فذلك يعني ان العرب قد وسموا جحاهم بالحمق ، وان شهرته طارت في الآفاق ، ابان حياته ، حتى ليضرب به المثل في الحمق ... وراح بعضهم يسخر منه أو يستهزىء باقواله ، كما جاء في بيت ابن ابي ربيعة وكما جاء فيما انتخب له الآبي نفسه من نوادر بلغت خمسا واربعين نادرة ، غير انه في ضوء هذه النوادر نفسها نستطيع ان نضيف ملمحين اخرين من ملامحه ، احدهما أن جحا ليس احمق او ابله كما وسمه الآبي ... بل انه متحامق متباله كذلك ، وشتان ما بين الصفتين . فاذا كانت الاولى تشير الى غباء صاحبها فان الاخرى تؤكد ذكاءه . اما الملمح الاخر فيتمثل في استدعاء الخلفاء والقواد له للتسلية والترفيه من خلال التندر عليه ـ الامر الذي يزيد في شهرته في نظر المجتمع الشعبي على الاقل ـ ولنا أن نرى صحة ذلك من خلال هذه النادرة التي نسبها الآبي ولم ترد منسوبة لغير جحا في اي مصدر اخر ، واعني بها النادرة التي تثبت أو تروي قصة لقائه بالمهدي ، الخليفة العباسي ، عندما اراد « أن يعبث بجحا وكان في مجلسه ، فدعا بالنطع والسيف ، فلما اقعده في النطع وقام السياف على رأسه ، وهز سيفه ، رفع جحا رأسه اليه وقال : ـ احذر أن تصيب محاجمي بالسيف ، فاني

قد احتجمت ، فضحك المهدي واجازه (١) . الا ان النـادرة التي تستحق الانتباه ، وتؤكد شهرته من ناحية هي تلك التي تروى قصة لقائه من ناحية آخرى بالقائدالعسكري ابي مسلم الخرساني، الذي قضى على الامويين ، وقد سمع بجحا فاستدعاه ... يقول الآبي : ـ أو بالاحرى تقول النـادرة : « لما قـدم ابو مسلـم العراق ، قال ليقطين بن موسى : أحب ان أرى جحا ، فتوجه يقطين اليه فدعاه ، وقال : تهيأ حتى تدخل على ابي مسلم ، واياك ان تتعلق بشيء دون ان تستأذن فاني أخشاه عليك .. قال نعم ، فلما كان من الغد جلس ابو مسلم ووجه يقطين اليه ، فدعاه ، وادخل على أبي مسلم وهو في صدر المجلس ، ويقطين الى جنبه ، وليس معهما أحد ، فسلم ثم قال : يا يقطين أيكما أبو مسلم ، فضحك ابو مسلم ، ووضع يده على فمه ، ولم يكن قبل ذلك ضاحكا » (٢) والمتأمل لهـذه النادرة سوف يلمح أمريـن لهما ما بعدهما ، أولهما خشية جحا من دعوة هذا القائد له دون سبب جوهري ، وما يمكن ان يسفر عنه مثل هذا اللقـاء . والاخر ما عهد عن أبي مسلم من بطش وجبروت ، لولا أن تحامق جحا ، ففات الامر على ابي مسلم على وفرة ذكائه ، حتى ليضحك (!) ولم يكن قبل ذلك ضاحكا كما تقول النادرة .

٣

مثلما تردد اسم جحا في بعض مؤلفات القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة فانه قد تردد أيضـا في بعض مؤلفاته القرن السادس وانه لا يزال ذائع الصيت ، حتى لنجد ؛ **الميداني** (توفي في سنة ٥١٨ هـ) في « مجمع الامثال » يدون ـ فيما يدون ـ من امثال عربية في الحمق هذا المثل .. : ـ « **احمق من جحا** » (٣)

---

(١) نثر الدور للآبي ص ٥٧١ .

(٢) نثر الدرر ص ٥٧١ .

(٣) مجمع الامثـال للميداني ، ج (١) ص ٢٢٣ . تحقيق محمـد محي الدين الفكر ـ بيروت . الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م .

ثم يترجم له في جملة واحدة ، وقد جاء فيها ان « جحا رجل من فزارة » (١) ولعل هذا اقدم مصدر بين أيدينا يشير الى هذه الحقيقة وهي أن جحا من قبيلة فزارة العربية ، وان كنيته أبو الغصن ، ويصفه بالاحمق ، ثم يأخذ في سرد بعض النوادر التي تؤكد خلة الحماقــة فيــه ، « فمن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمي مر به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعا ، فقال له : مالك يا ابا الغصن ؟ قال : اني قد دفنت في هذه الصحراء دراهم ، ولست أهتدي الى مكانها ، فقال عيسى : كان يجب أن تجعل عليها علامة ، قال : قد فعلت ، قال : ماذا ؟ قال : سحابة في السماء كانت تظلها ، ولست أرى العلامة » . ومن حمقه أيضا – على حد تعبير الميداني – « أنه خرج من منزله يوما بغلس ، فعثر في دهليز منزله بقتيل ، فضجر به ، وجره الى بئر منزله فالقاه فيها : فعثر به ابوه فأخرجه وغيبه وخنق كبشا حتى قتله والقاه في البئر ، ثم ان اهل القتيل طافوا في سكك الكوفة يبحثون عنه ، فتلقاهم جحا ، فقال : في دارنا رجل مقتول فانظروا اهو صاحبكم ، فعدلوا الى منزله وانزلوه في البئر ، فلما رأى الكبش ناداهم وقال : يا هؤلاء ، هل كان لصاحبكم قرون ؟ فضحكوا ومروا . (٢) » وقالوا مجنون ، كما قال الآبي نفسه في روايتــه ..

ويستغل الاستاذ العقاد هذه النادرة للتدليل على ان خلة الحماقة وراثية في جحا حيث يقول .. : « لعل الخبر الذي جاء عن ابيه في خلال الكلام عنه – في النادرة السابقة – يفســر بالوراثة ما فيه من خلة الحماقة ، لان جحا لم يصنع شيئا يزيل الشبهة في أمر القتيل بنقله من الدهليز الى البئر وان اباه لم

---

(١) نفسه .

(٢) مجمع الامثــال ج (١) ص ٢٢٣–٢٢٤ .

يصنع شيئا يزيل الشبهة بوضع الكبش في مكانه ، وكان لكل منهما مندوحة عما صنع لولا الحماقة في الاب وفتاه » (۱) .

وملاحظة الاستاذ العقاد قد تكون صحيحة اذا افترضنا صحة نسبة هذه النادرة لجحا من الناحية التاريخية وهي لم تذكر في نثر الدرر للآبي وان ذكرت بعد ذلك في كتاب « حياة الحيوان الكبرى للدميري فقط » وبرغم ان هذه الـنادرة لم تصادفنا منسوبة لغير جحا ... لكن النادرة طريفة الفعل ... وليس أروع من أن ننسبها لجحا ... والاسرة الجحوية ... جحا الذي وصفه أهل القتيل بأنه « مجنون » وهي الصفة نفسها التي رددها من قبـل عمر بن أبي ربيعـة فيما رواه الآبي .

وقبل ان نترك هذا المصدر يجدر بنا ان نميز بين صفتين نسبتا الى جحا وهما الحمق ... والجنون ، فكلتا الصفتين نسبتا اليه ... وشاعتا بمعنى واحد في مجالس السمر .. ولكن الفرق بين الصفتين دقيق ولا سيما اننا سنلتقي بهمـا كثيرا ، يقول ابن الجوزي .. : ــ

« معنى الحمق هو (الغلط في الوسيلة والطريق الى المطلوب مع صحة المقصود . بخلاف الجنون فانه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعا . فالاحمق مقصوده صحيح ، ولكن سلوكه الطريق فاسد ... ويبين هذا ما سنذكره عن بعـض المغفلين ، فمن ذلك ان طائرا طار من أمير فامر أن يغلق بـاب المدينة ، فمقصود هذا الرجل ــ اي الامير ــ هو حفظ الطائر ولكن الخلل في الوسيلة هو الذي وسمه بالحمق (۲) .

---

(۱) العقاد ــ جحا الضاحك المضحك ، سلسلة كتب دار الهلال ، العدد ، ٦٥ ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥ .

(۲) أخبار الحمقى والمغفلين ، لابن الجوزى ، ص ۱۰۸ ــ مطبعة التوفيق بدمشق .

على كل حال فمن المؤكد ان المؤلفين القدماء ابتداء من ابن النديم (المتوفي سنة ٣٨٥ هـ) حتى ابن الجوزي في اخر القرن السادس الهجري يؤكدون لنا أن الصفة الغالبة عليه هي الحماقة وأن شهرته قد طارت في الآفاق حتى ليضرب به المثل كما رأينا ، ثم يدللون على ذلك بمجموعة من نوادره ، يرون انها تؤكد حماقته ، بينما هي في حقيقة الامر تؤكد تحامقه كذلك ... ذلك ان المتامل لاقواله وافعاله ـ كما وردت في هذه النوادر ـ يراها تشير الى أنها صدرت من انسان متعقل ، واع ، فطن اتخذ من الحماقة او التحامق أسلوبا في التعبير في مواقف غير متعقلة أساسا ... ويؤكد هذا الراي الذي نذهب اليه احد المعاصرين لجحا نفسه . كما سنرى وشيكا في رواية « **ابن الجوزي** » (المتوفي ببغداد سنة ٥٩٧ هـ) حيث روى في كتابه (**اخبار الحمقى والمغفلين**) عن مكي بن ابراهيم (١١٦ هـ ــ ٢١٥ هـ) انه يقول : رأيت جحا رجلا كيسا ظريفا ، وهذا الذي يقال عنه ـ في الحمق ـ مكذوب عليه ، وكان له جيران مخنثون يمازحهم ويمازحونه ، فوضعوا عليه (١) بل ان ابن الجوزي نفسه ، يرى في جحا ذلك حيث يقول .. « روى عنه ما يدل على فطنة وذكاء (٢) . لكنه يعود فيقول ... » الا أن الغالب عليه التغفيل (٣) كما يظن في الوقت نفسه « أن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات والله أعلم (٤) » ولم يستطع ابن الجوزي أن يجزم بشيء ، وأن كان قد ترجم له في « أخبار الحمقى والمغفلين » في الباب الثامن الذي جاء تحت عنوان « أخبار من

---

(١) نفسه ، ص ٢٥ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥ .

(٤) اخبار الحمقى والمغفلين ، لابن الجوزى ، ص ٢٥ .

ضرب المثل بحمقه وتغفيله » فقال « ومنهم جحا ويكنى أبا الغصن » (١) .

ونستطيع من رواية ابن الجوزى ، ان نخرج بعدة نتائج اهمها : أن ابن الجوزى نفسه قد شك في حماقة جحا وجنونه ، وراى فيه رجلا كيسا ظريفا ، واستدل على ذلك براي احد المعاصرين لجحا نفسه ، غير انه لم يمتلك من القرائن المادية ما يجعله يجزم بامر — سوى الرواية التي نسبها لمكي بن ابراهيم ومن ثم عاد فرجح جانب الحماقة والغفلة على الذكاء والكياسة ولعل ما اوقعه في هذا التردد هو هذا الكم من النوادر الذي يسم جحا بالحمق ، أو بالاحرى اجماع معاصريه وخاصة الميداني على ذلك ، حتى لنراه يحاول تعليل ذلك بالتشكيك — لاول مرة — في نسبة هذه النوادر نفسها اليه — وانها من وضع « من كان يعاديه » وهو امر ذو دلالة في طريق تحول شخصية جحا من واقع تاريخي الى رمز فني كما سنرى وشيكا .

٤

لم اتمكن من العثور على بعض مؤلفات القرن الهجرى التي يحتمل أن يتردد فيها اسم جحا ومن ثم فسوف نتجاوز هذا القرن — وهو القرن الذي شهد سقوط الخلافة العباسية وغرق بغداد في بحار الدم وغرق هذا الكم الرهيب من كتب التراث في مياه دجلة — لننتقل الى القرن الثامن ، فان أول ما نعثر عليه هو كتاب « **عيون التواريخ** » لابن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ حيث عثرنا فيه على ترجمة لجحا العربي ، فقد ذكر ابن شاكر (٢) في « من توفي من الاعيان سنة ١٦٠ هـ » ما يلي :

---

(١) نفسه ، ص ٢٥ .

(٢) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي — المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٤٩٧) تاريخ ص (٣٧٣) وما بعدها .

« وفيها توفي دجين ابو الغصن بن ثابت اليربوعي البصري المعروف بجحا ، رأى انس بن مالك ، وروى عن أسلم مولى عمر ابن الخطاب ، وهشام بن عروة ، وروى عنه ابن المبارك ، ومسلم ابن ابراهيم والاصمعي ، واخرون ، قال النسائي : ليس بثقة . قال الشيرازي في الالقاب : انه جحا ، والذي يقال فيه مكذوب عليه ، وكان فتى ظريفا ، وله جيران مخنثون يمازحونه ويزيدون عليه ، وقال ابن حبان : والدجين ، يتوهم احداث أصحابنا انــه جحا ، وليس كذلك ، ولكن وفاتهما في سنة ستين ومائة ، وأما جحا فاسمه نوح ، قال الحافظ ابن عساكر : عاش اكثر من مائة سنة ، وفيه يقول عمر بن ابي ربيعة :

دلهت عقلـي وتلعبت بـي حتى كاني من جنوني جحا

وفي ضوء رواية ابن شاكر ــ او بالاحرى ما جمعه ابن شاكر من روايات ، نجد انفسنا للمرة الاولى امام شخصيتين تاريخيتين لجحا : احداهما تترجم لجحا المحدث الذي كان من رواة الاحاديث النبوية ، والاخرى ، عن جحا صاحب النوادر .. ويحاول ابن شاكر أن يفصل بين الشخصيتين مستفيدا من رواية ابن حبان الذي حاول أن ينفي وجود علاقة بين الشخصيتين ، اذ يقول « والدجين يتوهم أحداث أصحابنا انه جحا ، وليس كذلك » ويعني بأحداث عصره المتاخرين . ويعـزى سـبب الخلط أو الاضطراب الى أن « وفاتهما في سنة مائة وستين للهجرة » وما أن ينتهي ابن شاكر من ترجمته لجحا المحدث ، نراه يشرع في الترجمة لجحا صاحب النوادر معتمدا في ذلك على ما رواه الآبي الذي استقاها بدوره مما كتبه الجاحظ وليس الحافظ بن عساكر (1) .

---

(1) بالعودة الى مخطوط « تاريخ ابن عساكر » الذي يقع في ثمانية واربعين جزءا ، لم اتمكن من العثور فيه على ترجمة لجحا ، مما يؤكد ان واحدا من نســاخ المخطوط إئد وقع في تصحيف الاسم ، اذ ان الفرق ليس كبيرا في الرسم بين الجاحظ و.بحافظ ، ولعله أي الناسخ قد شك في نسبة الخبر الــى الجاحظ

ويبدو ان المتاخرين من العلماء قد وجدوا حرجا في نسبة نوادر الحمق الي هذا « **التابعي** » جحا ، فزعموا انه غيره ... او على احسن الفروض ، هو نفسه ـ كما قال الشيرازي في الالقاب ـ ولكنه ليس صاحب نوادر ، وان هذا « الذي يقال فيه مكذوب عليه » وانه « كان فتى ظريفا » ذكيا فطنا ... وكل ما في الامر ـ في راي الشيرازي نفسه ان كان لجحا « جيران مخنثون يمازحونه ويزيدون عليه » .

والمتأمل لهذه الآراء ، يرجح أن جحا المحدث هو نفسه جحا صاحب النوادر فالكنية واللقب كلاهما متشابهان وسنة الوفاة واحدة هي سنة ١٦٠ هـ ، وكلاهما كيس فطن ، وكلاهما له باع في عالم مشهور في دنيا المزاح ، وتذوق النوادر وابداعها ... الامر الذي جعل الاخرين يتزيدون عليهما ... بعبارة اخرى ، ان أوجه الشبه اكثر من أوجه الخلاف ... مما يؤكد ما ذهبنا اليه من انهما شخصية واحدة لا شخصيتان . والحق انني لا ادري كيف جاز هذا الامر على القدماء .. ؟ هل لمجرد اختلاف في الاسم .. ؟ واذا كان الامر كذلك ، فما اسم جحا صاحب النوادر اذن ؟ هذا ما لم تقطع فيه المصادر القديمة برأي . أليس مما يجعلنا نرتاب في هذه التفرقة أن صاحب الحديث نفسه « ليس بثقة » كما قال النسائي ، ولعل مصدر التجريح في شخصه وروايته ـ فيما أظن ـ قد جاء مما تقوّله من نوادر

فاراد أن يؤكد نسبته للحافظ ، فزعم أنه « ابن عساكر » ومما يؤكد ذلك أيضا اعتماد ابن شاكر ، على رواية الآبي ، حيث دون لجحا خمسا وعشرين نادرة استقاها من نوادر نثر الدرر ـ البالغ عددها خمسا وأربعين ـ بالترتيب نفسه ، بعد أن أسقط منها ما اتسم بالفحش . أو ما ارتآه منسوبا لغيره .. وان ابن شاكر قد زاد نادرتين أخريين من عنده نراهما في كتاب أخبار الحمقى لابن الجوزى ... ثم ذكر ـ ابن شاكر ـ في ختامها ص ٢٧٤ من كتابه أن « نوادر جحا كثيرة جدا » .

وفكاهات لا تليق وراوية الحديث الشريف ، أو من ممازحته لجيران مخنثين تزيدوا عليه .. مما يؤكد انها تفرقة بين الشخصيتين لا اساس لها . . . وحتى لو أخذنا بهذه التفرقة ، وقلنا ان جحا المحدث يتسم بالذكاء والفطنة ، وان جحا صاحب النوادر يتسم بالحمق والغباء ، فان هذا لن يتعارض مع التطور الفني للرمز الجحوي .. فما دام الجحوان قد اختلط أمرهما (عند المؤرخين وكتاب السير والتراجم ، بله عامة الناس) فقد اختلطت سماتهما ومن ثم ، فلا غرو أن يتسم الرمز الجحوي بالذكاء والغباء . . . وبالفطنة والحمق معا ، كما سنرى . وسواء اخذنا بهذا الرأي أو ذاك ، فلسوف تبقى لروايات ابن شاكر دلالاتها التاريخية والفنية . . . فهي من ناحية قد حددت ـ لاول مرة سنة وفاة جحا ، وما دام قد عاش اكثر من مائة سنة ـ فهذا يعني ان جحا صاحب النوادر قد ولد في اواخر العقد الخامس أو أوائل العقد السادس من القرن الاول الهجرى . . .

ومن ناحية اخرى ، فان روايات ابن شاكر تضيف لنا ابعادا جديدة ، على طريق تطور هذه الشخصية من واقع تاريخي الى رمز فني ، فهي تؤكد ـ مرة اخرى ـ ذكاءه وكياسته وظرفه ، ثم تضيف الى ذلك بعدا جديدا ، هو البعد الديني ، كما أن ابن شاكر ، في نهاية ترجمته يؤكد لنا « أن نوادر جحا كثيرة جدا » (١) . مما يؤكد أن « التزيد » الذي اشار اليه الشيرازي ، قد وجد سبيله الى الذيوع والانتشار منسوبا الى جحا . . . وكان ذلك خطوة ـ لها ما بعدها ـ في سبيل التطور الفني للشخصية الجحوية .

٥

يأتي المتاخرون من العلماء وكتاب التراجم والسير ، فيقررون تارة ، وينفون تارة أخرى ذلك الخلط من الشخصيتين،

---

(١) عيون التواريخ ص ٢٧٤ .

جحا المحدّث ، وجحا صاحب النوادر ، فالدميري المتوفي سنة ٨٠٧ هـ في كتابه « حياة الحيوان الكبرى » يذكر في مادة داجن : « دجين بن ثابت ابو الغصن اليربوعي البصرى ، روى عن أسلم مولى عمر ، وهشام بن عروة . قال ابن معين ، حديثه ليس بشيء ، وقال ابو حاتم وابو زرعة ، ضعيف . قال النسائي : ليس بثقة ، وقال الدارقطني وغيره : ليس بالقوى . وقال ابن عدي : روى لنا عن ابن معين انه قال دجين هو جحا . وقال البخاري : دجين بن ثابت هو أبو الغصن سمع منه مسلم وابن المبارك كما روى عنه ايضا وكيع . قال عبد الرحمن بن مهدي لنا مرة : دجين هو جحا » ويذكر الدميري بعد ذلك حديثا شريفا كان أحد رواته جحا (١) .

ثم اضاف الدميري بعد ذلك في آخر ترجمته لجحا : وقال حمزة الميداني جحا رجل من فزارة كنيته ابو الغصن ، وهو من أحمق الناس (٢) » . وواضح أن الدميري استقى مادته تلك من مجمع الامثال للميداني . كما ذكر كذلك ثلاث نوادر لجحا هي التي اوردها الميداني فعلا في امثاله .

ومن هنا لا تضيف رواية الدميري غير تأكيد هذا الخلط بين الجحوين للاسباب نفسها التي سبق ذكرها . وكذلك الفيروز ابادى المتوفي سنة ٨١٧ هـ صاحب القاموس المحيط يقول في مادة دجن : ودجين بن ثابت كزبير ابو الغصن جحا ، او جحا غيره (٣) . وفي مادة غصن ، وابو الغصن دجين بن ثابت بن دجين ، وليس بجحا كما توهمه الجوهري (٤) .. وفي مادة جحا : وجحا كهدى

---

١ ــ حياة الحيوان الكبرى للدميري (كمال الدين) . المطبعة الشرقية بالقاهرة . الجزء الاول ص ٢٧٣ ــ مادة : دجن .

٢ ــ المصدر السابق جـ ١ ــ ص ٢٧٣ .

٣ ــ القاموس المحيط جـ ٤ ــ ص ٢١٧ .

٤ ــ المصدر السابق جـ ٤ ــ ص ٢٤٩ .

لقب ابي الغصن دجين بن ثابت (١) ، ووهم الجوهري (٢) فالفيروز ابادى يحاول أن يفصل بين الاثنين لكنه لا يقطع برأي . .

اما **ابن حجة الحموى** (المتوفي سنة ٨٣٧ هـ) في كتابه : « **ثمرات الاوراق** » لا يفرق بينهما بل يجمع ما قيل عنهما . . . وان كان قد أورد ترجمته لجحا ضمن مشاهير الحمقى . يقول :

« ومنهم جحا ، قال بعضهم : من أذكياء الناس وانما كان بينه وبين قومه عداوة فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان . . وقيل انه كان من كبار الحمقى والمغفلين (٣) . » ويذكر ثلاث نوادر نسبها لجحا بعد ذلك .

فجحا عند ابن حجة الحموي واحد من اثنين ـ امـا من اذكياء الناس ، وأن العداوة التي كانت بينه وبين قومه هـي السبب في وضع الحكايات عليه ـ كما قيل عن جحا المحدث من قبل ـ واما من كبار الحمقى ـ كما قيل عن جحا صاحب النوادر ـ وان ابن حجة يؤيد الرأي الاخير بدليل انه ترجم له ضمن مشاهير الحمقى وان لم يجزم برأي كذلك .

اما « **ابن حجر العسقلاني** » المتوفي سنة ٨٥٢ هـ في ترجمته لجحا في كتابه « **لسان الميزان** » ، فانه لا يختلف مع ما ذكره ابن شاكر والدميري الا في أنه نفى قول ابن معين ، حيث قال : ـ « قد روى لنا عن يحيى بن معين أنه قال : الدجين هو جحا ، وهذا

---

١ ـ المصدر السابق ـ ٤ ـ ص ٢٠٤ .

٢ ـ ووهم الجوهري اي توهم الجوهري في جعل جحا اسما لا لقبا ، وليس ذلك بغلط ، فالمعروف في اللغة العربية أن الاسم يعم اللقب والكنية .

٣ ـ ثمرات الاوراق في المحاضرات ، لابن حجة الحموي (تقى الدين) ـ ج ١ ـ ص ١٦٢ .

لم يصح عنه (١) فابن حجر اذن يفرق بين الجحوين . وينفي ما قيل عن ابن معين .

وتبقى لهذه النصوص جميعا دلالاتها ـ وهي أن جحا شخصية ذات واقع تاريخي ، وان اختلفت الآراء بعد ذلك حول ما اشتهر به صاحبها من ذكاء أو غباء ... ولم يستطع القدماء ـ من الناحية التاريخية ـ القطع براي حاسم في هذا الصدد ، الامر الذي له مغزاه من الناحية الادبية والفنية ، وبخاصة في مجال المأثورات الشعبية ـ ذلك أن الانماط الفنية أو النماذج الادبية ـ برغم امتداد جذورها في التاريخ ـ تجد سبيلها ميسورا الى « التنميط » الفني ، كلما انطمست او اختلطت معالمها الشخصية المميزة ومن ثم اضطربت صورتها من الناحية التاريخية ، كلما أتاح لها ذلك ـ في مجال الابداع الادبى ـ ميادين جديدة تتحول خلالها على يد الفنان الشعبي الى نماذج وانماط ادبية وفنية ، بعبارة اكثر وضوحا ... ان ذلك الخلط والاضطراب في الروايات يساعدها على الانتقال عن الواقع التاريخي الى الواقع الفني ، حيث يعاد تشكيلها وصياغتها من جديد ، في ضوء ما يرتأى لها من رموز ودلالات جديدة .. فتتحول الشخصية حينئذ الى النموذج الفني او الادبي الذي يصبح حينئذ رمزا دالا على قضايا بعينها ، كانت هي السبب في انتحاب هذه الشخصية من التاريخ من ناحية ، وتنميطها في ميدان الفن من ناحية اخرى. واقرب مثال للتدليل على ذلك ، أبطال السير الشعبية العربية ، فجميعهم ينتمي الى الواقع التاريخي ـ الذي شابه الخلط والاضطراب ـ الامر الذي اتاح للقاص الشعبي ، فرصة الانتحاب

---

(١) لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ـ ج ٢ ـ ص ٤٢٨ ـ الطبعة الاولى ـ الهند .

واعادة صياغة او تشكيل هذه الشخصيات في أنماط فنية مميزة ، في ضوء القضايا التي أراد معالجتها في كل ملحمة على حدة (١) .

وهذا ما حدث تماما مع الرمز الجحوي ؛ اذ لم تختلف المصادر القديمة في حقيقة وجوده من الناحية التاريخية ، ومن ثم اصالته من الناحية الفنية ، وانما الخلاف كان حول ما نسب اليه من ذكاء اذا اعتبرناه محدثا أو ما نسب اليه من غباء ، اذا اعتبرناه صاحب نوادر ، أما وقد اختلط الامر على القدماء ، فقد بات بمقدور المبدع الشعبي أن يجمع بين صفاتهما المميزة ، دون مساءلة من جانب التاريخ ، الامر الذي حسمه بالفعل الضمير الادبي أو الوجدان الشعبي منذ أمد بعيد ، عندما لم يشأ أن يفرق بينهما ، فجعل منهما ـ من الناحية التعبيرية ـ نموذجا فنيا واحدا هو جحا فحسب ، تتسم شخصيته الفنية بالجمع بين هذين البعدين المتناقضين ، الذكاء والغباء ، وبذلك يكون الواقع التاريخي ، قد انسحب تدريجيا ليحل محله ـ الرمز الفني لجحا ، كما نعرفه جميعا ، بطلا لنوادر الذكاء والغباء في آن ، في التراث العربي عامة ، والابداع الشعبي خاصة .

والى هنا ـ اي حتى منتصف القرن التاسع الهجري ـ ينبغي ان نضع في الاعتبار أن شخصية نصر الدين خوجة المعروف بجحا الروم ، لما تظهر الى الوجود . تاريخيا أو فنيا .



لعل أهم مصدر نختتم به ترجمتنا لجحا العرب ، هو « تاج العروس من جواهر القاموس » للزبيدي المتوفي سنة ١٢٠٥ هـ ، وهذا المصدر ، وان كان متأخرا نسبيا الا انه يعتمد على المصادر السابقة ، وأخرى معاصرة له لم نذكرها ، مما يؤكد ما ذهبنا اليه من قبل . يقول الزبيدي :

---

١ ـ انظر الجزء الاول من ، « البطل في الملاحم الشعبية العربية ، قضايا وملامحه الفنية » للمؤلف ، رسالة دكتوراه لم تنشر ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٦م .

« ...... ونقل شيخنا عن شرح تقريب النواوي للجلال : الدجين بن الحارث أبو الغصن ، قال ابن الصلاح : قيل انه جحا المعروف ، والاصح انه غيره . قال : وعلى الاول مشى الشيرازي في الالقاب ، ورواه ابن معين ، واختار ما صححه ابن حبان ، وابن عدي . وقال : قد روى ابن المبارك ووكيع ومسلم بن ابراهيم عنه ، وهؤلاء اعلم بالله من أن يرووا عن جحا (١) .

قلت وفي ديوان الذهبي (٢) : دجين بن ثابت ابو الغصن البصري ، عن أسلم مولى عمر ضعفوه ثم قال شيخنا : وفي كتاب المنهج المطهر للقلب والفوائد للقطب الشعراني ما نصه : عبد الله جحا هو تابعي ، كما رأيته بخط الجلال السيوطي ، قال : وكانت أمه خادمة لانس بن مالك . وكان الغالب عليه السماحة ، وصفاء السريرة فلا ينبغي لاحد أن يسخر به اذا سمع ما يضاف اليه من الحكايات المضحكة بل يسأل الله أن ينفعه ببركاته . قال الجلال : وغالب ما يذكر عنه من الحكايات المضحكة لا أصل له .. قال شيخنا : وذكره غير واحد ونسبوا له كرامات وعلوما جمة (٣)

---

١ — وهو في ذلك يتفق مع ما ذكره ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هـ ، ان لم يكن قد نقل عنه في لسان الميزان — جـ ٢ — ص ٣٢٨ .

(٢) وبالرجوع الى كتاب الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ ، وهو كتاب ميزان الاعتدال في نقد رجال الحديث — الطبعة الاولى سنة ١٣٢٥ هـ ، المجلد الاول ص ٣٢٦ نجد ان الزبيدي صاحب تاج العروس قد نقل هذه الرواية من كتاب الذهبي هذا . والذهبي كما هو واضح من تاريخ وفاته أنه عاش قبل الزبيدي بستة قرون تقريبا ، كما ان الذهبي اعتبر الدجين بين ثابت محدثا وليس صاحب النوادر . واكد هذه الحقيقة أيضا في كتابه (المشتبه في رجال الحديث) جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٣) شرح القاموس المسمى « تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي » (محيى الدين ابو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطى الزبيدى) المجلد العاشر ص ٦٧ — ٦٨ مادة جحى .

ويذكر الزبيدي كذلك في مادة دجن : ودجين بن ثابت كزبير أبو الغصن البصري ولقبه جحا كذا صرح به الدميري في حياة الحيوان . أو جحا رجل غيره (غير جحا المحدث) نسبت اليه حكايات وهو الصحيح » . (١) ونخرج من تاج العروس بما يلي :

أ ـ انه بالرغم من اعتراف القدماء بالواقع التاريخي للشخصية الجحوية فان الخلط لا يزال قائما عندهم ، فهل جحا المحدث هو صاحب النوادر أو غيره ...؟ وان كان اغلب القدماء يؤكدون انهما شخصية واحدة كما ذهبنا من قبل .

ب ـ أن ثمة خلافا بين القدماء حول اسم جحا المحدث نفسه فهو تارة الدجين بن ثابت ابو الغصن ، وهو تارة اخرى الدجين بن الحارث ابو الغصن ، بينما هو في راي الامام السيوطي والامام الشعراني « عبد الله جحا » .

جـ ـ انه كان تابعيا ، وكانت امه خادمة لأنس بن مالك .

د ـ أن السيوطي ـ في رواية الزبيدي ـ يؤكد ان لجحا المحدث بعض النوادر المضحكة ، وان كانت قد نسبت اليه نوادر كثيرة بعد ذلك ، ليس هو بقائلها ، وهذا يعني أن جحا المحدث كان واحدا ممن عرفوا بالفكاهة ، واشتهرت عنه ، بل صار رمزا لها ، وان الوجدان الشعبي لم تعنه تلك التفرقة ـ ان وجدت ـ بين جحا المحدث وجحا صاحب النوادر ، ما دامت النادرة الشائقة تجمع بينهما .

غير ان أهم النتائج التي نخرج بها ـ من روايات تاج العروس ـ والتي نرى فيها ملامح او ابعادا جديدة يمكن ان نضيفها الى الشخصية الجحوية كما قررها القدماء انفسهم هي :

---

٢ ـ المصدر السابق ـ المجلد التاسع ص ١٩٦ مادة دجن .

١ ــ أن الغالب على جحا ــ المحــدث ــ السماحة وصفــاء السريرة ، ولا ينبغي ــ كما يقول السيوطي والشعراني ــ لاحد أن يسخر به ، اذا سمع ما يضاف اليه من الحكايات المضحكة .

٢ ــ ان القدماء نسبوا الى جحا الكرامات .

٣ ــ ان القدماء نسبوا اليه كذلك علوما جمة ...

وهذا يعني ان جحا كان عالما فقيها ، تنسب اليه الكرامات (كرامات الاولياء) وانه الى جانب ما يتمتع به من حس فكاهي ــ يتوسل فيه بالذكاء اللماح ــ كان يتسم كذلك بالسماحة وصفاء السريرة .... وهي صفات لا ندركها في روايات الزبيدي فحسب بل تؤكدها النوادر التي نسبت اليه ، وكان بطلا لها ...

ومما هو جدير بالذكر ان هذه الصفات نفسها نراها تتمحور حول شخصية جحا التركي وتشيع عنه ، كما يتمحور هو حولها ويتسم بها ، ولهذه دلالة الفنية في هذا المقام ، ذلــك أن الرمز الجحوي بعامة ــ من سماته المحورية ــ ان يكون عالما فقيهــا ، سمحا ،له كراماته وبركاته ، صافي السريرة ، نقي القلب ، لا يضمر الحقد لاحد ... ولكنه يشفق على الناس من عبث الناس ، متوسلا في نقده للحياة والاحياء ، بالقول الذكي الذي قد يتصوره البعض نوعا من الحماقة والتغفيل .

ويهمنا في هذا المقام ــ كذلك ــ ان نؤكد ان هذه السمات « التاريخية » التي اتسم بها جحا العرب ــ كما حكاها الزبيدي ــ قد شاعت عنه ، وانتقلت معه من الشخصية التاريخية الـــى الشخصية الفنية ... وصارت ــ من ثم ــ ملامح مميزة واصيلة يتســم بها الرمــز الجحوي ، بحيث لم تعــد تلك السمـــات « التاريخية » تجد من يحتفل بها من العلماء ــ أو كتاب السير والتراجم ، امام ذيوع السمات الفنية ، الامر الذي تضاءلت معه الشخصية التاريخية ــ الى الحد الذي شك معه الكثير في حقيقة وجودها ، وراوا فيهــا شخصية خيالية او خرافيــة ــ وذلك

لانتشار او ذيوع الشخصية الفنية ، بسماتها وعناصرها المحورية التي تتسم بها عادة النماذج الفنية الشعبية المرحة ـ ذات المدلول القومي ـ في تنميطها الفني المميز .

ومجمل القول ، ان الحس الفني الفطري ، للوجدان الجمعي العربي ـ واعيا او غير واع ـ لم يشأ أن يفرق بين شخصية جحا المحدث ، وجحا صاحب النوادر ، ورأى فيهما شخصية واحدة ـ اكدها البحث العلمي في النهاية ـ تحمل بين اعطافها تلك السمات والملامح المحورية التي ينبغي أن تتميز بها النماذج الفنية الشعبية المرحة ، فانتخبها رمزا ـ ذات دلالات قومية وجمعية ـ لفكاهاته وسخرياته عبر العصور ، وانتقل بصاحبها من واقعه التاريخي المحدد الى رمز فني ممتد ، يستقطب من خلاله كثيرا من الصفات والمعايير القومية والانسانية، وكثيرا من انماط التعبير والسلوك الشائعة في حياتنا اليومية ، ونسبها الى جحا ، ذلك الرمز الفني الاشهر ، في ادبنا الفكاهي ، كما نعلم .

وان كان ثمة من ملاحظة ـ تكررت من قبل ـ فهي أن المصادر العربية كلها لم تذكر أن جحا العربي ، شخصية خيالية ، او انه هو نصر الدين خوجة المعروف بجحا الروم ، كما حدث عند المحدثين من خلط ـ وانما نراها جميعا تقطع ، بوجوده ، وتنسب اليه فكاهات لا حصر لها ، قد يكون هو صاحبها ، وقد تكون موضوعة عليه ، ولكنها جميعا في النهاية تجمع على كونه نبتا عربيا أصيلا .



لو استقرأنا الان ، بعض الملامح والقسمات الخاصة ، بشخصية جحا العربي ، من خلال نوادره ـ لا أخباره ـ وبخاصة تلك النوادر التي أثرت عنه ، ونسبت اليه في حياته ، وكان صاحبها وبطلها ، فلم تنسب لغيره ـ كما ذكر الاقدمون ـ لما

خرجنا بغير الملامح والقسمات التي اكدتها اخباره (التاريخية) نفسها ، ومن ثم سوف نجد انفسنا في خلاف مع هؤلاء الاقدمين ، الذين ترجموا لجحا ، وصنفوا لنوادره ، بين نوادر الحمقى والمغفلين ، وكان عليهم أن يترجموا له وان يصنفوا لنوادره بين نوادر الاذكياء ... ذلك أن المتامل لهذه النوادر التي انفردت نسبتها الى جحا ، في حياته ، تؤكد انه كان ذكيا ، لماحا ، حاضر الجواب ، سريع البديهة ، حاد البصيرة ، ثاقب النظر ، وان تظاهر بغير ذلك ، لاسباب بعينها ـ الامر الذي أكده احد الباحثين المعاصرين ، هو كامل كيلاني الذي عثر ـ فيما يقول ـ على مخطوط قديم ، كتبه أبو السبهلل طارق بن بهلل بن ثابت بن أخي جحا (الذي كان معنيا بتسجيل أحاديث عمه جحا) وملحه وطرائفه وان هذا المخطوط يشرح لنا الاسباب التي ادت بجحا الى اتخاذ اسلوبه الخاص في التغابي والتحامق ....

يذكر كامل كيلاني في مقدمة المخطوط الذي عثر عليه ، ونشرها في مجلة الهلال (١) ، الطريقة التي تم عليها اللقاء المشهور بين جحا وبين أبي مسلم الخراساني ـ كما رواها أبو السبهلل ـ . قال جحا « لقد نمت بعض اخباري الى أبي مسلم الخراساني القائد الجبار الذي هزم الدولة الاموية وزلزل كيانها وأقام الدولة العباسية وثبت دعائمها وشيد بنيانها ، فامتلأت نفسي منه رعبا وفزعا أول الامر .... ثم جريت على مألوف عادتي في الاستهانة بما لا حيلة لي في دفعه من الاخطار ، ومقابلته بالابتسام ، ولم أكن اعلم لاستدعائه اياي سببا ، فلما بلغت مكانه علمت أن صديقي يقطين قد سمع « أبا مسلم » يذكرني بالخير في أحد مجالسه ، ويتنادر بما اذاعه بعض الاغبياء عني من ضروب الغفلة ، فلم يكد يتبين شوقه الى

---

١ ـ مجلة الهلال ـ العدد الثامن ـ مجلد ٥٦ ، اغسطس ١٩٤٨ م . القاهرة ـ ص ١٣٨ وما بعدها .

لقائي حتى أُفضى اليه بمكاني ، فأمر ابو مسلم باستدعائي اليه ، فاعتصمت بالحذر ، وتظاهرت بالبله ، ولم أكد أرى صاحبي يقطين مع ابي مسلم ، وليس معهما ثالث ـ حتى التفت اليه متبالها ، وسألته متغابيا ـ ايكما ابو مسلم يا يقطين ..؟ فانخدع في أمري ابو مسلم على وفرة ذكائه وفطنته ، واستغرق في الضحك من بلاهتي . وهكذا ضمنت الفوز في البعد عنه والنجاة من صحبته » (١) .

فاذا ما تركنا هذا النص الذي نشره الاستاذ الكيلاني ، وذهبنا نستشف حقيقة « النموذج الجحوى العربي » واسلوبه في الحياة من خلال نوادره ، ما خرجنا بغير النتيجة القائلة بأن أبا الغصن دجين بن ثابت المعروف بجحا الفزارى كان من اذكى رجال عصره ، على غير ما اذاع عنه اهل عصره الذين صنفوا نوادره مع اخبار الحمقى والمغفلين .. ونلدلل على هذا بالنوادر التي وجدناها له في اقدم مخطوط لدينا ، وهو نثر الدرر للآبي ، وسناخذ هذه النوادر بترتيب الآبي نفسه وروايته .

النادرة الاولى : « قيل لجحا ـ اتعلمت الحساب ..؟ قال ـ نعم ، فما يشكل علي شيء منه ـ قال له ـ اقسم اربعة دراهم على ثلاثة ، فقال ـ لرجلين درهمان درهمان وليس للثالث شيء ». فهنا نرى جحا يرد على السائل المستخف به باجابة مسكتة تخرسه ، يضحك منها الساذج ويعتقد انه ابله ، وهل من المعقول ان تحتاج مثل هذه المسألة من جحا أن يتعلم الحساب لكي يعرف الجواب الصحيح ؟!! واضح أن الغرض من طرح المسألة على جحا على هذا النحو هو الاستهزاء به ... لكن جحا كان اذكى من سائله ، فسخر منه باجابته على النحو السابق .

النادرة الثانية : « اراد المهدي أن يعبث به ، فدعا بالنطع والسيف ، فلما اقعد في النطع وقام السياف على راسه ، وهز

١ ـ الهلال ـ العدد ٨ م ٥٦ ، ص ١٣٨ .

سيفه ، رفع جحا اليه راسه وقال احذرحتى لا تصيب محاجمي بالسيف ، فاني قد احتجمت ، فضحك المهدي واجازه » . وبهذا نرى كيف تخلص جحا من هذا المازق الحرج حين اراد الامير ان يعبث به على هذا النحو ـ بل ان اقل هفوة من جحا او سوء تصرف قد تقلب الموقف من هزل الى جد ولكن جحا ـ وهو الذكي الفطن ـ كان عليه أن يتخلص ببراعة وذكاء من مثل هذا الموقف ... فضحك المهدي واجازه ... وكم حفظ لنا التاريخ من مواقف ـ جادة او عابثة ـ كانت الكلمة البليغة فيها أو النكتة المستملحة سببا في انقاذ حياة قائلها .

ولو مضينا مع نوادر نثر الدرر للآبي فاخذنا النادرة الثالثة اوالرابعة اوالخامسة او السادسة او كلها لما خرجنا بغير ما ذهبنا اليه وهو : ـ

* ان جحا العرب ـ من نوادره وبشهادة بعض معاصريه ـ به ذكاء وفطنة ودهاء ...

* انه اتخذ من الغباء او التغابي ـ الحمق أو التحامق ـ أسلوبا له في الحياة ، مكيفا نفسه بذلك مع ظروف عصره.. ومعاصريه ، فيما لا حيلة له في دفعه من الاخطار .

* ان جحا كان ذا حس فكاهي مشهود .. مؤمنا بفلسفة الضحك ودوره في التغلب على صعاب الحياة ، موهوبا يجيد قول الفكاهة بكل الوانها المختلفة قادرا على السخرية حتى من نفسه .. وانه حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، حسن التخلص من المازق .

* ان جحا العرب قادر على أن يقلب المأساة الى ملهاة ـ في قمة من قمم فن السخرية ـ كهذه النادرة التي ذكرها الآبي حين « نظر جحا الى رجل مقيد وهو مغتم ، فقال له ما غمك يا رجل ؟ اذا نزع القيد عنك فثمنه قايم ، ولبسه ربح » .

تبقى ملاحظة اخيرة حول شخصية جحا الفزاري وهي ان العرب القدماء وصفوا الحمقى بصفات معينة منها « نقش خاتم الاحمق » ، فيذكرون للحمقى عبارات لا معنى لها على خواتمهم ، او تدل على خصلة بعينها كالطمع أو البخل وما الى ذلك ، ولـم يشذ جحا عن هذه القاعدة ، فذكر لنا الآبي أن جحا ـ الاحمق ـ نقش على خاتمه العبارة التالية : « عشاء الليل ردىء . . . » ويبقى لنا ان نتساءل : هلْ هذه العبارة تدل على خلة الحمق بجحا حقا ؟



٢

جُحَا التركي

بين الواقع التاريخي والرمز الفني



نصر الدين خوجه أو الخوجه نصر الدين ، هو البطل الاشهر لقصص الذكاء والغباء عند الاتراك دون منازع ، واليه تنسب نوادرهم وحكاياتهم المرحة ، ولكسب بهذا الانتساب اهميتها البالغة لديهم ، ومن ثم فهم يرددون الكثير من نوادره وحكاياته ـ ليس من باب التفكه أو التندر فحسب ـ بل يستعينون بها ـ موقفا وسلوكا ـ في التعبير عن حياتهم العملية ، وما تنطوي عليه تلك الحياة من ضروب المعاناة اليومية يقتدون بها في سلوكهم ، ويتمثلونها في الكثير من مواقفهم ، كما تقول دائرة المعارف الاسلامية ، التي نراها تذكر عددا من الآراء المتضاربة والمتناقضة حول هذه الشخصية ـ من الناحية التاريخية ـ كهذا التضارب والتناقض الذي لمسناه في التأريخ لجحا الفزاري العربي ... فهو أي « نصر الدين خوجه » في احد الاحاديث رجل متعلم عاقل في زمن الرشيد ، بينما هو في حديث اخر ، معاصر لخوارزم شاه علاء الدين طاليش (الذي حكم في المدة ١١٧٢ ـ ١٢٠٠ م) غير أنه ينبغي الا نأخذ أيا من الرأيين على محمل الجد بل يجب ـ في اكثر تقدير ـ اعتبارهما دلالة على أن كثيرا من دعابات الخوجه وتاريخها يعود الى عصر الخلفاء ، وقد وصلت خلال وسيط فارسي . (١)

---

١ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، النسخة الانجليزية ـ مادة نصر الدين ، ص ٨٧٦ .

ويتضح لنا من هذا النص :

(١) ان جحا الاتراك – في التأريخ له – لم يسلم من الخلط والاضطراب الذي لمسناه في ترجمتنا لجحا العرب ، فالرأي الاول يراه رجلا متعلما عاش في زمن هارون الرشيد متفقا بذلك مع الرواية التي تؤرخ لجحا العرب وهو راي متأثر بالرمز العربي تاريخيا ، بينما الرأي الثاني يراه معاصرا للسلطان علاء الدين في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الميلاديين . كما أنه – بدهيا – يؤكد أن الرمز العربي سابق للرمز التركي في وجوده ، ان سلمنا من الخلط بين النموذجين .

(٢) ان الرمز التركي قد استقطب الكثير من نوادر سلفه الرمز العربي التي وصلت اليه عبر وسيط فارسي .

(٣) وبهذا نستطيع أن نضع يدنا على مفتاح هام في دراستنا لتأثر وتأثير الرمز العربي في العالم التركي ، فالحضارة السلجوقية أو التركية – التي عاصرها الرمز التركي – في أساسها متأثرة كل التأثير كما نعلم – بالثقافة الفارسية – ثم العربية وهذا مما يؤكد لنا الرأي القائل باحتمال انتقال النوادر العربية الى الرمز التركي سواء عن طريق الوسيط الفارسي او من العرب مباشرة كما سوف نـرى .

وتجمل دائرة المعارف الاسلامية الآراء التي توصل اليها الدارسون – ولا سيما المستشرقون في تاريخهم لهذه الشخصيه واعتقادهم بوجودها وان اختلفوا في زمانها ومكانها ، ويمكن أن نصنف تلك الآراء في مجموعتين ..

المجموعة الاولى – تضعه في القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين (أي زمن بيازيد الاول وتيمور وقرمنيد الثاني علاء الدين) .

بينما تضعه المجموعة الاخرى : في القرن الثالث عشر (في زمن سلجوق علاء الدين) .

ويبدو ان الراي الاول قد استمد ادلته مما جاء في قصص رحلات اكسيليا شلبي (Exliya Gelebi) حيث ذكر على سبيل المثال قصة ذلك اللقاء بين تيمور وبين الخوجة في الحمامات حينما اعلن الخوجه عن استعداده لشراء قميص تيمورلنك في مقابل اربعين فدانا ــ هي قيمة القميص فقط ــ اما تيمور نفسه فلا يساوي شيئا . (على الرغم من اننا نشارك كاتب مادة نصر الدين الشك في حدوث هذه النادرة لاستحالة التلفظ بمثل هذا القول في حضرة تيمور الا اذا تقبلها الاخير من باب التفكه ، اعجابا منه بشخصية نصر الدين ، وعلى كل حال فقد اتاح كانتيمير (Cantimir) وديز (Dies) ، وفون هامر (Von Hamer) وغيرهم ، لقصة اكسيليا شلبي أن تنتشر وتستمر في أوروبا الى أن اعترف محمد توفيق ــ كاتب تركي ــ بهذه القصة في كتاباته سنة ١٨٨٣ م . عن فكاهات نصر الدين (في كتابه بو آدم (Baadam) اي « هذا الرجل » ويعني به نصر الدين خوجه ، وهي الفكاهات التي ترجمت فيما بعد الى الالمانية سنة ١٨٩٠ م ، حيث تجددت في هذه القصة الحياة ، واصبحت منذ ذلك الوقت الراي السائد في اوروبا .

اما **المجموعة الثانية** فترى ان نصر الدين قد عاش في القرن الثالث عشر وتعتمد في رايها على الادلة التالية : ــ

اولا : القصيدة التي اوردها الشاعر لمعى (المتوفى حوالي سنة ١٥٣٢ ــ ١٥٣٣ م) في ديوان اللطائف (Lataif) والتي أكد فيها أن نصر الدين كان معاصرا لشاهياد حمزة (Shaiyad Hamza) الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي .

ثانيا : في المخطوطات القديمة جاء ذكر الخوجه مقرونا بالسلطان علاء الدين ، مما جعل قوبريلي زاده (Koprulu-Zade) ــ أستاذ الادب التركي في جامعة استانبول ــ يميل الى فكرة انه كان معاصرا

لعلاء الدين السلجوقي الذي عاش في القرن الثالث عشر (١) أما ش. سامي بك (Sh. Samy Bay) وكذلك ب . هورن (P. Horn) فقد قررا أنه كان معاصرا للسلاجقة ، بينما يؤكد الاخير ـ هورن ـ انه كان في عصر علاء الدين السلجوقي ، اما قوبريلي زاده فقد عضد وجهة نظره بأدلة جديدة نوعا ما ، تتلخص في :

(١) أن النقش الموجود على مقبرة نصر الدين في آق شهر (Ak-Shehir) يحمل تاريخ ٣٨٦ هـ ، وعلى افتراض أن الكتابة معكوسة ـ كما يقول ـ فان هذا يدل على أن ـ الخوجه قد توفي في سنة ٦٨٣ هـ أي سنة ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ م .

(٢) ذكر اسمه في وقفيتين رسميتين في سنة ٦٥٥ هـ اي (١٢٥٧م) ما يؤكد وقوف نصر الدين خوجة شاهدا أمام القاضي .

(٣) ما ذكره حسن افندي مفتي «سيوري حصار » السابق منذ ما يزيد على خمسة وأربعين عاما في « مجموعة المعارف » عن نصر الدين ، وقد اتفق ما قاله فيها عنه مع هذا الرأي . . . حيث ذكر حسن افندي أن نصر الدين ولد في قرية «خورتو» بجوار سيوري حصار في سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ ـ ١٢٠٩ م) وعاش فيها حيث نجح في خلافة ابيه في وظيفة الامامة ثم انتقل في سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ ـ ١٢٣٨ م) الى مدينة « آق شهر » حيث توفي بها سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ ـ ١٢٨٥م) .

وعلى الرغم من ان هذه الادلة ليست مقنعة تماما الا انه لا يمكن اهمالها تماما . وعلى كل حال لم يكن مما يثير العجب ازاء هذا التضارب في الروايات والآراء ان نجد بعض الباحثين أمثال رينيه باسيه (R. Basset) ، و م . هارتمان (M. Hartmann) و ا . فيسيلسكي (A. Wasselski) كانوا يشكون في تاريخ

---

١ ـ وقد نظم قوبريلي زاده أكثر من خمسين نادرة من النوادر الشائعة عن جحا شعرا .

الخوجة ، وفي وجوده نفسه وهذه الشكوك ترتبط الى حد ما باصول فكاهات نصر الدين (١) ، وسنعرض لهذه الآراء بالتفصيل عند الحديث عن نوادر نصر الدين ومصادرها ... بل ان باسيه يرى انه : « ليس من المستبعد أن تكون عامة الشعب في تركيا ـ قد حرفوا اسم (جحا) الذي كان يبدو غريبا عليهم الى (خوجة) ، وهذا الراي ينادي به باسيه (٢) ويصر عليه في :
(Melanges Africains et Orientaux, Paris)

انها قصة جحا العربي تتكرر مرة اخرى .....

ومن الترجمات الضافية ـ نسبيا ـ في هذا المقام تلك الترجمة التي كتبها حكمت شريف الطرابلسي ، في مقدمة كتابه الذائع الصيت في العالم العربي ـ حيث طبع عشرات المرات منذ مطلع هذا القرن ـ بعنوان « نوادر جحا الكبرى ، لنصر الدين خوجه المعروف بجحا الرومي » الذي نقله الى العربية من كتاب « لطائف نصر الدين خوجة » باللغة التركية .... وقد جاء في هذه المقدمة ان نصر الدين قد تلقى علومه في آق شهر وقونيه . وولى القضاء في بعض النواحي المتاخمة لآق شهر كما ولى الخطبة في سيوري حصار . ونصب مدرسا واماما في بعض المدن . ساح في الولايات : قونية ، وانقرة وبروسه وملحقاتها . وانه كان واعظا ومرشدا صالحا يأتي بالمواعظ في قالب النوادر وله جراة على الحكام والامراء والقضاة . وكثيرا ما كانت تستقدمه الحكومة من « آق شهر » الى العاصمة يومئذ « قونية » (وكانت قونية عاصمة السلاجقة ـ واخضعها بيازيد للاتراك العثمانيين بعد هزيمته لعلاء الدين) ، وكان عفيفا زاهدا ، يحرث الارض ـ ويحتطب بيده ، كما كانت داره محطا للواردين من الغرباء والفلاحين . ويذكر أن وساطته انقذت بلدته « سيوري حصار » من تيمور لنك الجبار الطاغية . أما زمنه

---

١ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ المادة المذكورة ص ٨٧٧ .

٢ ـ المصدر السابق .

فالراجح انه كان في عهد السلطان اورخان ، وظل حتى عهد السلطان يلديرم بيازيد خان في اوائل القرن السابع للهجرة وعاش الى سنة ٦٧٣ هـ اي (١٢٧٥ م) وتوفي عن ستين عاما ، وضريحه في آق شهر (١) .

ويذكر حكمت شريف كذلك : « قال ضياء بك احد كتاب الترك في كتاب له سماه « سياحة في قونية » : زرت ضريح الشيخ نصر الدين في مقبرة آق شهر الكبرى فقرات على حجر الضريح (الشاهد) ما ياتي بالحرف الواحد : هذه التربة ـ للمرحوم المغفور المحتاج الى رحمة ربه الغفور نصر الدين افندي له الفاتحة ، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ . وقال : فاستغربت هذا التاريخ لان الشيخ توفي بعد سنة ٣٨٦ هـ واخيرا عرفت ان التاريخ جاء مقلوبا وصوابه ٦٨٣ هـ (وتوافق سنة ١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ م) فما ادرى اكان ذلك جهلا من ناقشه أم تجاهلا أراد به النكتة . (٢)

ويلاحظ ان بعض المصادر الغربية والتركية ، قد حاولت ان تحدد تاريخ وفاته في سنة ٦٨٣ هـ ـ ١٢٨٥ م وهذا يعني انه من رجال القرن الثالث عشر الميلادي غير ان هذا الراي يسهل تفنيده بمقارنة هذا التاريخ بالشخصيات التاريخية التي زعم أصحاب هذا الراي انفسهم ، انه التقى بهم وعاصرهم ـ وهي الشخصيات التي تاكدت في مصادر اخرى ـ فليس من المعقول ان تكون هذه سنة وفاته بينما يتاكد لقاؤه بتيمور لنك (١٤٠٥ م) واورخان (١٣٦٠ م) ومراد الاول (١٣٨٩ م) وبيازيد خان (١٤٠٢ م) من الروم العثمانيين ، ثم بالسلطان علاء الدين السلجوقي الثالث ، آخر سلاطين الروم السلاجقة ، الا اذا عاش اكثر من مائتي سنة ...؟

---

١ ـ نوادر جحا الكبرى ـ ترجمة حكمت شريف بك ـ الطبعة الثامنة ـ المكتبة التجارية بمصر .

٢ ـ المصدر السابق ص ٥ـ٦ .

ونظن ان صواب التاريخ الذي يشير الى سنة وفاته ـ ما دام قد اثير حوله الشك من قبل ـ هو سنة ٨٣٦ هـ ـ ١٤٣٢ م . وبهذا نسوق دليلا آخر يرجح آراء المجموعة الاولى التي تضعه في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلاديين وهو الراي الذي ناخذ به ، ليس استنادا الى ما نظنه من تصويب لتاريخ وفاته ، كما قد يتبادر الى الذهن ـ وليس اعتمادا على ما قدمته هذه المجموعة من شواهد وبراهين . . . وهي في مجملها اكثر اقناعا من ادلة المجموعة الاخرى التي تزعم انه عاش في القرن الثالث عشر . وانما نرجح آراءها لاسباب أخرى ، تتصل بتاريخ هذه الفترة وأحوالها (السياسية والعسكرية والاجتماعية) . الامر الذي يتحتم معها ظهور الرمز الجحوي ، بفلسفته واسلوبه المميز في الحياة والتعبير ، كما سوف نرى وشيكا .



مثلما لم يتجمع لدينا معلومات نعتمد عليها في دراسة اسرة جحا العربي كذلك لا نجد هنا شيئا عن اسرة نصر الدين غير ما ذكره حكمت شريف أيضا عن سلالته في مقدمته عندما نقل عن « جايلاق توفيق بك » الكاتب التركي الهزلي الشهير في مقدمة كتابه « لطائف نصر الدين » الذي يقول : كان الشيخ ـ نصر الدين من رجال عهد السلطان يلديرم بيازيد خان (١٤٠٢ م) وقدم أحد سلالته في أيام السلطان مراد الثالث (١) لمراجعة الاوقاف الهمايونية ببعض مرتبات متنقلة الى هذه السلالة ، وعندما اراد تقديم العريضة الى حضرة السلطانية ربط دابته في طبل كبير كان هناك للنوبة السلطانية ، فجفلت الدابة منه وأخذت تجرّه ، وكلما تدحرج الطبل على الارض ازداد صوته دويا ، وازدادت الدابة خوفا واضطرابا ، واتفق أن كانت هناك بغال « الصرّة » (التي كان يذهب بها الى الحج) فجفلت وقامت قيامتها وعلت الضجة ، فسأل

---

١ ـ حكم في الفترة من ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م .

رجال الحضرة السلطانية عن الامر ، فعرفوا السبب ، وبحثوا عن رابط الدابة بالطبل ، فقيل لهم انه رجل من سلالة الشيخ نصر الدين ، فاجيب الى سؤاله فورا ، واعتبروا عمله هذا حجة كافية لاثبات كونه من سلالة المرحوم (١) . وقد اكد قوبريلي زاده ان سلالة الشيخ نصر الدين قد هاجرت ـ من قونيه ـ الى استانبول في عهد مراد الثالث (٢) .

ومما هو جدير بالذكر ان الاتراك قد اهتموا بجحاهم ، فجددت الحكومة التركية ضريحه وهو في قبة على اربعة اعمدة وعلى راسه قاووق عظيم ، وعلى الجدران كثير من الكتابات نظما ونثرا ، وعلى العوارض والاخشاب خرق ربطها الناس استشفاء من الحمى والتماسا للبركة ... وبمناسبة البركة فان لأهل تلك البلاد ـ تركيا ـ اعتقادا بكرامات الشيخ نصر الدين ويلتمسون بركاته لهذا السبب ، ويزعمون أن من زاره ولم يضحك لم يسلم من نائبة تصيبه . ومن عادات أهل « آق شهر » في زواجهم أن يبدأ العروسان بزيارة ضريح الشيخ نصر الدين وان يدعواه الى حفلة الزفاف قائلين له : «شرفنا مع تلاميذك» ، ويعتقدون ان من تزوج ولم يقم بهذا الواجب لم يوفق في زواجه (٣) والطريف كذلك أن بعض المصريين قد آمنوا بفكرة « بركة جحا » . كذلك يجب الا ننسى أن « السيوطي » طلب منا ان نسأل الله ان ينفعنا ببركاته ـ اي بركات جحا العربي ، فكأن البركة سمة « مشتركة » من سمات النموذج الجحوي عند العرب والاتراك والمصريين على السواء . وهي سمة تدعو الى التفاؤل والامل على كل حال وبخاصة في المجتمع الشعبي .

---

(١) نوادر جحا الكبرى ـ ترجمة حكمت شريف ص ٥ .

(٢) مذكرات جحا : محمد فهمي عبداللطيف ص ١١ .

(٣) نوادر جحا الكبرى ـ ترجمة حكمت شريف ص ٦ .

ولقد نسب الاتراك لجحا الكثير من الكرامات التي تدل على اعتقاد الناس بها ، فهم يرون ، على سبيل المثال ، أن أول اتصال حدث بينه وبين تيمور لنك كان حينما استولى تيمور على بلاد الأناضول ، فجعل العلماء والفضلاء ويسألهم أعادل أنا أم ظالم ؟ فان قالوا : انت عادل ذبحهم ، وان قالوا : انت ظالم قتلهم ايضا ، فضاقوا ذرعا ، وجاءوا الى جحا ـ لما اشتهر به من الاجوبة السديدة الحاضرة ، وقالوا له لا ينقذنا من شر هذا الظالم احد غيرك ، فانقذنا من نقمته ، فقال لهم : ان التخلص منه ليس بالامر الهين ، ولكن ارجو ان اوفق الى ما تطلبون ، ثم احضروه أمام تيمور وسأله : أعادل أم ظالم ..؟ فقال جحا : اننا نحن الظالمون ، وانت سيف العدل الذي سلطه علينا الله الواحد القهار ـ فأعجب تيمور بهذا الجواب ، واتخذ جحا نديما خاصا له ، ولم يعد يفارقه ببلاد الروم حتى رحل عنها وبهذه الصلة ـ بينه وبين تيمور ـ صان بلدته « آق شهر » وما حولها من صولة تيمور وبغي عساكره ... بل لقد قيل ان انسحاب تيمور من بلاد الاناضول كان بسبب كرامات الشيخ نصر الدين ووعظه له (١) .

ولعل الكرامة هنا تأتي من ان اعجاب تيمور بشخصية الشيخ نصر الدين هو الذي صان بلدته « آق شهر » اكراما له وتقديرا لعلمه وحكمته .

ومن جملة الحكايات ـ التي تنسب اليه الكرامات ـ أن عربة في الاناضول مرت أمام قبره ، وعلى العربة أعمدة كالهودج كانت

---

(١) كان انسحاب تيمور امرا طبيعيا بعد أن هزم يلدبرم بيازيد خان في معركة انقرة سنة ١٤٠٢ م . لان الفرض من غزوه لبلاد الاناضول لم يكن هدم الدولة العثمانية أو القضاء على البيت العثماني او احتلال جزء من أراضي العثمانيين ـ وانما هو أعطاء بيازيد درسا قاسيا حتى يعدل عن سياسته في التوسع شرقا على حدود آسيا الصغرى حيث المغول وأنصارهم ـ انظر كتاب الدولة العثمانية والشرق العربي للدكتور محمد انيس ص ٤٩ مكتبة الانجلو .

تستقلها اسرة ، وكان فيها شاب ، فقال ذلك الشاب : لن أبتسم لهذا الرجل (وكانت العادة ان من يمر بقبره راكبا لا بد ان يترجل ويقرأ له الفاتحة ويبتسم كما ذكرنا قبل ذلك ، فان لم يفعل يساء اليه ، ولم يسلم من نائبة تصيبه) ، وأصر الشاب واسرته على تغيير تلك العادة واساءوا الى ذلك الاعتقاد ، فاذا بالهودج يصطدم في فرع شجرة ممدود ، فجفلت الخيل ووقعت الاسرة كلها فقالوا : من الذي يجرؤ على احتقاره أو الاستخفاف به ، لان في ذلك اساءة للادب والحكمة ؟

ويشير الاستاذ العقاد الى هذه الظاهرة فيقول : ـ

« والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحه في مقبرة « آق شهر » بعد وفاته بزمن طويل ، يذكر الناس أضاحيكه منها ولكنهم يحيلونها الى حالات أهل الجذب بين عالم الاسرار وعالم العيان ، أو يحيلونها الى حب التقيه والاحتيال على الموعظة الحسنة بالاسلوب الذي يؤدي الى مرماه ، ويعفيه من عقباه (١) .

والحق اننا نميل الى التفسير الاخير ، ذلك ان المتامل لهذا النوع من الحكايات يراها اقرب الى طبيعة الحكايات المرحة ، منها الى الحكايات الجادة عن كرامات الاولياء بسماتها المعروفة .

وفي دراسات خطية لم تنشر للاستاذ كامل كيلاني (٢) عن نصر الدين خوجة بعنوان : امام العلم والموثوق به في دروس الحكمة الخوجة نصر الدين افندي رحمة الله عليه ، يقول الكيلاني : « لم تؤثر تلك النكات المستملحة ولم تزعزع من تلك المكانة الرفيعة التي كانت في نفوس العامة للشيخ نصر الدين ــ على رفعة مكانته العلمية

---

(١) جحا الضاحك المضحك ــ العقاد ص ١٩٠ .

(٢) اطلعت عليها في مكتبة الكيلاني بمساعدة ابنه الاستاذ رشاد كامل الكيلاني ، وهي مترجمة عن بعض المصادر التركية ولم يذكر اسماءها فيما عدا مصدر توفيق جايلاق بك الذي اشرنا اليه سابقا .

والدينية ، وعلى سمو منصبه الديني والوعظي ، لانه كان يعرف كيف يلقي بالنكتة بحيث لا تؤثر في مكانته ... وكان يدعو الامراء والحكام والقضاة الى السير بمقتضى الشرع الشريف ويحضهم على الامر بالمعروف ، ولا سيما العلماء منهم الذين تقع عليهم ـ في رايه ـ مسئولية التمسك باهداف الامر بالمعروف والتحلي به ... ويذكر كامل كيلاني أيضا ، انه انتدب لقضاء مصلحة ما من قبل الحكومة الى كردستان ، وقد اظهر هذا الانتداب استاذنا ـ نصر الدين ـ رجلا كاملا بارزا في علم السياسة وفن الادارة متفوقا فيهما ... ويرى كيلاني ـ في ضوء هذه الحكاية ـ وفي ضوء ما عرف عن نصر الدين من وقوف على دقائق العلم بين علماء الاناضول وحكمائها ، ما أتاح له ـ باعتراف هؤلاء العلماء انفسهم ـ المثول في حضرة تيمور لنك واطلاعه على بعض الحقائق وتبصيره بها في جراة وشجاعة ، فانقذ بذلك الناس من كثير من مظالم تيمور لنك وجنوده ، وقد اكتسب بهذا الموقف الشجاع الصلة والقرب من تيمور ، ولعل فضله وشجاعته سبب ذلك النجاح الذي أصابه « وكان دافعه الى ذلك انه كان يسعد بخدمة الجماعة ، ويهتم باسعادها ، ويتمنى أن يراها تعيش في أمن وأمان ... وان يعيش هو معها في هناء وصفاء (١) .

ولا يفوتنا ان نؤكد في هذا المقام أن نصر الدين من علماء الاحناف ، وان اكثر اشتغاله كان بعلم الفقه ، وقد أحبه تلاميذه ، ومريدوه فاقبلوا على مجلسه ، يستمعون لعلمه وفضله ، وكانوا اكثر من ثلاثمائة تلميذ ، وقد غلب عليه لقب المعلم ، فاشتهر بين أهل تركيا بالخوجه (٢) .

---

(١) كامل كيلاني ـ دراسات عن جحا ـ لم تنشر

(٢) دائرة معارف محمد فريد وجدي ، مادة جحا .

٣

رجحنا ، من قبل ، أن جحا الروم (نصر الدين) قد عاش في الثلث الاخير من القرن الرابع عشر ، والثلث الاول من القرن الخامس عشر الميلاديين ، وانه ـ على وجه التحديد ـ كان من رجال عهد يلديرم (الصاعقة) بيازيد خان ، كما كان معاصرا للسلطان قرمنيد علاء الدين الثالث ، آخر سلاطين الاتراك السلاجقة في قرامان (١) ومن ثم فقد عاش متنقلا بين ممتلكات الدولة السلجوقية في الاناضول التي كانت قد قسمت آنذاك بين الاتراك السلاجقة والاتراك العثمانيين .

ويأتي ترجيحنا لهذا التاريخ ، ليس فقط اعتمادا على ما اورد الرحالة اكسيليا شلبي من أدلة ، وليس اعتمادا على تحديدنا لسنة وفاته ... وانما يأتي ترجيحنا لاسباب جوهرية أخرى ، نراها مقياسا عاما يقتضي ظهور الرمز الجحوي ـ من الناحية الفنية ـ حتى لو لم يكن ثمة واقع تاريخي له .

ذلك ان هذه المرحلة التي حددناها لظهور الرمز الجحوي عند الاتراك ، كان تقتضي ابتداع هذا الرمز الفني ليكون بمثابة « صمام أمن وعصا توازن » ينبغي ان يظهر في مثل هذه الظروف ، ظروف التحول التاريخية ، وما يصحبها من توتر وقلق وحصر نفسي ، وفي عصور الانتقال التاريخية التي تتحقق بالقوة العسكرية والصراع الدموي ، وفيها يضطر الناس اضطرارا الى الصمت ... حيث يفتقدون حرية التعبير عن آرائهم فيما يتلاحق من أحداث بصورة مباشرة وايجابية . وحينئذ يجد الوجدان الفردي نفسه ـ في مجال الابداع الفكري والفني ـ بين موقفين ، اما ان يذوب

---

(١) قرمان أو قرامان : مدينة في وسط تركيا الاسيوية ، اتخذتها سلالة قرمان أو ـ غلو عاصمة لها في القرن الرابع عشر ، حتى قضى عليهم الاتراك العثمانيون سنة ١٤٦٧ م .

في السلطة الجديدة مداهنا ومرائيا ، وهو موقف صعب لا يركبه الفنان الخلاق ، أو المفكر الاصيل ، والموقف الآخر ، ان يلوذ فيه اصحابه بالصمت ...

وحينئذ يلوذون بالوجدان الجمعي (الشعبي) الذي يبادر فينتخب رمزا فنيا ساخرا ــ هو الرمز الجحوي ــ يعكس الجميع من خلاله آراءهم في السلطتين العسكرية والسياسية من ناحية ، ويجسدون ، في الوقت نفسه ، رؤيتهم للهيئة الاجتماعية ، وكيفية مواجهتها لما يطرأ من جديد على الواقع الاجتماعي ، من ناحية اخرى ... دون ان يتعرض أحدهم لبطش السلطة العسكرية الحاكمة ...

وهي حيلة فنية بسيطة عرفتها المجتمعات الانسانية ، شعوبا وافرادا كما نعلم ... حافظت بها ــ من خلالها ــ على تماسكها وجودها ، وصحتها النفسية .

واستقراء تاريخ الاتراك في هذه الفترة ــ اواخر القرن الرابع عشر واوائل القرن الخامس عشر الميلاديين ــ يؤكد انها كانت فترة انتقال ، ومرحلة تحول عصيبة في حياة الاتراك ... وهي مرحلة سمتها البارزة ذلك الصراع الدموي العنيف الذي شهدته بلاد الاناضول بين تيمور لنك ــ الذي كان نكبة على الاسلام ــ وبين السلاجقة الروم والعثمانيين من ناحية وبين الاتراك انفسهم من ناحية اخرى .... وهو الصراع الدموي الذي نشب بين دولة الاتراك السلاجقة في بلاد الاناضول وعاصمتها يومئذ « قونية » وبين القوة الوليدة في أوائل القرن الرابع عشر وهي قوة الاتراك العثمانيين ، تلك القوة التي استقرت بعد هجرة مريرة شاقة ــ من منطقة الاستبس ــ وصلت خلالها حتى جبال أرمينيا آملة أن تنضم الى صفوف علاء الدين سلطان سلاجقة الروم ــ حيث منحهم من دولته التي كانت تتداعى يومئذ البقعة المعروفة باسم «اسكى شهر»

بعد أن حاول محاربتهم في البداية ورفض انضمامهم اليه (١) ، والتي انتهت بظهور الامبراطورية العثمانية في نهاية القرن الرابع عشر كنواة لقوة عالمية كبرى بعد ان اخضعت جميع المناطق والدول المحيطة لها بما في ذلك السلاجقة الروم انفسهم .... حيث قام مراد الاول ــ العثماني ــ سنة ١٣٨٧ م باول عمل حربي ضد الامارات التركية في آسيا الصغرى والتي انتهت بهزيمة علاء الدين السلجوقي كما أن بيازيد خان (يلديرم أو الصاعقة) أغار بعد ذلك على علاء الدين وقتله واسقط دولته قرمان (٢) . ودونما دخول في تفاصيل هــذه الحروب ، فان الذي يهمنــا هنا هو ان القرن الرابع عشر الميلادي قد شهد في نهايته وأوائل الخامس عشر الميلادي صراعا عسكريا عنيفا بين الاتراك انفسهم ، وهو امر لا بد منه ، ويعطي هذا الصراع مدلولا آخر ... ذلك الصــراع الذي يصحب تكوين الدولة الكبرى وما يصحب هذا التكوين من فترات الاضطراب والقلق ، حتمية وعنيفة في الداخل والخارج ، سواء من الناحيــة السياسيــة والعسكريــة او الاقتصادية او الاجتماعية ، يضاف الى ذلــك أن هذه الفتــرة نفسها ، شهدت صراعا ضاريا آخر بين الدولة العثمانية الناشئة ، وبين الــدول المسيحية المجاورة .

وبينمــا العثمانيون في قمــة النصــر ، ويأملــون في تكــوين امبراطوريتهم على الرغم من كل الصعاب بقيادة بيازيد ، يدهمهم ــ فجاة ــ الخطر المغولي بقيادة تيمور . والتقى القائدان في معركة انقرة في يونيو سنة ١٤٠٢ م وهي المعركة التي اسر فيها بيازيد واخذه تيمور الى عاصمة سمرقند في قفص من حديد ، ثم غــزا تيمور ــ بعد ذلك ــ أهم مدن الدولة العثمانية في الاناضول ونهبها

---

(١) انظر الدولة العثمانية للدكتور محمد انيس من ص ١٢ ــ ص ١٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٨ .

كما هو معروف (١) .... والمعروف كذلك أن تيمور انسحب فجاة بعد ذلك من بلاد الاناضول كما اكتسحها فجاة ، والسبب يرجع الى ان الغرض من هذا الغزو هو هدم الدولة العثمانية والقضاء على البيت العثماني ، واعطاء بيازيد درسا قاسيا حتى يعدل عن سياسة التوسع شرقا على حدود آسيا الصغرى . والواقع أيضا أن تيمور لم تكن له سياسة معينة من فتوحاته هذه (٢) .

لذلك نرى تيمور ينسحب من آسيا الصغرى الى عاصمته سمرقند وفي اثناء العودة توفي بيازيد في أسره (٣) ، وبعد وفاته قامت منافسة ضارية على العرش بين ابناء بيازيد استمرت من عام ١٤٠٢ حتى عام ١٤١٣ م والتي انتهت بغلبة محمد أصغر ابناء بيازيد وتوليه العرش سنة ١٤١٣ بعد معارك دموية عنيفة ومؤامرات ضارية .

هذه هي طبيعة العصر ـ سياسيا وعسكريا ـ الذي عاش فيه نصر الدين ـ واقعا تاريخيا ورمزا فنيا ـ ، في آن ، وهو عصر تسوده كما رأينا حروب داخلية وخارجية ، الامر الذي انعكس بدوره على الواقع الاجتماعي والاقتصادي في ظل النظام الاقطاعي (العسكري) الذي طبقه مراد الاول (الذي حكم من ١٣٥٩ ـ ١٣٨٩ م) .

ومن ثم فقد شهد هذا العصر كثيرا من الثورات التي هددت كيان الدولة العثمانية اكثر مما هددها الغزو المغولي نفسه ، أو الحروب مع الدول المسيحية المجاورة ، من ذلك ـ على سبيل المثال ـ « حركة الشيخ بدر الدين » ، وكان فقيها من فقهاء الشرع ، وكانت حركته في بادىء امرها (صوفية) كغيرها من حركات (الدراويش) التي اجتاحت آسيا الصغرى ، ولكنها سرعان ما

---

(١) انظر تاريخ العثمانيين ـ د. محمد انيس ص ٤٥ ـ ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ . (٣) نفسه ص ٥٠ .

اتخذت (طابعا اجتماعيا) فأخذ الشيخ بدر الدين ينادي (بالغاء الملكية) ولقيت الدعوة نجاحا ولا سيما في الاناضول حيث كان الفلاحون في (حالة يرثى لها) بسبب النظام الاجتماعي السائد هناك (١) . ولقد انتهت هذه الثورة كغيرها بالفشل بطبيعة الحال .

والجدير بالذكر كذلك ان النزعة الصوفية ، سادت بلاد الأناضول منذ أواخر القرن السابع الهجري .... وازدهرت أيام العثمانيين قد تركت اثرها الملموس على الفلسفة الجحوية لنصر الدين خوجة ... ففي الفترة التي استوثق فيها الامر للعثمانيين بعد حروب ضارية نرى تيارا صوفيا يغمر النفوس .. فامتلأت ارجاء الاناضول بالزوايا والتكايا ، حيث يتبتل المتبتلون ، ويتعبد الزاهدون ، ويلتمس اهل العقول والقلوب ان يخرجوا بأرواحهم من هذه الدنيا العبوس التي ذهبت ببشاشتها غارات للمغول يشيب من هولها الوليد ، فلم يعد في الناس من يأمن على نفس ولا على مال ، وازعج الضعفاء عن أوطانهم فهاموا على وجوههم ، واضطربوا في الارض لا يلوون على شيء (٢) .

في مثل هذه الظروف يمكن لشخصية مثل جحا أن تظهر ، وتصبح رمزا يعتصم الشعب به وبحكاياته ولطائفه ونوادره ... التي هي دائما بالنسبة للشعب صمام امن ، وعصا توازن ، ووسيلة تعبير وذوق . (٣)

ان العقاد ـ كذلك ـ يتخذ من ظروف هذا العصر برهانا آخر على أن شخصية نصر الدين خوجة شخصية تركية غير

---

(١) الدولة العثمانية والشرق الادنى ـ د. محمد انيس ص ٥١ ـ مطبعة الانجلو .

(٢) تاريخ الادب التركي ـ حسين مجيب المصري ـ من ص ٣٧ ـ ٤٠ نشر مكتبة الانجلو بالقاهرة سنة ١٩٥١ م

(٣) الحكاية الشعبية ـ الدكتور عبد الحميد يونس ص ١٠٤ ـ العدد ٢٠٠ ـ من سلسلة كتب ثقافية .

منقولة عن الامم الاخرى ، فيقول عنه « انه نشأ في آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدينيين من قبل الاسلام ، وحيث يعهد في آحاد من هؤلاء الدراويش ان يخلطوا خلط المجاذيب ، ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وان يلوذوا بمظاهر التخليط احيانا بغية السلامة من بطش الحكام المغيرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس ايمانا بكراماتهم وشفاعاتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطغاة ، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة او بالوعظ المقبول او بالتخليط الذي ينالون به ما يلبوه من الحاكم اذا اضحكوه ، واستطاعوا في وقت واحد أن يلمسوا في نفسه موطن التقوى والخوف من الله وموطن الرضى والسرور » (١) .

وهذا يعني ـ من ناحية ـ ان الرمز الجحوي لا بد منه كاداة تعبير ومواجهة ـ حتى لو كانت سلبية ـ في الوقت الذي يصبح الناس غير قادرين على التعبير والمجابهة المباشرة .... كما يعني ـ من ناحية اخرى ـ ان ظروف العصر التاريخية هي المسئولة عن النوادر الجحوية ، ومن ثم يرى كذلك أنها مسئولة عن ظهور الشخصية الجحوية .

يقول العقاد : « قيل الفرق بين الجليل الرهيب والمضحك المغرب قيد شعرة او لمحة عين . ولا شك في هذه الحقيقة ـ من الوجهة النفسية ـ لان الهول يتحول فجأة الى الضحك بطارىء من طوارىء التغيير والتبديل التي تتعاقب في أيام النصر والهزيمة ، والقيام والسقوط بين الجبابرة وأصحاب الدولات ولا شك في هذه الحقيقة أيضا ـ من الوجهة التاريخية ـ اذا رجعنا الى عصر تيمورلنك واشباهه في تواريخ المشرق والمغرب ، فليس احفل ـ بالاضاحيك من عصر التقلب وعصور الشدائد والاهوال » . (٢)

---

(١) جحا الضاحك المضحك ـ العقاد ـ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩١ ـ ١٩٢

وبهذا لا نكون مع الذين شكوا في الواقع الحياتي لشخصية نصر الدين ومنهم فيسيليسكي ، وهارتمان ، وباسيه (١) ، وقد تبعهم من الدارسين العرب الاستاذ عبد الستار فراج (٢) ، وشكوكهم ترتبط الى حد ما بمسألة فكاهاته .

٤

قبل ان نقف بالدراسة عند تأثر النموذج التركي وتأثيره في النموذج العربي فان من الحقائق التاريخية التي لا جدال فيها أن العثمانيين لم يحملوا معهم من المظاهر الحضارية في بيئتهم الاصلية سوى لغتهم القومية التي أصبحت تكتب بحروف عربية ، وفيما عدا ذلك فالحضارة العثمانية ـ بجوانبها السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية ـ قد استمدت أصولها من مصدرين اساسيين ، احدهما : الحضارة الفارسية والنظم الفارسية ـ عبر وسيط عربي ـ والمصدر الآخر هو التراث الفكري أو الثقافي للعرب انفسهم (٣) .

ولهذه الحقيقة التاريخية اهميتها الفنية كذلك حين نتحدث عن تأثر وتأثير النموذج العربي بالتركي ، ذلك ان الحقيقة الاولى التي تصادفنا في هذا المجال منذ ان التحمت هاتان الشخصيتان في ذاكرة الشعب الاسلامي حيث « تأثر الخوجة نصر الدين بسلفه العربي استعار منه بعض الملامح والصفات ... وضم الى ذخيرته طائفة من نوادر جحا ، كما ان ابا الغصن قد استعار بحكم تراكم الثقافة الشعبية من خلفه الخوجة نصر الدين ، واخذ منه بعض القسمات النفسية وأكثر النوادر » (٤) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ص ٨٧٧

(٢) اخبار جحا لعبد الستار فراج ص ١٥ .

(٣) عن مقومات الحضارة العثمانية ومصادرها ، انظر كتاب « الدولة العثمانية والشرق الادنى » للدكتور محمد انيس ص ٦٢ ، وما بعدها .

(٤) الدكتور عبد الحميد يونس ـ مجلة الفنون الشعبية ـ العدد الحادي عشر ، ص ٤ ديسمبر ١٩٦٩ م .

ولقد راينا من قبل في بعض الروايات السابقة من ينقل جحا التركي الى عصر هارون الرشيد ، ولهذا مغزاه بطبيعة الحال الذي يشير الى هذا التأثير المتبادل بين النموذجين ... والتقاء النموذجين على الصعيد الفني ، لم يكن مشكلة من الناحية التاريخية ... بعد أن تم الفتح العثماني للعالم العربي (سنة ١٥١٦ ــ ١٥١٧ م) ، بل ربما قبل ذلك منذ ان تأثر الاتراك بالثقافة العربية العامة ، فاذا ما وضعنا في الاعتبار ان الدواعي النفسية والفنية ، لظهور الرمز الجحوي واحدة ، وان الظروف السياسية والاجتماعية التي تؤدي الى شيوع النادرة الجحوية واحدة ... أدركنا امكانية اللقاء بين النموذجين ... فيشرع الاتراك في الاحتفال بالنوادر العربية ، وينقلونها ، منسوبة الى جحاهم ، كما يشرع العرب في نقل النوادر التركية ونسبتها لجحاهم ، منذ وجدوا فيها تشابها في فلسفة الحياة والوظيفة والاسلوب ، الامر الذي اختلطت معه نوادر النموذجين .. .وزاد من هذا الامر ما اضافه الناس ونسبوه بعد ذلك الى الرمز الجحوي بعامة .

وما هو جدير بالذكر ان النوادر والحكايات والقصص الشعبي ، لا تعترف بوجود حواجز جغرافية او زمانية بين الشعوب .. ذلك أن الذاكرة الشعبية تلتقط وتنتخب ــ وقد تعدل ــ ما تشاء من هذه الفنون القولية جميعا ، ما دامت تحقق لها وظيفة فنية حيوية (جمالية ، وفكرية) .

ومن ثم لم تشأ العقلية العربية ــ بدورها ــ أن تفرق بين النموذجين ــ العربي والتركي ــ بل تمثلت اغلب هذه النوادر جميعا طالما فسرت لها سلوكا او موقفا انسانيا ، وطالما كانت تبعث على الترويح عن الانسان العربي من وطأة الاحداث والوقائع ، وما أشدها ... بل ان العقلية العربية ــ بهذا التمثل والتماثل بين النموذجين ــ قد وحدت بينهما في رمز فني واحد ، او بالاحرى في نموذج قومي واحد قادر على مسايرة الحياة ،

والتطور معها ، تعبر من خلاله عن الكثير من مناحي الحياة عامة ، والسياسية والاجتماعية خاصة ، بأسلوب مميز هو اسلوب التندر والتهكم والسخر — وجعلت منه في النهاية « تجربة أمة باسرها في رمز واحد هو جحا » دون ان يابه الوجدان الشعبي ، بالمصدر الاول للنادرة بطبيعة الحال ، اتركيا كان أم عربيا ، ما دام قد تمثلها في سلوكه واقواله .

وقبل أن نتعرض لهذا الخلط في النوادر بين النموذجين من الناحية الفنية — حيث اصبح الفصل بينهما شبه مستحيل ، وغير مجد في النهاية — فانه لا ينبغي أن يفوتنا ان نشير اليه من الناحية التاريخية ، الامر الذي ادى الى طمس الواقع التاريخي لجحا العربي ، واعتباره رمزا تركيا — ذلك اننا سنجد ان أكثر الكتب العربية التي جمعت النوادر الجحوية بين دفتيها وخاصة تلك التي شهدت عصر المطبعة في العالم العربي ... سنجدها جميعا بلا استثناء تنسب النوادر الى جحا العربي الرومي في آن واحد فهي مثلا تقول (نوادر جحا الكبرى) في عنوانها الرئيسي .. وتذكر تحته هذا العنوان (ببنط أصغر) « هذه مجموعة من نوادر الشيخ نصر الدين المعروف بجحا » ... بل لقد بلغ من هذا الخلط أن جاء ناشر كتاب أخبار الحمقى لابن الجوزي — وقبل أن يوجد الرمز التركي نصر الدين خوجه بعدة قرون — فذكر في فهرس هذا الكتاب معنونا لنوادر جحا العربي « أخبار جحا المعروف بنصر الدين خوجة (١) » وهذا ان دل على شيء : فانما يدل على أن العقلية العربية قد تمثلت النموذجين معا وجعلتهما واحدا ، مما اتاح فرصة لكل جامعي النوادر أن تنسب ما تشاء من النوادر لمن تشاء من اعلام الدعابة — عربية أو تركية — دون حرج ... بل ان حكمت شريف الذي ترجم النوادر التركية الى العربية في كتابه المعروف (نوادر جحا الكبرى) والذي قدر له

---

(١) اخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي — الفهرس ص ١٦٩ .

أن ينتشر في العالم العربي ، حتى انه طبع في مصر اكثر من عشرين طبعة ، (وعن المطبعة المصرية نقلت الطبعات السورية واللبنانية والعراقية وغيرها) نرى حكمت شريف ينص صراحة في المقدمة التي كتبها : « وبعد فقد وقع لي كتاب نوادر ضخم باللغة التركية يسمى (لطائف خوجة نصر الدين) وهو المشهور عندنا في ـ العالم العربي ـ **بنصر الدين جحا** صاحب الاخبار المستغربة والنكات المستملحة ، ولما كان ما طبع في العربية من نوادره قليلا جدا ، اقدمت على ترجمة هذا الكتاب عن اللغة التركية والحقته بما عثرت عليه في غيره من كتب العرب والترك من اخبار هذا الرجل واطواره ، وقصصه ونوادره حتى اجتمع لدى هذا الكتاب (١) وتستمر الطبعات العربية جميعا على هذا الخلط .

وهكذا نرى أن الجامعين والطابعين والناشرين قد تضافروا جميعا وجنوا جنايتهم ، فأسقطوا ـ كما يقول الاستاذ عبد الستار فراج ـ الشخصية الرمزية للفكاهة في الادب العربي ، وابوا الا ان يكون كل ما ورد فيه اسم جحا معنيا به الخوجة نصرالدين الرومي ، على حين أن تلك النوادر عربية الاصل ، ومدونة في كتب التراث العربي التي الفت قبل ظهوره بعدة قرون ؛ وان لم تنسب الى جحا نفسه ، كعيون الاخبار والبيان والتبيين المؤلفين في القرن الثالث الهجري ، والاغاني المؤلف في القرن الرابع ، ونثر الدرر والتطفيل وذيل زهر الاداب ومحاضرات الراغب الاصفهاني المؤلفة في القرن الخامس ، ومجمع الامثال المؤلف في اواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس ، والاذكياء واخبار الحمقى واخبار الظراف المؤلفة في القرن السادس الهجري ، الى غير ذلك من المؤلفات العربية التي لم تعرف الخوجة نصر الدين ، « ولم يخطر شخصه على بال مؤلفيها (٢) » ثم يقول الاستاذ عبد الستار فراج في

---

(١) نوادر جحا الكبرى ـ ترجمة حكمت شريف ص ٣ الطبعة الثامنة بمصر ـ ويحدد ما نقله ويذكر بعض المصادر مثل مضحك العبوس .

(٢) اخبار جحا ـ عبد الستار فراج ، ص ١٤ .

موضع اخر : « ولقد كانت تبعية مصر والبلاد العربية لتركيا في بعض العصور السابقة من الدواعي التي جعلت الناس يقبلون دعوى أن النوادر المجموعة والتي طبعت هي من « خوجاهم نصر الدين » (١) .

ويمضي الاستاذ فراج في عرض ادلة اخرى تؤكد عملية السطو المنظم على حد تعبيره من الاتراك علىالرمز العربي القديم ، الذي ظنه الاتراك في أيامهم السابقة كنزا مباحا يسلبونه من أدبنا العربي الزاخر بالملح والنوادر » (٢) .

وعلى كل حال فالذي لا شك فيه ان جحا الاتراك قد اخذ الكثير من النوادر العربية ، بقطع النظر عن اسنادها لجحا العربي الفزاري أو لغيره ممن تزخر بهم كتب العرب .. وانه كذلك بقدر ما اخذ عن الرمز العربي ، فان العرب ، بدورهم قد اخذوا من نوادر الرمز التركي وبخاصة تلك التي ورد فيها اسم تيمور لنك وان النموذجين العربي والتركي قد أعطي كل منهما للاخر أبعادا جديدة بقدر ما أخذ كل منهما من الاخر ... وان العقلية العربية قد تمثلت هذه النوادر في حياتها وسلوكها ... كما تمثلت العقلية التركية كل نوادر جحاها بصرف النظر عن كونها عربية أو تركية .. وساعد على ذلك تبعية العرب لتركيا سياسيا . وتبعية الاتراك للعرب ثقافيا وحضاريا .

● ● ●

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

ولم يفعل ذلك الجامعون او الطابعون العرب في مصر فحسب .. بل كذلك في سائر البلدان العربية ، فالنسخة اللبنانية (١) تؤكد ان طبعتها روجعت على النسخة التركيـة ، ونسبتها كذلـك لنصر الدين خوجة ، والطبعة العراقية للنوادر نسبتها (٢) للمـلا نصر الدين جحا .... ويلاحظ أن هذه الطبعات مع الطبعة المصرية منتشرة ومتداولة في العالم العربي تقريبا وبنفس الاسم العـربي التركي (نوادر جحا الكبرى لصاحب النكات والاخبار الشـهيرة نصر الدين خوجة المعروف باسم نصر الدين جحا) .

ومعنى هذا انه قد ادمجت ـ بفعل الجامعين والناشرين ـ النوادر المنسوبة للرمز العربي (بكل ما ينسب اليه من نوادر له ولغيره) وللرمز التركي على السواء ... وحتى لو استطعنا فصلها تاريخيا بتتبع النوادر العربية في مصادرها القديمة فان الذي لا شك فيه أن ذلك يستحيل من حيث تمثل الشعب وترديده لها دون أن يفرق في نسبها ان كانت النوادر تركية أو عربية الاصل ، طالما انها تؤدى الوظيفة التي من اجلها وضعت النادرة ، وذاعت .

وعلى الرغم من ان هذه المسالة لم تعد في حاجة الى ادلة جديدة لتأكيدها ، فانه من المستحب أن يعرج قليلا على آراء بعض الدارسين من خلال دائرة المعارف الاسلامية في هذه المسألة لبيان العلاقة بين جحا الترك وجحا العرب ، وتأثير كل منهما في الاخر ، ولقد ذكرنا من قبل أن بعض المستشرقين من أمثال رينيه باسيه ، وهارتمان ، وفيسيليسكي قد شكوا في حقيقـة وجود الخوجـة لنصر الدين نفسه ، وخصوصا بعد هذه الفوضى التاريخية لجحا وحياته وعصره .... وذكرنا كذلك أن رأيهم هذا مرتبط الى حد ما بمسألة أصل فكاهات نصر الدين ، فمثلا يرى باسيه في كتابه

---

(١) من منشورات مكتبة التعاون في بيروت لبنان ـ وطبعة المكتبة الاهلية في لبنان .

(٢) مكتبة اسـعد ببغداد .

Recherches sur si Djeha أن النوادر التركية ترجمة للفكاهات العربية القديمة التي كانت منتشرة بكثرة في ذلك الوقت في نهاية القرن الرابع الهجري (اي العاشر الميلادي) عن جحا الذي كان يعيش في قبيلة فزارة العربية بالكوفة وأن غباء او حمق جحا كان مضرب الامثال عند العرب كما هو واضح من الميداني المتوفي سنة ١١٢٤م (سنة ٥١٨ هـ) وكذلك كتاب « نوادر جحا » الذي ظهر منذ ذلك الزمن البعيد في فهرست ابن النديم (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) . ويرى باسيه أن هذه المجموعة من النوادر قد وصلت الى الغرب عن طريق الترجمات الشرقية منذ ان ترجمت الى التركية في القرن الخامس عشر او السادس عشر ، واطلق على بطلها نصر الدين خوجة الذي شك باسيه في وجوده اصلا (١) .

وعلى كل حال فقد قوبلت نظرية باسيه في كثير من الاحيان بالارتياب ، فمثلا هناك بعض الدارسين مثل هورن وكريستنسن لا يؤمنون بنظرية ترجمة فكاهات جحا القديمة (٢) ، ويصف هارتمان نوادر الخوجة بأنها (خاصية مشتركة) في الادب وفي العالم كله ، وان كانت ــ الى حد ما ــ قد وضعت بصفة خاصة في قالب او صورة تركية ، وعلى هذا فهو يرى أن التساؤل بوجود مثل هذا الشخص من عدمه تساؤل غير ذى قيمة (٣) . . .

كذلك يرى هونزكرايمسكي ان فكاهات الخوجة نصر الدين ما هي الا نوع من (القصص الشعبي) الذي « يوجد في كل مكان » وبينما يرى كريستنسن نفس الراي ، يعترف بان هذه الفكاهات تكون مجموعة مستقلة ــ « من المحتمل أن يكون قد اضيف اليها أو تشابه معها الكثير من نوادر جحا القديمة (١) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة نصر الدين (٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة نصر الدين .

وأيا ما كانت الحقيقة فانه ـ كما يذكر كاتب مادة نصر الدين بدائرة المعارف الاسلامية ـ يبدو أنه يوجد شيء واحد مؤكد : هو ان الاصل المباشر لمعظم نوادر نصر الدين يجب أن يبحث عنه في عالم الثقافة العربية والاسلامية ـ كما يقول باسيه وهارتمان ـ حيث كان جحا بالتأكيد هو بطل معظم هذه الفكاهات ، وفي ناحية اخرى فانه يمكن القول بأن جحا كان هو النموذج أو المثال الاصلي لكثير من نوادر نصر الدين ـ وعلى الرغم من أن نظرية باسيه لا يمكن اعتبارها صحيحة في كل تفاصيلها ، الا انه يمكن اعتبارها صحيحة في ملامحها الرئيسية ،خاصة وانها قد وجهت الدارسين لنصر الدين الى تأثير الادب العربي الغني بالفكاهات والنوادر المرحة ... مع كون بعض هذه النوادر غير عربي الاصل ، وانما كان فارسيا أو سوريانيا أو هنديا أو يونانيا ..... الخ ، وهذا أمر طبيعي جدا ، خاصة اذا تذكرنا انها « خاصية مشتركة » في ادب كثير من الشعوب ، ولكن في هذه الحالة كانت النسخة العربية هي الاصل الذي اخذ الاتراك عنه (١) .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه كذلك ان بعض النوادر التركية يعود أصلا كذلك الى مصدر فارسي فهناك القصص المنسوبة لجحا الاتراك قد ذكرت منذ زمن بعيد في قصص وقصائد الفرس مثل (مينوكيهيري المتوفى سنة ١٠٤٠ م) . أو ترجمت او نقلت مثل قصته في أنوارى سنة ١١٩٠م ، وثلاث قصص ذكرها جلال الدين الرومي (المتوفى سنة ١٢٣٣ م) واثنتا عشرة نادرة في لطائف الشاعر عبيد الزاكاني ، كما ذكرت بعض نوادره في كتاب جامع الحكايات لحبيب الله الكاشاني المتوفى سنة ١٣٧١ م وكذلك في كتاب باهارستان لعبد الرحمن الجامي ...

والجدير بالذكر أن نوادر جحا شائعة حتى الان بين افراد الشعب الايراني دون استثناء ، ولهذا فأهل ايران يؤكدون انه

(١) المرجع نفسه .

فارسي الاصل ، وانه من اهالي اصفهان واسمه الحقيقي « الملا نصر الدين » والملا هي المعلم كالخوجة تماما ونوادره مجموعة في كتاب « كليات فكاهيات الملا نصر الدين » باللغة الفارسية ويتشابه تماما مع جحا الاتراك « الخوجة نصر الدين » (١) ... مما يؤكد انهما اسمان لشخصية واحدة .

فاذا ما وضعنا في الاعتبار ذلك الدور الكبير الذي لعبته الثقافة الفارسية عند سلاجقة الروم ومن بعدهم عند العثمانيين كما اوضحنا من قبل ، فانه لا يمكن ان نقول « باستحالة وصول جحا الى الترك خلال الادب الفارسي وهذا هو الراي الاكثر احتمالا ، حيث ان جلال الدين الرومي قد امضى معظم حياته - ومن قبله والده بهاء الدين الملقب بسلطان العلماء في الاناضول وفي قونية على وجه الخصوص ، وان جلال الدين استخدم (**جوحى**) كما ينطق جحا بالفارسية ، حينئذ لتوضيح آرائه المهمة (المثنوى تحقيق نيكلسون ج ٢ ص ٣١١٦) . وبالنظر - خصوصا - الى هذه الشعبية لجحا ؛ والى الحقيقة القائلة بعملية النقل بين دول الشرق ، قد لا يكون من المستبعد أن عامة الشعب قد حرفوا اسم (جحا) الذي كان يبدو غريبا عليهم الى خوجة ، وهذا الراي ينادى به باسيه ويصر عليه (٢) .

ومن المحتمل كذلك ان تكون قد اضيفت الى قصصه نوادر الغباء أو الغفلة التي نسبت لقراقوش عامل صلا حالدين الايوبي على مصر (توفى سنة ١٢٠١ م) .... وعلى كل حال فان كثيرا من نوادر نصر الدين ترجع الى قرون عديدة سابقة مما يقطع بأنه لا يمكن ان يكون هو قائلها أو صاحبها (٣) .

---

(١) وقد أتيح للمؤلف أن يقارن النوادر التركية المترجمة بالنص الفارسي لنوادر نصر الدين فتأكد له التشابه التام بينهما شكلا ومضمونا .

(٢) Melanges Africains et Orientaux, Paris, 1915, p. 49.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية - مادة نصر الدين .

وبهذا نرى أن الدارسين الاجانب قد اجمعوا ـ تقريبا ـ على أن النوادر المنسوبة لجحا الترك ليس بقائلها كلها .. بل اضيف اليها ما وصل الاتراك من نوادر فارسية او عربية وانه بالرجوع الى المصادر العربية القديمة ومقارنتها بالنوادر المنسوبة لجحا الاتراك نقطع بانها عربية الاصل دون ادنى ريب ..

ولهذا لا غرو ان يقرر باسيه ـ بعد أن ترجمت احدى مجموعات النوادر التركية الى اللغة العربية ، في منتصف القرن السابع عشر الميلادي ـ « أن الاتراك قد ردوا الى العرب بعض ما كانوا قد اقترضوه منهم من نوادر » (١) .

العلاقة اذن بين النموذجين هي علاقة اخذ وعطاء مستمرين ، كان خلالها النموذج العربي ، جحا الفزارى ـ بنوادره التي تزخر بها كتب التراث ـ هو المثال او النموذج الذي احتذاه الترك في انتخاب جحاهم نصر الدين خوجة ، فنسجوا على منواله واضافوا اليه تجربة الامة التركية ، وحكمتها الشعبية ، وتجربتها العملية ، حتى صار نصر الدين خوجة هو النموذج أو الطراز الاخير للنمط الجحوي بوجه عام .

وهو النمط الذي سرعان ما تتلقفه ـ بأصوله العربية والتركية معا ـ البيئة المصرية ، بما اثر عنها من كلف بالسخر والفكاهة .



---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة نصر الدين .

٣

جُحَا المصْرِيّ

بين الواقع التاريخي والرمز الفني



لعل النموذج الجحوي لم يلق من الذيوع والانتشار في العالم العربي مثلما لقي في البيئة المصرية ، على الرغم من انه شخصية غير مصرية ، اعني ليس له واقع تاريخي في مصر مثل سلفيه جحا الفزارى والرومي ، وانما عرفته البيئة المصرية ـ كما سنرى ـ رمزا فنيا منقولا اليها ، له اسلوب فني مميز في الحياة والتعبير ، في اطار فني اثير لدى الشخصية المصرية ، والمزاج المصري ، هو اطار السخر والتندر والفكاهة . . . فتلقفته نموذجا فنيا وشعبيا ، تعكس من خلاله ـ الى جانب انماط الابداع الادبي الاخرى ـ جانبا رئيسيا من جوانب المقاومة والتعبير عند هذه الشخصية . ولا بد لنا قبل الشروع في دراسة النموذج الجحوي في مصر ، أن نضع في اعتبارنا هاتين الملاحظتين : ـ

الاولى : ـ ان الاسلوب الجحوي في مصر ـ تعبيرا ووظيفة ـ سابق لوجود الرمز الجحوي الذي نعنيه في هذه الدراسة باعتباره رمزا وافدا الى البيئة المصرية ، في مرحلة لاحقة . اعني انه اسلوب سابق من حيث الوجود التاريخي والفني لكل من جحا الفزاري ، ونصر الدين (وهما النموذجان المرتبطان بالرمز المصري فيما بعد). فالاسلوب الجحوي ـ اطارا وفلسفة ـ جزء أصيل من أسلوب الشخصية المصرية في المواجهة والتعبير ، لا يزال يشكل معلما بارزا من معالم الشخصية المصرية .

اما الملاحظة الثانية : فهي أن للشعب المصري ولعا كبيرا باتخاذ النماذج الانسانية والرموز الفنية ، والشخوص المعبرة ، شأنه شأن كثير من الشعوب ، فينطقها بمـا يريد ـ متخفيـا وراءها ـ ليعلن من خلالها ـ كلما عزت حرية التعبير ـ آراءه في نقد الحياة والاحياء ، وبخاصة في نقد الهيئتين الاجتماعية والسياسية.

غير أن الوجدان الجمعي ، في مصر الاسلامية ، لم يبتدع هذه الشخصيات والرموز ابتداعا ، أو بالاحرى لم يجد حرجا بعد التعريب في تلقفهـا من خـارج حـدوده من التـراث العربـي الاسلامي الكبير ، ثم يتبناها ـ ويعيد صياغتها أو تشكيلها تشكيلا اخر ، يتفق ومزاجه العام ، وقضايا الذات العامة ... التي هي في الوقت نفسه جزء من قضايا المجتمع العربي الكبير ، ولعل صنيعه بأبطال الملاحم الشعبية العربية ، يؤكد ذلك ويشهد له .

ولم يشذ الوجدان الجمعي في مصر ، عند انتخابه للرمـز الجحوي ، عن هذه القاعدة ... فما أن انتقلت نوادره الى مصر وصادفت هوى في نفوس الشعب العربي في مصر ، حتى تمثلوها في اقوالهـم وافعالهم ، وعايشوها معايشة فنية ـ ان جـاز هذا التعبير ـ ومعايشة وظيفية ، فهو ـ اي الرمز الجحوي ـ ليس بغريب على الشخصية المصرية ـ كما قدمنا ـ لا في اسلوبه في المواجهة والتعبير ، ولا في فلسفته ورؤيته للاحداث والواقع . وقد اضاف اليه الشعب المصري من تجربته وحكمته العملية الشيء الكثير . التي تمثلت في هذا الكم الهائل من النوادر التي نسبوها اليه وجعلوه بطلا لهـا .

واذا كان الدارسون ، يذهبون الى ان اغلب الاداب الشعبية (العربية والاسلامية) « قد انتقلت الى مصر مع عرب الفتح ، وجند الخلافة ، الذين استوطنوا أرض مصر ، فان الذي لا شك فيه ، أن هذه الآداب قد بدات تعرف سبيلهـا الى التكامل والذيوع الشفاهي في بعض ارجاء البيئة المصرية ، منذ القرن الرابـع

الهجري .... وان لم تجد سبيلها الى التدوين الا في أوائل القرن السادس الهجري تقريبا ، وهي الفترة التي استكمل فيها الوجدان المصري عروبته من الناحية السيكولوجية ، ومن ثم تمت تلك ـ الموازنة العبقرية ـ على حد تعبير أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس ـ بين الشخصية المصرية والشخصية العربية . فاذا ما وضعنا في الاعتبار أن الثقل الحضاري والثقافي والادبي ، قد انتقل الى مصر بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ . فانه من المؤكد أن مصر قد عرفت النوادر العربية عامة ، كما احتفلت بنوادر الحمقى والمغفلين خاصة ، ولا سيما في بعض المدن المصرية ، التي كان قد تم تعريبها ، في فترة مبكرة نسبيا ... ولقد صادفت هذه النوادر هوى في نفوس المصريين منذ البداية فلم يترددوا في انتخاب الكثير منها باعتبارها جزءا من التراث الاسلامي العربي الشعبي .

٢

ولو انعمنا النظر ، فيما اثر عن هذه الفترة من نوادر (١) لوجدناها معروفة في البيئة المصرية ، ولكنها لم تنسب الى جحا نفسه الا في مرحلة متاخرة نسبيا حينما تم انتخابه رمزا فنيا أتيح له أن يستقطب نوادر الاخرين .. .وعلى ذلك يمكننا أن نرجع أن النموذج الجحوي قد عرف في مصر على مرحلتين .

اما ـ **المرحلة الاولى** : فهي تلك التي شاعت فيها النوادر العربية في البيئة المصرية منذ العصور الاسلامية الاولى ـ مع بداية التعريب ـ وهي مرحلة شاعت فيها نوادر الحمقى والمتحامقين ، على وجه الخصوص وكان نصيب جحا من الشهرة ـ ابان تلك الفترة ـ كنصيب غيره من الحمقى والمتحامقين ـ وما اكثرهم ـ وان كانت نوادره جميعا قد رددت ، دون أن تنسب اليه بشخصه

---

(١) انظر كتاب « الفكاهة في مصر » للدكتور شوقي ضيف ، للوقوف على كثير من اعلام الفكاهة في هذه العصور ونماذج من نوادرهم ـ الناشر ـ دار الهلال سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٧ وما بعدها .

وبخاصة بعد ان عدل الوجدان الشعبي المصري من وظائفها ـ لا من اسلوبها ـ .. فلم يعد السخر من خلة الحماقة أو الغباء غاية في ذاتها ،وانما اصبحت نوادر الحمقى ـ بما فيها نوادر جحا نفسه ـ ذات وظيفة سياسية ، غايتها النقد السياسي .. والنيل ـ معنويا ـ من الحكام والولاة الذين تبدلوا على مصر ، واتسم حكمهم بقدر كبير من الجور الاجتماعي او البطش السياسي ، وذلك عندما خلع عليهم المصريون خله الحماقة التي يتسم بها البله والحمقى ... من خلال ما نسب اليهم من نوادر تستثير السخرية من حماقة هؤلاء الحكام والرثاء لعقولهم ، بهدف النيل من انظمتهم وقوانينهم وأحكامهم الجائرة ... وقد صادفت نوادر جحا هوى في نفوس المصريين لتحقيق هذه الغاية (وقد سبق أن أكدنا أن الاسلوب الجحوي سابق لوجود جحا نفسه في مصر) . فنهلوا منها ، دون عناء ، كما نهلوا من غيرها من نوادر الحمقى والمغفلين ـ وما اكثرها ـ في التراث العربي .. .وقد عدلوا من وظائفها على نحو ما ذكرنا . وسلخوها عن أبطالها الحقيقيين ، وعقدوا بطولتها لهؤلاء الحكام والولاة . أو لنماذج محلية ، قادرة على السخر منهم ـ قبل أن تعز حرية القول تماما .

واذا كنا قد أكدنا من قبل أن العصر الذهبي للنوادر الجحوية يزدهر في فترات التحول التاريخية ، وما تقترن به من متناقضات ، فما أكثر تلك الفترات في تاريخ مصر الاسلامية ومن ثم فلا غرو أن يشيع في البيئة المصرية كثير من النماذج الجحوية ، اعني تلك التي تتخذ الاسلوب الجحوي وسيلة في التعبير ، وتجنح الى السخر في المقاومة والمواجهة ، أيام الطولونيين (١) والاخشيديين .. (٢)

---

(١) منهم الجمل الاكبر ـ وكان شاعرا فكها مشهورا .

(٢) يقول استاذنا الدكتور شوقي ضيف « لعل مصر لم تعرف في عصورها الاسلامية الاولى فكها ساخرا على نحو ما عرفت في شخص « سيبويه المصري » الذي عاصر الدولة الاخشيدية ، وكان يظهر التباله والحمق والجنون ، ويضع كل ذلك مسرحا ينفذ منه الى نقد هذه الدولة الاجنبية ونقد موظفيها

والفاطميين (١) والايوبيين والمماليك ، الذين تبدلوا على حكم مصر ، وما صاحب عهودهم من تغير مستمر في النظم السياسية والاجتماعية والمذهبية . وتزداد النادر الجحوية ـ بوظيفتها السياسية ـ ذيوعا أبان الدولة الايوبية ... ولعل أطرف ما اثر عن هذه الفترة كتاب « **الفاشوش في حكم قراقوش** » الذي يعد من أقدم الكتب الفكهة ـ بالمعنى الدقيق للفكاهة السياسية وهو من تأليف **الاسعد ابن مماتي المصري** (٦١٦هـ) صاحب ديوان الجيش والمال على عهد صلاح الدين . وقد اشتهر هذا الكتاب بالاسلوب الجحوي (النوادر) في التعبير عن الرفض السياسي ، لاحدى الشخصيات الاجنبية التي قدر لها أن تتولى مقاليد الحكم في مصر .. .وهي شخصية « قراقوش » ، أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه ، ونائبه كلما غاب عن مصر ، وكان هذا القائد التركي « قراقوش » معروفا في حكمه بالصرامة والشدة الى حد غير انساني أحيانا ، الامر الذي

المختلفين ، نقدا فيه مرارة وخبث ، وفيه تنفيس عما يقع على الناس من ظلم في هذه العهود الاقطاعية الجائرة » .

ومما هو جدير بالذكر ، انه كان يسوق نقده السياسي ، في شيء من التخليط ، الذي يغرق سامعيه في الضحك ، حتى حسبه السذج مجنونا ، بينما كان العقلاء يرونه جريئا ، لا يموه ولا يمخرق ، يواجه الحق ، من أقصر الطرق ، فيذيعه بين الناس دون تدليس أو تزييف أو دوران ، وكان في هجومه على الاخشيد وكبار موظفيه وقضاته ، يحدث تنفيسا عن الحرج في نفوس سامعيه ، كلما وقف بينهم واعظا ، اذ كان فقيها صالحا ، يتخذ من الفكاهة الساخرة والنادرة اللاذعة سبيلا الى ذلك (**لاحظ العناصر المحورية المشتركة بينه وبين النموذج الجحوي بعامة**) وكان في نوادره السياسية ذات الاسلوب الجحوي هجاء مصميا ، يرمي بالكلام ، وكأنه يرمي بالسهام » . انظر الفكاهة في مصر للدكتور شوقي ضيف ص ٢٧ ـ ٢٩ .

(١) ظهرت في هذا العصر كثير من الشخصيات الفكهة او الساخرة منهم ابن قادوس الدمياطي ، والجليس بن الحباب وغيرهم . وان كانت قد طغت على فكاهاتهم ونوادرهم الجوانب الاجتماعية الى جانب انتقاداتهم السياسية للبيت الفاطمي ومزاعمه السياسية في الخلافة والمعتقدات الدينية ، ولم يخش الفاطميون من شيء في مصر ، سوى السنة هؤلاء الساخرين ، فسموا الى احتوائهم بأساليب شتى .

لن ينساه له المصريون فيما بعد ، فلم يخرج في رأيهم حينئذ عن غيره من الطامعين أو الفاتحين ، فكان أن تصدى له « ابن مماتي » فاختصه بتصويره الساخر ووضع عليه الحكايات المضحكة التي تصور حمقه وبلاهته وغفلته فيما صدر عنه من أحكام .. وهي الحكايات التي صنفها في هذا الكتاب ، الذي استهله بقوله « انني لما رايت عقل بهاء الدين قراقوش مخرقة « فاشوش » قد اتلف الامة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يقدر احد ، من عظم منزلته ، أن يرد على كلمته ، ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما انزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » .

والحق أن ابن مماتي ـ في صنيعه بقراقوش ـ لم يكن ليجرؤ على تاليف كتابه هذا ـ بله تقديمه لصلاح الدين ـ الا اذا كان واثقا من انه يصور سخط المصريين من حوله على هذا القائد التركي ، وينفس عما يصطدم في صدورهم من غيظ وحرج بنفس الطريقة التي طالما لجأوا اليها في اعلان ذلك ، وهي طريقة السخرية بهؤلاء الحكام واظهارهم في صورة مضحكة من الغباء والغفلة والبلاهة . واغلب الظن أن هذه النوادر التي صاغ منها ابن مماتي كتابه ، كانت شائعة بين العامة ، للنيل من قسوة حكامهم واستبدادهم ، فالتقطها وأعاد صياغتها وتوظيفها ، وكتبها بلغتهم متوجها بها اليهم ، ومعنى هذا ـ كما يقول أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ـ أن « ابن مماتي في هذا الكتاب يعبر عن مقاومة الشعب المصري » في رفضه لهذه الشخصية ، فلم يترك جانبا من جوانبها الا سخر منها ومن أحكامها ، حتى ليجعل من صاحبها مثلة عصره ، والعصور التالية في الغفلة والغباء . ومن الجدير بالذكر أن ابن مماتي لم يبلغ ذلك ، ولم يصنعه بالشعر ـ وكان شاعرا ممتازا ـ وانما بلغه وصنعه بهذه النوادر الشعبية التي اختار لها لغة المصريين الدارجة ، وكانه يريد أن يطابق بين ما يرويه ، وبين

اللغة الحقيقية التي كانت تدور بين قراقوش ، ومن حكم بينهم من الناس ، حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة (١) .
ويجمع الدارسون المحدثون على أن نوادر ابن مماتي لم تكن من تأليفه « فاغلب الظن انه اخترع اكثرها او كثيرا منها (٢) » وهي ليست كلها من تأليفه أو ابتكاره ، بل هي مما يشيع ، مجهول المصدر ، ثم يقاس عليه (٣) ، وهو اجتماع له مغزاه في هـذه المقام ـ الذي هو بالتأكيد ليس مقام تأريخ للفكاهة في مصـر الاسلامية ـ وهذا المغزى هو ، أن كثيرا من النوادر التي استقاها ابن مماتي في كتابه هذا مما شاع من نوادر في كتب التراث العربي جاءت منسوبة الى جحا ، واشباهه أو مما رددته العامة منسوبا الى جحا واشباهه ، غير انه قبل ان نتعرض لهذه النقطة علينا أن نؤكد ان كتاب ابن مماتي قد ذاع صيته ، وطارت شهرته حتى تناسى الناس ، حقيقـة شخصية « بـهاء الدين قراقوش ـ التاريخية ـ » ولم يحفلوا الا بتلك الشخصية الهزلية الذي ضرب بحمقها المثل في البطش (ولا حكم قراقوش) وقد اضافت اليها العصور التالية ـ بالتأكيد ـ كثيرا من الالوان والظلال ، كلما ازدادت قوى البطش في حكم مصر .. .اذ نسبت اليها الكثير من الحكايات المضحكة والنوادر الساخرة . كذلك تناسى الناس « ابن مماتي » مؤلف الكتاب ، ولم يحفلوا الا بما كتبه من نوادر غدت عندهم رمز للسخرية السياسية من الاستبداد الاحمق ، والبلاهة المتعجرفة ، ولطالما رددوها واضافوا اليها الكثير من تأليفهم او مما نقلوه من كتب التراث حتى أن فقيها عالما ، كالشيخ جلال الدين السيوطي ـ من ابناء القرن التاسع الهجري ـ قد الف كتـابا استعار له نفـس اسم كتاب ابن مماتـي (الفاشوش في حكـم

---

(١) انظر الفكاهة في مصر للدكتور شوقي ضيف ص ٢٥ ـ ٤٠ .

(٢) د. أحمد محمد الحوفي : الفكاهة في الادب ص ٢٢ .

(٣) عباس محمود العقاد : جحا الضاحك المضحك ص ١١٧ .

قراقوش) في نحو عشرين ورقة تقريبا (٤٠ صفحة) ، ولكنه يختلف عنه في كثير من نوادره ، اذ أن السيوطي قد انتخب في كتابه مجموعة اخرى من النوادر ، بعضها قد يكون من تاليفه ، لكن أغلبها كان مما شاع في كتب التراث ، أو رددته العامة من نوادر جديدة ، طوال الحكم التركي في عصر المماليك ، وقد وجد الناس في كتاب السيوطي « راحة لهم من كل حاكم ظالم ، او أمير عات ، او وال معتوه ، او مملوك طاش رايه وساءت سمعته » ويذيع كتاب السيوطي كما ذاع كتاب ابن مماتي من قبل ... وتزدهر — من ثم — النوادر ذات المضمون السياسي ازدهارا كبيرا نرى آثره جليا في العصرين المملوكي والعثماني فيما بعد .

والحق أن ابن مماتي — ومن نحا نحوه — في ضنيعهم بقراقوش ، واضرابه انما كانوا يعبرون عن مقاومة للشعب المصري لحكامه ، بهذا الاسلوب الذي يجنح الى السخر والتهكم ، وهو اسلوب عرفت به مصر منذ اقدم العصور ، وكأني بابن مماتي قد لجا الى نفس السلاح — في عصر بني أيوب — في ثوب جديد ، كانت خيوطه هذه المرة منسوجة من اخبار الحمقى ونوادر المغفلين ، الذين تزخر بهم كتب التراث العربي — بما في ذلك نوادر جحا العربي الذي لم يكن قد تمايز عن غيره من الحمقى أو المتحامقين .

فاذا كنا مع العصر المملوكي « ولعل هذه الروح المصرية الفكهة لم تتسع في عصر كما اتسعت في عصر المماليك » (١) . وجدنا نوادر النموذج الجحوي العربي تزداد تمثلا ومعايشة في الوجدان المصري ، وقد تمثلت هذه المرة عند ابن سودون (ابي الحسن علي نور الدين بن سودون اليشبغاوي ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م) الذي يرى فيه الدكتور شوقي ضيف (٢) « جحا مصر » في عصره ، في

---

(١) الفكاهة في مصر — د. شوقي ضيف ص ٤٥ .

(٢) نفسه ص ٧٢ .

مؤلفه المشهور (ديوان نزهة النفوس ، ومضحك العبوس (١)) . وبخاصة في القسم الثاني منه الذي يحفل بالهزل والفكاهة ، في اسلوب خليط من الفصحى والعامية ، حيث يمثل طبيعة الفكاهة في هذا العصر وألوانها المختلفة من ملح ونوادر عن الحمقى والمغفلين وغيرهم .

وفي ضوء ما سبق يمكن ان نقول ، أن النموذج الجحوي ، قد عرف في مصر الاسلامية ، بنوادره – حتى القرن التاسع الهجري ، وان لم يتمايز باسمه ، عن غيره من الحمقى أو المتحامقين . ذلك أن ما أثر عن هذه العصور الاسلامية من فكاهة ونوادر – وبخاصة ما دون منها – يؤكد دون أدنى شك أن أغلب هذه النوادر – اذا استثنينا الاضافات المصرية – هي في حقيقة امرها ، مما كان شائعا في كتب التراث العربي – وما أكثرها – تلك التي حفلت بنوادر الحمقى والمغفلين وأخبارهم ، وكان أكثر احتفاء الوجدان المصري ، آنذاك ، ينصب على مضمون هذه النوادر ومغزاها لا على أصحابها ، أو على نسبتها الى آحاد بعينهم من اعلام الحمق والفكاهة ، وبخاصة بعد أن شرع في تعديل وظائفها الحيوية فكثير من النوادر التي نسبت الى « قراقوش » عند ابن مماتي ، والسيوطي – هي في اغلبها – مما ترددت في كتب التراث التي اشرنا اليها في الفصل الاول ، سواء اكانت هذه النوادر منسوبة فيها لجحا العربي أم لغيره من الحمقى والمغفلين ، (٢) . مما يؤكد أن جحا العربي ، كان معروفا بنوادره في البيئة المصرية منذ العصور الاسلامية الاولى ، بل ان كثيرا منها قد عرف سبيله الى التدوين بالعربية الدارجة (اللهجة المصرية) منذ أوائل القرن السادس الهجري . . .

---

(١) وهو غير المخطوط (نزهة النفوس ومضحك العبوس) الذي اشرنا اليه من قبل في ترجمتنا لجحا الفزارى ومما هو جدير بالذكر أن ابن سودون ، كان اماما في بعض المساجد ، اتخذ الهزل والتباله والحمق والتحامق منهجا له في حياته ، انظر المرجع السابق ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) هي من الكثرة بحيث لا يحتاج معها الامر الى تدليل او تمثيل .

ثم كان احتفاء ابن مماتي بها ـ في اقدم نص مصري بين أيدينا ، مدون في هذا الموضوع ـ وان كان قد اغفل عن عمد نسبتها اليه او الى غيره ممن نقل عنهم ، حتى يتسنى له نسبتهـا الـى قراقوش ، (بعد ان جعل منه رمزا للبلاهة والحمق) وذلـك بصورة مباشرة عن طريق التصريح به ، فذلك أوقع في النفس ، وابلغ في الوصول الى هدفه من اقصر الطرق ... وكان هذا امرا مقبولا ـ مع طبيعة تلك المرحلة التي لم تكن قد عزت فيها حريـة التعبير تماما ، ومن ثم ، فلم تكن الحاجة ماسة الى وجود الرمز الجحوي ، باسمه التاريخي والفني معا حتى يستتر وراءه في النقد السياسي ـ بطريق غير مباشرة ـ عن طريق التلميح .

هذه هي المرحلة الاولى من وجود الرمز الجحوي في مصر الاسلامية ... وهي مرحلة شاعت فيها نوادره ... كما شاعت نوادر اضرابه من الحمقى والمغفلين ، دون تمييز يجعل من صاحبنا جحا علما على الفكاهة الساخرة عند المصريين ، ومن ثم لم يحفل الوجدان الشعبي بنسبتها اليه ، على وجه التحقيق أو التمويه ، وكان أهم ما يحفل به ، هو أسلوبها المميز في الحمق والتحامق (فلسفة وتعبيرا) وهو أسلوب لم ينفرد به الابداع الشعبي وحده ، بل كان سمة عامة تمايز بها ـ في الاغلب الاعم ـ شعراء مصر الاسلامية ، الذين اتخذوا من الحمق والتحامق منفذا ـ ينفذون منه الى نقد الحياة السياسية والاجتماعية في هذه الفترة ، وبصرف النظر عن الاسباب التي ادت بهم الى الحمق والتحامق ، فان الذي لا شك فيه ان مسرح الاحداث ـ ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي كذلك ـ كان مهيئا لظهور الرمز الجحوي ـ باسمه ـ ليلعب بطولة المرحلة التـالية .

٣

وأما المرحلة الثانية : فهي تلك التي شهدت بداية الاهتمام بالواقع التاريخي لجحا ابان القرن التاسع الهجري .... حين اهتم علماء مصر وفقهاؤها بالترجمة لجحا ـ على نحو ما رأينا من قبل (١) كما كانت هذه المرحلة بداية انتشار النموذج الجحوي في مصر ، بنوادره وباسمه معا .... وفيها عرف ـ باسمه ـ رمزا فنيا ، وعلما من اعلام الفكاهة الساخرة ... استقطب الكثير من نوادر غيره ، أو ما جد من نوادر من وضع الابداع الشعبي في مصر .

وهذه المرحلة ـ كذلك ـ هي اخطر المراحل التي تطور فيها الرمز الجحوي العربي ـ في مصر والعالم العربي ـ من مجرد شخصية تاريخية اشتهرت بالحمق والتحامق الى نموذج فني ، حيث اكتمل « تنميطه » او تكوينه الفني ـ ان صح التعبير ـ بأبعاده الانسانية والسياسية والاجتماعية .

وقد شاء الواقع السياسي والاجتماعي ـ بله النفسي ـ ان تتكامل هذه الشخصية ـ بخصائصها الفنية والموضوعية ، في البيئة المصرية ، ومنها انتقلت وشاعت في البيئات العربية ، مرة اخرى ، بعد ان لعب الابداع الشعبي في مصر ـ بطبيعة الحال ـ دوره في نمائها وتطورها وتبريزها ، وجعلها شخصية شعبية موصولة الحياة ... ولم يكن صنيع الابداع الشعبي المصري في ذلك دون سبب معقول ، ذلك أن الواقع السياسي في مصر آنذاك ، كان يملي عليه ، في تعبيره الفني وانماطه الادبية أن ينتقل من التصريح الى التلميح .. بعد ما عزت حرية القول ـ تماما ـ عندما فقدت مصر استقلالها نهائيا ـ أو بالاحرى دورها التاريخي ـ منذ أن باتت ايالة عثمانية عام ١٥١٦ / ١٥١٧ م .

---

(١) انظر هذه الدراسة ص ٢٤ ـ ٣٨ .

وفي ضوء هذا الواقع ـ النفسي ـ الجديد كان لا بد من رمز أو « مشجب » فني يعلق عليه المصريون آراءهم في السلطة الجديدة ... وهي سلطة مفروضة مرفوضة في آن واحد ، تعبيرا عن موقفهم منها ، وهو أسلوب عرفوا به منذ اقدم العصور فكان أن وقع اختيارهم أو انتخابهم بما جبلوا عليه من ميل للفكاهة ، وجنوح للسخر ـ على شخصية جحا العربي ، التي لم تكن غريبة بنوادرها على الوجدان الجمعي في مصر ، وقبل أن نشرع في تبرير انتخابه رمزا قوميا في مقابل الرمز التركي ، قد يثار هذا السؤال : لماذا آثر الشعب العربي بعامة جحا الفزاري دون غيره من حمقى العرب الذين تزخر بهم كتب التراث ، ولعل اجابة هذا السؤل ، تكمن في سهولة تداول الاسم « جحا » وندرة تداوله أساسا ، فضلا عن غرابة معناه لغويا ، وربما كان الاسم سهل التداول بالفعل،الامر الذي يغري بسرعة ذيوعه ، ومن ثم شهرة صاحبها ، وربما كان السبب عائدا الى وجود كتب كاملة تقص نوادره وحكاياته ... وهي كتب قد ذاعت وشاع تداولها ، وربما كان السبب عائدا الى غلبة المواقف الشرطية على سلوك الشخصية التي يرى فيها أستاذنا الدكتور « عبد الحميد يونس » السبب الاقوى على الشهرة واستمرار الحياة معا (١) .

غير أن السؤال الجوهري الذي ينبغي ان يثار هنا : لماذا تم انتخاب الرمز الجحوي العربي ، في مقابل الرمز التركي ، وكان للشعب المصري مندوحة ، في أحدهما عن الاخر ، ما دامت كلتا الشخصيتين وافدتين . والحق ان الاجابة عن هذا السؤال تنشطر شطرين ، أحدهما تاريخي مرتبط أو مرتهن بالواقع التاريخي لوجود الرمز الجحوي ، والاخر فني مرتبط بالابعاد الموضوعية الجديدة التي انطوت عليها فلسفة النموذج التركي ، الى جانب تلك الابعاد التي انطوت عليها فلسفة النموذج العربي . وكان الجمع بين هذه

---

(١) دفاع عن الفولكلور ص ٢٠٠ .

الابعاد جميعا ــ في نموذج واحد أو مشترك هو النموذج المصري ــ زادا فنيا ونفسيا وموضوعيا كبيرا ــ لجحا ، ومن ثم لا غرو أن نقول أن النموذج الجحوي العربي قد تكامل في مصر ــ أي أنه كان بمثابة النسخة المعدلة من الشخصيات الجحوية المتعددة ، وهي النسخة التي شاعت بعد ذلك في مصر والعالم العربي وتجاوزتها كذلك الى العالم غير العربي في اسيا وافريقيا وأوروبا . ولم تشأ الشعوب الاسلامية (العربية ــ التركية ــ الفارسية ــ وهي الشعوب التي تتنازع وجوده التاريخي) لم تشأ أن تفرق بين اي من نوادر هذه النماذج ، واعتبرتها رصيدا حيا ناميا في ابداعها الشعبي ، ويعرف بهذه الاسماء معا كما سنرى وشيكا .

ويهمنا في هذا المقام أن نؤكد أن انتخاب الشعب المصري ــ ومن ثم العربي ــ لشخصية جحا الفزاري لم يكن محض مصادفة (فالاداب الشعبية لا تنشأ ولا تزدهر ولا تعيش الا في ظل قدرتها على تحقيق ما انيط بها من وظائف حيوية وعملية في حياة الشعوب) ومن ثم فقد تم انتخاب هذه الشخصية الشعبية ، عن وعي جمعي كامل ــ هذه المرة ــ وحس قومي بطبيعة تلك المرحلة التاريخية من مراحل التحول التي انتهت بخضوع العرب سياسيا وعسكريا وروحيا للاتراك العثمانيين بكل ما تحفل به هذه المرحلة من متناقضات خطيرة في النظم الاجتماعية والعلاقات الانسانية والمواقف النفسية (وهي من المراحل المؤاتية لازدهار الرمز الجحوي) ومن طرائف الامور ان يأتي العثمانيون ، ومعهم جحاهم (نصر الدين خوجة) الذي رأيناه ــ على نحو ما بينا من قبل ــ شخصية شبيهة بجحا العربي ، (الواقع والتعبير) منذ ان استعار ــ نصر الدين ــ من سلفه العربي (الفزارى) بعض الملامح والقسمات، وضم الى ذخيرته طائفة من نوادره العربية ، وقد جاء كل منهما رمزا للتغلب على تلك المتناقضات من ناحية ، ومقاومة الانحراف والتسلط من ناحية اخرى . والحرص في الوقت نفسه على عدم الذوبان في الظروف . ولهذا لم يكن من العسير ان يجد جحا الترك مكانا بارزا له في البيئات العربية والاسلامية بعامة ــ ما

دامت الظروف بدورها متشابهة ـ ومن ثم لا غرو أن تتلقف **مصر الاسلامية** هذا النموذج التركي ، كما تلقفت **مصر العربية** ـ من قبل ـ النموذج العربي .

ولم يشأ الوجدان الشعبي ـ في مصر اولا ـ بفطرته او بفطنته التي تجمع بين الذكاء اللماح والتهكم الساخر ، أن يفرق بين النموذجين ، العربي والتركي ، ولم يشأ أن يشغل نفسه بما قد يكون بينهما من فوارق زمانية أو مكانية ، تاريخية أو بيئية ، قدر اهتمامه بالدور الوظيفي والتعبيري ، ومن ثم لا غرو أن يجمع بينهما في نموذج ثالث ، **هو جحا المصري** ، الذي نسب أو اضاف اليه ما شاء ابداعه من نوادر وحكايات مصرية ، ما دام التشابه بينهما قائما في الهدف والوظيفة ، وفي الاسلوب والتعبير ، الامر الذي كان له ما بعده في تكوين النموذج الجحوي الجديد في مصر ، وهو النموذج الذي انتمى في **بعض اصوله التاريخية والفنية** الى جحا العربي ، أبي الغصن دجين الفزاري ، ذلك لاسباب قومية ، قوامها الدفاع عن الذات العامة أمام الشعوب التي تسللت الى موطنه وغلبته على مصالحه من ناحية ، وأمام استئثار غير العرب من المماليك والعثمانيين بمقدرات الحكم في مصر ، والعالم العربي من ناحية اخرى .. وهو النموذج الذي انتمى ايضا ، **في بعض اصوله الفنية** الى جحا الترك « نصر الدين خوجة » لاسباب موضوعية ، فرضها ما حدث بين الترك والعرب من تداخل ثقافي ، فضلا عن تشابه الظروف السياسية والاجتماعية والنفسية بين الشعبين .

ومما هو جدير بالذكر ، ان هذا النموذج المصري ، هو الذي شاع في العالم العربي بعد ذلك ... ولسوف نطلق عليه أثناء هذه

الدراسة **النموذج الجحوي العربي** عند تناولنا لفلسفته وحكمته الشعبية (١) .

وفي ضوء هذه التركيبة (الجحوية) الجديدة في البيئة المصرية تكاملت فلسفة النموذج الجحوي في الادب الاسلامي بعامة (العربي ـ التركي ـ الفارسي) وتبلورت أبعاده الموضوعية على النحو التالي ...

السخر الانساني ، ومصدره جحا العرب .

السخر الاجتماعي ، ومصدره جحا الترك .

السخر السياسي ، ومصدره جحا مصر .

ذلك أن النموذج العربي ـ في بداياته ـ تمايز ، اكثر ما تمايز ، بنوادره في الحمق والتحامق ، بوظائفها الانسانية التي تسعى لتقويم السلوك الانساني ، كما تمايز جحا الاتراك ، أكثر ما تمايز ، في نوادره بنقد الحياة الاجتماعية ، ومن ثم كانت له رؤيته الاجتماعية (الشعبية) كما يغلب عليه طابع الحكمة او صورة الرجل الحكيم او الفيلسوف الشعبي الذي ينقد الحياة والاحياء في قالب من الفكاهة والسخر . ثم كان جحا المصري ، أو بالاحرى نوادر جحا مصر، التي تتمايز ، أكثر ما تتمايز بالسخرية السياسية على أن نضع في اعتبارنا أن كل نموذج من هذه النماذج الثلاثة ، كانت له معطياته ، ونوادره في هذه الجوانب جميعا ، انسانيا وسياسيا واجتماعيا ، استفاد كل منهم من الآخر بقدر ما افاده ، وقد صبت ـ في النهاية ـ هذه الروافد في النموذج الجحوي ـ بعامة ـ الذي غدا رمزا لهذه الابعاد الثلاثة في فلسفته ، وشاع

(١) ولم يكن هذا صنيع مصر مع جحا وحده ، في الادب الشعبي العربي ، بل كان ذلك صنيعها مع اغلب أبطال الملاحم او السير الشعبية العربية التي تلقفتها مصر أعمالا قصصية محدودة ، فقدر لها ان تكتمل في أعمال ملحمية كبرى ، كما قدر لها أن تتكامل وظائفها الحيوية (القومية والاجتماعية) في مصر العربية ، ومنها شاعت في سائر البيئات العربية .

في البيئات الاسلامية ـ العربية ، وغير العربية ـ بهذه الفلسفة التي تعددت روافدها، وبأسلوبه الذي يجمع بين الحمق والتحامق، أو الغباء والذكاء ، في آن وقد راحت تتجمع حول اسمه تلك المجموعات القصصية الهائلة ، الممعنة في القصـــر والمسماة بالنوادر او الحكايات الشعبية المرحة . وهو النموذج الذي نعني بدراسته فلسفته وأسلوبه في الحياة والتعبير في هذه الدراسة . وقد ساعد على ذلك انتشار « عالمية » النادرة الجحوية نفسها ، اي النادرة المرحة ، فهي **نادرة انسانية** في المقام الاول ، الامر الذي يساعد على سهولة انتقالها وترديدها تراثا شعبيا عالميا في الوقت نفسه .

وليس معنى هذا أن النموذج الجحوي العربي ـ في مصر او في العالم العربي ـ قد فقد تفرده أو تمايزه بين النماذج الجحوية العالمية ... بل كان اكثرها تفردا وتمايزا ، لسبب بسيط ، أنه اكثرها اصالة ، واقدمها تاريخا حتى عندما تمثل الشعب العربي نوادر جحا التركي ، لم يتمثلها تمثلا حرفيا ، بل كان شأنها في ذلك شأن أية مادة فولكلورية حية نامية ، ومرنة متطورة ، تخضع للانتخاب والانتقاء ابدا فكان أن حجب بعض نوادره ، وعدل في بعضها ، بالحذف والاضافة والتغيير ، ليبقى لنا في النهاية رمزنا العربي برصيده المتجدد من النوادر ، حيا ناميا متجددا ابدا ، بوظائفه الحيوية التي تتجاوز مجرد التسلية والترفيه الى ما يشبه فلسفة حياة متكاملة ، هي في النهاية وعلى مر قرون متطاولة من صنع الاجيال العربية ، وصورة لها .

٤ (٤)

انتهينا الى ان النموذج الجحوي في مصر ، لم يكن جديدا عليها بأسلوبه وتعبيره الذي يجنح الى التحامق والتهكم والسخر ، وانتهينا كذلك الى انه نموذج عربي وفد اليها ، شأنه في ذلك شأن النموذج التركي نصر الدين ، وأن الوجدان الشعبي ، قد مزج بين النموذجين ، في نموذج ثالث هو ما أطلقنا عليه جحا المصري أو

بالاحرى النموذج الجحوي في مصر ، وقد أضاف اليه الشعب المصري الذي يجمع بين الذكاء اللماح والتهكم الساخر ـ تجربته العريقة والعريضة في هذا المضمار ، كما ذكرنا أن هذا النموذج هو الذي شاع في العالم العربي ، بفلسفته وأسلوبه في الحياة والتعبير ، دون أن ننكر ما اضافته كتب التراث ، أو ما كان من وحي الابداع الشعبي العربي ، في بيئاته العربية ، وهو ابداع متجدد دوما ، لا يثرى التجربة الجحوية ـ ان صح التعبير ـ فحسب ، بل يثرى الرمز الجحوي ويجعل منه شخصية فنية وشعبية موصولة الحياة .

وقبل أن نشرع في تحديد ملامح هذه الفلسفة الجحوية ، نرى لزاما أن نشير الى تلك العلاقة الوثيقة بين النمط الجحوي والشخصية المصرية ، ذلك أننا من خلال ابراز تلك العلاقة ، سوف نشير الى ما هو أهم ، الى دراسة فلسفة الضحك ، وسيكلوجيته ودوره في حياة الافراد والشعب على السواء .

لقد ذكرنا من قبل أن مما له دلالته أن الروايات الخاصة بالواقع التاريخي لهذه الشخصية الجحوية أساسا أو ما يشبهها كما سبق أن وضحنا بالتفصيل عند دراسة الواقع التاريخي للنموذجين العربي والتركي ، بل لعل هذا كان مبرر العناء الذي بذلته في دراسة الواقع التاريخي للنموذج الجحوي بعامة ـ يكاد ينحصر في العصور التي يشتد فيها الصراع بين قوميتين أو أكثر أو التي يتحول فيها نظام الحكم من دولة أخذت في الافول الى دولة اخرى تستكمل مقومات السلطان والمكانة ، وفي مثل هذه الظروف ـ كما سنرى ـ تبرز المتناقضات في النظم الاجتماعية ، والعلاقات الانسانية ، وردود الفعل النفسية ، وحيث تختلط القيم والمعايير والمعتقدات ، الجديد منها بالقديم ومن ثم لا يثبت ابناء الشعب على قيم ثابتة ، ولا يأمنون على حال متواتر ، ومن ثم رجحنا ظهور جحا العربي في مغرب الدولة الاموية وفجر الدولة العباسية ، حتى لو لم تمدنا الادلة التاريخية بما يؤكد رأينا ، وكذلك ظهور

جحا الاتراك « نصر الدين خوجة » في اواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر الميلاديين ، حيث الصراع الدموي العنيف الذي شهدته بلاد الاناضول بين تيمور لنك وجيوشه ، وبين الترك السلاجقة ، والعثمانيين من جهة اخرى ، ثم ذلك الصراع بين السلاجقة والعثمانيين انفسهم ، وكذلك بدء ظهور النموذج الجحوي ـ باسلوبه ـ في مصر الاسلامية التي بدات تشهد ذلك الصراع السياسي والمذهبي منذ ايام الطولونيين والاخشيديين ، وكذلك رجحنا تكامل النموذج الجحوي في مصر واشتهاره ـ باسمه وفلسفته ـ اثر الفتح العثماني لمصر والعالم العربي في القرن السادس عشر ... ، ومن ثم كان وجود النموذج الجحوي في مصر ضرورة تعبيرية لتصوير هذا الواقع والتنفيس عن مرارته ونقده . ولعل هذا يقودنا الى بسط الخلفية التاريخية والاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية ... وانعكاس ذلك على الوجدان القومي الشعبي ، ودرجة استجابته لتلك الظروف ، وكيف تأثرت واثرت في المزاج المصري تبعا لذلك لنطمئن في النهاية الى سبب انتخاب هذا الوجدان لجحا رمزا تعبيريا ومن ثم بيان وظيفته ومدى توافقها مع الشخصية المصرية ، ولن نسعى في دراستنا او تحليلنا ـ للشخصية المصرية ـ هنا ـ بمفهومها القومي العام ، بقدر ما هو ابراز لبعض جوانبها السياسية والاجتماعية ، وتسجيل لبعض أبعادها التي نرى فيها عاملا رئيسيا على انتخاب النموذج الجحوي رمزا للتعبير عن هذه الشخصية كما نرى انها تلقى بعض الضوء على تفسير فلسفة هذا النموذج في الحياة ومواقفه منها .

الخلفية السياسية وعصور الانتقال ..:ـ

منذ ان فقدت مصر استقلالها تحت وطأة الغزو الفارسي منذ « قورش » و « قمبيز » فالغزو الآشوري والبابلي والنوبي ، فالاسكندر حيث تحولت مصر في عهده الى ولاية اغريقية بطلمية ، ومنذ ئذ ازمن الاستعمار الاجنبي والسيطرة الخارجية على مصر ..... حتى قال عنها المقريزي في يأس وتخاذل ..: « وهي

لمن غلب » (١) وقد ذهب الكثير في تفسير طبيعة الامة المصرية في ضوء هذه الخلفية السياسية او التاريخية الى انها أمة لا تحكم نفسها ولا تبالي غارة الاجنبي عليها ، وبغض النظر عن هذه الدعوى الانهزامية ، فالذي نود ان نشير اليه : هو ان نذكر شيئا عن الخلفية السياسية لمصر الاسلامية وبيان ما تزخر به من تناقضات حيث بدأ ظهور النموذج الجحوي المصري : اننا لسنا في حاجة الى بيان ذلك الصراع الرهيب الذي مارسه الفاطميون في تثبيت مذهبهم الشيعي في مصر ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وبدعهم ولسنا كذلك في حاجة الى بيان ذلك الصراع بين أهل السنة متمثلا في الايوبيين وبينهم ، ويتكرر نفس الصراع بين الايوبيين والمماليك ثم بين المماليك أنفسهم من ناحية أخرى ، ولسنا كذلك في حاجة لبيان دور مصر في صد الغزو الصليبي والمغولي ، واذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة في أوروبا فقد كانت بداية عهود الظلام على مصر والعالم العربي ... ولقد تحملت مصر أكثر من غيرها معظم اعباء الحروب الصليبية ـ بكل ما تعنيه هذه الحروب من الناحية النفسية كذلك ، وقد خرجت بعدها فقيرة منهوكة القوى بطبيعة الحال ، وقد شاءت الظروف أن يتحيف مقدرات الامور في مصر المماليك واشباههم ممن كانوا يجيئون الى مصر عبيدا . فيفتكون بأبنائها ويصبحون هم الامراء .. كانوا يساقون اليها مماليك ، فلا تمضي عليهم فترة حتى يصبحوا ملوكا لها ، وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم في مصر ـ على عهد اغلب أمرائهم ـ الذي عاشت مصر في مجاهله قرونا طويلة ... كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم على نصيب كل منهم في الغنيمة . ان كوارث العصر المملوكي انما حلت بالشعب المصري في أواخر هذا العصر ، على وجه الخصوص ، بعد فترة استقرار نسبي ، ذلك أن العصر المملوكي لم يكن بهذه البشاعة التي نراها في بعض كتب التاريخ ، وانما كان ـ بالفعل ـ

---

(١) الخطط للمقريزي ج (١) ص ٣٩٢ .

عصرا ذهبيا من الناحيتين المادية والحضارية كما يتمثل في تكتل الثروة وشيوع الرخاء ، وانفجار الحركة المعمارية والفنية والاثرية ، مثلما كان عصرا بطوليا من الناحية الحربية وكانت تلك الثروة الدافقة عنصرا اساسيا في توفير قاعدة مادية ضخمة لها « غير أن هذا الدور انتهى فجأة بدور انتكاسي وانهيار كامل وبقدر الارتفاع الشاهق السابق بقدر السقطة اللاحقة : فقد جاء كشف **طريق الراس** في أواخر القرن الخامس عشر على يد البرتغاليين ضربة قاصمة لمصر حيث سلبت مصر موقعها الممتاز وتركها قبوا مصمتا بعد أن كانت المر التجاري العالمي بامتياز ... وقد بدأ هذا في اخريات عصر المماليك حيث ورث الفقر الرخاء ،وعجزت موارد الموضع عن متطلبات الموقع ـ على حد تعبير استاذنا الدكتور جمال حمدان وبرغم ذلك بقى المماليك على بذخهم ـ مهما تكن الوسيلة ـ على حساب الشعب المصري الذي كان دائما معزولا عنهم ، ولكي يندفع الانهيار الى منتهاه جاء ابتزاز العثمانية بانتظام لبقايا تجارة المرور ليصفي الارث كله ، فجفت شرايين التجارة والدخل القومي في مصر ، وانزلقت الى حمأة من الاتضاع والانحدار المادي والحضاري الكاسف ، وبدأت فترة عزلة كانت مرادفا للتخلف الحضاري ... ويكفي كمقياس أن العاصمة أفلت ، والمواني افلست شرقا وشمالا ، حتى لقد هوت الاسكندرية الى قرية ساحلية آسنة تعدادها ٨٠٠٠ نسمة ، ولولا بقية من حياة المدن في القاهرة لقلنا ان مصر تحولت الى قرية ضخمة (١) كما أن ضياع التجارة قد بدد احتمالات وامكانيات تطور مجتمعنا فقد ترك الاقطاع يخضرم مجمدا في تاريخنا بلا انقطاع حتى قلب العصر الحديث (٢) . »

---

(١) شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، دكتور جمال حمدان ـ كتاب الهلال العدد ١٩٦ يوليو سنة ١٩٦٧ ، ص ١٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠ .

الخليفة الاجتماعية ...:ـ

المتناقضة الثانية في تاريـخ هـذا الشعب متمثلة في حقـه الطبيعي في الحياة حرا كريما وبين الطغيان الاقطاعي الذي قـام على قاعدة عريضة من فلاحين مسحوقين ، ولقد كانت السخرية والسوط والتعذيب من وسائل الارهاب في عهد العثمانيين ، وكانت تتدرج على كل المستويات ابتداء من الحاكم خلال الباشا والعمدة حتى الخفير ـ (ولعل هذا يفسر لنا ذلك العداء التقليدي بـين الشعب والسلطة) ـ تلك جميعا كانت طفيليات بشرية قديمـة ازمنت في كيـان المجتمـع المصري ... ومـا من شك أن هنـاك مضاعفات وعوامل مساعدة ساعدت على استقرار هذا الطغيان حتى غدا قاعدة عامة (١) . من ناحيته السياسية والاجتماعية معا ومن ثم أصبح المجتمع المصري مجتمعا « نمطيا » يلغي « الفردية » ويفرض « التنميط الجمعي » ويفرض التعايش السلمي وغريزة القطيع ، وحول الفلاح النمط الرئيسي في مصر ـ بل أقدم واثبت الشخصيات او النماذج البشرية في المجتمع المصري (٢) حوله الى « وحدة ميكانيكية » مسحوقة . ومما له مغزاه أيضا أن نصوص الاخلاق في مصر القديمة تلح دائما على كلمة الصبر كفضيلة اساسية تتطلبها من الفلاح الفقير ، وهي كلمة يمكن ان نترجمها « بالهدوء والسلبية والسكون والخضوع والمذلة والانكسار » أما الفرديـة العارمة واستقلال الشخصية ونمو روح المقاومة ـ الايجابية ـ والتمرد فلم تعرفها مصر كقاعدة اساسية للمواجهة ، وكم كان ثمن ذلك باهظا يتمثل اول كل شيء في انعـدام روح المبادرة وزمـام المباداة ، فضلا عن روح المغامرة ، وينتهي الفلاح ـ النمط الرئيسي في النهاية الى جهـاز استقبال وخضوع على حـد تعبير أستاذنا

(١) المرجع السابق ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ـ انظر اسباب رسوخ الطغيان في مصر .

(٢) عن الفلاح المصري ـ انظر كتاب « مجتمعنا » للدكتور عبد الحميد يونس ـ الدار القومية بالقاهرة ـ سلسلة اخترنا لك عدد ٢٤ ـ ص ٧٤ وما بعدها .

الدكتور حمدان (١) ، وطبيعي أن هذه البيئة الاجتماعية كانت كفيلة بأن تفرض نوعا مريضا من « الانتخاب الاجتماعي » نوعا يعتبر «انتخابا عكسيا لا يكون فيه للعناصر الأبية أو المتمسكة بحقوقها أو كرامتها نجاح اجتماعي مرموق ، بل الأرجح أن تضاد وتباد ، بينما تفره العناصر الرخوة أو السلسلة المنقادة أو الهلاميات الأخلاقية ــ ولهذا فـان الصفات والمزايـا الاخلاقية التي يجـدر بالبيئة الفيضية ان تعلمها ــ وعلمتها بالفعل أحيانا ــ لم تلبث أن انحرفت تحت البطش والطغيان الاقطاعي وفي ظل انتخابه الاجتماعي المعوج الى نقائضها ، فالنظام والقانـون اصبحا جبنـا واستكانة ووشاية أو سلبية ، وروح التعاون التي تربط السكان أصلا ضد « العنصر » تحولت الى المحسوبية والمحاباة كما انقلبت الى الأخذ بالثأر ، وأما المزاج الانطلاقي (Extravert) الذي غذته بيئة القرية النووية (Intensive State) فتدهور الى تزلف ورياء وسعـي لـدى السلطان وكذلـك الـى روح السخريـة المريـرة المشهورة (٢) . »

ولقد اسهب المؤرخون العرب في سرد هذه الخصائص ــ بما لا يدع مجالا للشك في جديتها فكانت العرب تقول بأسلوب العصر : « قال العقل انا لاحق بالشام ، فقالت الفتنة وانـا معك ، وقـال الشقاء انا لاحق بالبادية فقالت الصحة وانا معك ، وقال الخصب انا لاحق بمصر ، فقال الذل وانا معك (٣) » والمقريزي يذكر من بين الصفات التي تغلب على أخلاق المصريين : «الدعة والجبن وسرعة الخوف ، والنميمة ، والسعي الى السطان .... » ويقول بعد

---

(١) انظر : شخصية مصر ، ص ٥٦ ــ ٥٨ .

(٢) عن مكونات البيئة الاجتماعية ، انظر شخصية مصر ــ جمال حمدان ــ الفصل الخاص بأيكولوجيـة النيل الاجتماعيـة ص ٤٨ وما بعدهـا . وبخاصـة ص ٥٨ ــ ٥٩ .

(٣) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقريزي ــ القاهرة ج ١ ص ٧٩ــ٨٠

ذلك في موضع آخر « ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه » ، « حتى صاروا مضرب المثل فيه بين الأمم » (١)

وكذلك من يعد الى تفحص الاحوال الاجتماعية ـ في العصر المملوكي والعثماني ـ حيث ازدهر النموذج الجحوي في مصر ـ في خطط المقريزي الجزء الاول ، وفي بدائع الزهور لابن اياس يجد ان عامة الشعب لم تكن تتمتع بشيء من الحقوق ، وأن الارض نفسها كانت توزع بين السلطان والامراء والجنود ، اي بين الطبقة الحاكمة كما يروي المقريزي ، ثم تأمل معي كما يقول **الدكتور حسين فوزي** هذه الحسبة البسيطة من صدر الدولة المملوكية في عهد السطان المنصور حسام الدين لاجين ، في أواخر القرن السابع الهجري (سنة ٦٩٧هـ) فان مصر قسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، أربعة للسلطان وعشرة للامراء والاطلاقات ، وعشرة للجند ... وبذلك يكون المجموع اربعة وعشرين فعلا ولكن اين منه نصيب الشعب المصري ؟! أين نصيبنا من خيرات ارضنا ونيلنا وشمسنا ..؟ « انه القيراط الخامس والعشرون ومكانه ... مملكة السماء » (٢) ولقد وصف احد الاجانب في القرن الماضي (سنة ١٨٤٢م) بؤس الشعب المصري فقال : « ذرعت مصر طولا وعرضا ، واحسبني مستطيعا التوكيد بأن الشمس لا تطلع على شقاء او تعاسة أشد ممايوجد بهذه الجنة المصرية (٣)» التي عاش عنها أهلها غرباء .. ولعل من هناكانت نبرة الغربة وغريب الدار ذات مذاق خاص في الوجدان الشعبي المصري وان كان هو في حقيقة الامر صاحب الدار .... « لكن خيرها لغيرها » وقد أدى هذا كله الى أن أصبح الفلاح ـ النمط الرئيسي ـ مغلوبا على أمره يائسا من الحياة نفسها ومحروما من

---

(١) الخطط ج ١ ص ٧١ ، ٧٨ ، ٨٠ .

(٢) سندباد مصري ـ د. حسين فوزي ـ طبعة دار المعارف سنة ١٩٦١ م . القاهرة ص ٢٠٧ .

(٣) السابق ص ٨٨ .

« الحياة الجيدة » ولهذا كان متنفسه الوحيد في « الحياة الجديدة » اي انتاج الابناء .... وكان لهذا نتائجة التي اكدت مرة اخرى فرص الطغيان .... والاستبداد وزادت منها (ولعل هنا يفسر انتشار النكت والنوادر والحكايات والالغاز الجنسية وكثرتها في مأثوراتنا الشعبية) .... ومن ناحية اخرى بحث الفلاح عن التعويض عن الحياة في الحياة الاخرى ، « لهم الدنيا ولنا الآخرة » ... فكان الدين ملاذه وملجاه ومهربه في احايين كثيرة تصوفا ودردشة ... ولهذا لم يكن وضوح النزعة الصوفية في مصر الاسلامية في ذلك الوقت من قبيل الصدفة ، ذلك أن المصريين لم يشعروا بنعيم الحياة ، وان هذه الحالة خلقت في الناس « خشوعا في حياتهم واستعدادا للخضوع لدينهم واملا في نعيم الآخرة بدلا من نعيم العاجلة » (١) ، ولذلك لاذ المصريون بالتصوف وكانت نتيجة طبيعية ان تظهر حياة روحية انعكاسا للحياة المادية ، شجع على ذلك محاربة السلاطين للدعوة الفاطمية ، ومنها تشجيع حركة التصوف كما انتشرت كذلك موجات الزهد في الدنيا « فتحمس الناس لهذا الزهد ، والاسراف في هذا التحمس لم يكن مبعثة الدين وحده على تغلغله في نفوسهم وانما كان مبعثة أيضا هذا الحرمان الذي تقاسية طبقة الشعب عادة ، فيجعلها أكثر تدينا وأكثر قربا من الايمان بما ستعوضها الحياة الأخرى في الجنة السماوية » (٢) وهذا ما دفع بطبقة الشعب الى شيء من الاستعلاء على الحياة وأحداثها ــ من خلال هذه النزعة الصوفية ــ التي اقتربت بذلك من دور الفكاهة التي أثرت عن المصريين في الاستعلاء ..... استعلاء هذا الشعب على واقعة المرير ، والوقوف من احداثه هو موقف المتفرج الذي لا يعنيه الامر ... بعبارة أوضح ... لقد حاول مأساته الى ملهاة بطريق الفكاهة ، كما انصرف عن دنياه الى الأخرة في موجات تصوفه

---

(١) الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول ــ د. عبد اللطيف حمزة . ص ٩٥ طبعة أولى ــ القاهرة .

(٢) الف ليلة وليلة د. سهير القلماوي القاهرة ــ دار المعارف ص ٢٠١ .

وزهده ويبقى الحال منذ فرعون حتى مصر الحديثة والفلاح كما هو بكل صفاته الموجبة والسالبة هو « النتج النهائي » بل الفتات النهائي لعملية « الاختيار الاجتماعي » الطاحنة الطويلة هذه ، حتى أصبح عند الكثير من الدارسين نمطا اجتماعية بذاته هو « نمط الفلاح » (١) .

وخلاصة القول في التناقض الاجتماعي وما نجم عنه ، يتمثل في انه « لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والبطش من جانب ، والاستكانة والزلفي من الجانب الاخر ... هي من أعمق واسوا خطوط الحياة المصرية عبر العصور فهي في الحقيقة النغمة الحزينة الدالة في « دراما التاريخ المصري » ، ولا ينبغي أن نخجل او ان تأخذنا العزة فنهرب او نكابر في هذه الحقيقة ، كما انه من الخطأ أن ندع هذه تترسب في نفوسنا كعقدة تاريخية ، بل لا بد من أن نجابهها بالتحليل العلمي والتشريح الموضوعي لنرى الى اي حد هي ظاهرة ظرفية مؤقتة برغم طول ما أزمنت ، أو الى أي مدى هي نتج طبيعي ـ كما يزعم البعض ـ للمركب البيئي ، وبالتالي جزء لا يتجزأ من مركبنا الحضاري (٢) .

ولن نمضي في ابراز هذه المتناقضات ، فما اكثرها ... ولا الوقوف عند عصور الانتقال فما اكثرها أيضا ، وما يصحب تلك العصور الانتقالية ـ بكل متناقضاتها من قلق واضطراب او حصار نفسي .... ان دراسة « المناخ النفسي للشعب المصري ابان حكم المملوكية (المملوكية الايوبيــة ، فالصالحية البحريــة فالجركسية البرجية) ، يمكن ان يبين لنا كيف كانت الضــرورة ملحة لخلق النموذج الجحوي ـ لمصر العربية الاسلامية ـ او ابرازه ، فكان « جحا العرب ، المحور الاول الذي تلقفته مصر ، ثم كيف كانت مصر العثمانية بمناخها النفسي القائم ، « ولا احسب مصر في

(١) انظر شخصية مصر ص ٦٠ .
(٢) شخصية مصر ـ د. جمال حمدان ص ٤٧ ـ ومجتمعنا ـ د. عبد الحميد يونس ص ٧٤ ، وما بعدها .

تاريخها الطويل عرفت عهدا اظلم من تلك القرون الثلاثة بل الاربعة التي مرت على مصر بعد موقعة « مرج دابق الشام » ، وموقعة **سبيل علان** بمشارف القاهرة » (١) وقد كان الحكم في مصر المملوكية عامة والعثمانية خاصة حكما استبداديا قويا وهذا الاستبداد يخلق في الشعب نوعا من الحذر المريب الذي يفضي الى الجبن ، حيث تكامل النموذج الجحوي في مصر ذلك ان الشعب المصري « شعب علمه ظالموه الحذر وصون اللسان ، كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المستترة ، ولهذا فهو دائم التندر بالحكام يحذق التلاعب بالالفاظ ولكن الكيل قد يطفح فاذا بالشعب المصري يرفع صوته بالهجاء الصريح احيانا ، وبالتمرد والعصيان في أحايين اخرى .

والواقع ان عصور الظلم الطويلة قد اجبرت الشعب المصري على ان ينتقل من التصريح الى التلميح لتحقيق نوع من السلوك السياسي والاجتماعي المتوازن بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون ... بين الرغبة والارادة ... بين الامل والواقع .

ولذلك كانت الضرورة اكثر الحاحا لابراز النموذج الجحوي ، وصادفت نوادر الرمز التركي « نصر الدين خوجة » التي جاءت مع الغزو العثماني الى مصر هوى في نفوس المصريين ، فتلقف المصريون هذه النوادر « ليضيفوا بذلك رصيدا او تراثا الى نموذجهم العربي السابق ، على نحو ما ذكرناه من قبل .

توافرت اذن الثلاثية الاساسية لوجود النموذج الجحوي ـ في رأينا ـ وقوامها : **عصور انتقال** ، ما اطولها وما أحفلها بالمتناقضات الاجتماعية والنفسية ، **وقهر عسكري** دخيل ضاغط ، وحروب مستمرة ، **وطغيان اقطاعي مستبد** ... تلك هي الثلاثية الاساسية التي سعينا الى تأكيدها من وراء تلك الخلفية التاريخية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والنفسية لمصر العربية ، ومن

(١) سندباد مصري ـ د. حسين فوزي ص ٣٤ .

ثم كان اقبال الوجدان الشعبي المصري على نوادر الرمز الجحوي بعامة في غمرة القهر العثماني . وليس من شك في ان تلك الثلاثية ـ الملازمة للوجود الجحوي ـ تدفع بدورها في حالة فشل المواجهة الى هاوية يأس ممرور ، وحافة استسلام مقرور ...

٥

ان استجابة الشعب المصري ازاء هذه المحن والرزايا التي بلي بها مكنت الشعب المصري أن يجاوزها جميعا الى حيث الحفاظ على ذاته ، ودون ما خوض في ذكر النظريات أو الاراء التي حاولت تفسير عظمة الشخصية المصرية وتجاوزها هذه المحن (١) ، فهذا ليس بهدف لنا بقدر ما هو معرفة كيف تمثلت المقاومة نفسها عند الشعب المصري ، وكيف عبر عنها في مأثوره الشعبي عامة ... والحكاية الشعبية المرحة خاصة ...؟

لكن مما لا شك فيه ان تلك الثلاثية ، التي كان جحا المصري بالضرورة نتجا طبيعيا لها ـ قد تركت آثارها على الشخصية المصرية سلبا وايجابا (٢) ... والحقيقة انه ما من فرصة سنحت امام الشعب المصري للثورة والتمرد الا وكانت ملاذه (وكامثلة لهذه الثورات في مصر الاسلامية وحدها : **ثورة البدو** في عهد الظاهر بيبرس سنة ١٢٥٣ م ، **وثورة الهوارة** في الصعيد سنة ١٢٥٣ م . وثورة **عبيد القاهرة** سنة ١٣٦٠ م كما ذكر المقريزي في السلوك ، **والثورة التي حدثت في عهد قلاوون** ، والتي ذكرها ابن بطوطة في رحلته ، **وثورة ابن الفلاح المشعشع** ١٤٥٣ ـ ١٤٥٧ م ، **وثورات**

---

(١) مما قيل في تفسير ذلك : بأن مصر تملك ملكة الحد الاوسط ... انظر د. جمال حمدان شخصية مصر . أو ان مصر بلد صناعتها الحضارة والسلام ... انظر د. حسين فوزي ، سندباد مصري أو أنها امة حضارة : وعقائد .. فقط .. ، انظر للعقاد (سعد زغلول ، سيرة وتحية) .

(٢) انظر في هذا التفصيل كتاب : « الطابع القومي للشخصية المصرية بين الايجابية والسلبية للدكتور عبد العزيز رفاعي ، دار النهضة العربية سنة ١٩٧١ م » .

الحرافيش والذعر في القرن الرابع عشر ، ولعل مما له دلالته ايضا ، ان هذه الثورات جميعا ، وغيرها ، من المقاومات الشعبية لم تخل أحداثها من مظاهر فكاهية أيضا (١) .

لكن هذه الثورات ـ لسبب او لآخر ـ كانت دائما تفشل . ومن ثم كان يعقبها احباط وخيبة أمل شديدة ـ حتى بات أمر الثورة كأنه شيء من العبث ان لم يكن العبث بعينه ، وكأنما ـ هذا الفشل ـ كان سياقا مطردا لا فرجة فيه ، مما ادى الى ما يشبه الاستسلام والركون الى اليأس ، فانعدمت روح الثورة والتمرد على الامر الواقع ... حتى امر الثورات المحلية الصغيرة ـ في الوجه القبلي بخاصة ـ وكان يكتب لها النجاح الى حين كان هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة ويؤكدها ومن ثم (ترددت تلك النبرة في كثير من مردداتنا الشعبية كذلك حيث ظل الشعب ينتظر الخلاص ، والغوث ، والانقاذ ، من عل ... من خارجه .. ولذلك كانت الحاجة ملحة ـ حرصا على بقاء الذات العامة الى نوع آخر من المقاومة يعرف « بالمقاومة السلبية » .

لقد خرجت مصر من محنها محتفظة بشخصيتها ، ولم تذب ابدا في غيرها ، والمقاومة السلبية (بصرف النظر عن استمراء الشعب المصري لهذا اللون من المقاومة أحيانا والتي لم تكن لتغير من الواقع المؤلم شيئا فانه ايضا لم يكن ليملك غيرها) قد اتخذت في مصر عدة أشكال منها الاعتصام بالدين ومن ثم لم يكن غريبا أن تكون مصر اول من عرف « الرهبنة » في المسيحية ، و (التصوف) في الاسلام ، ذلك ان مصر بالفعل أول من تأسست فيها حركة التبتل ، والرهبنة والانفراد للتعبد منذ عهد الاسرات ، وشيوع حركة التصوف وظاهرة الدروشة في مصر الاسلامية (٢) .

---

(١) انظر ابن اياس ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور والجبرتي ـ تاريخ الجبرتي .

(٢) لا ننسى أن جحا الترك كان عالما من العلماء المصوفة ، مباركا ، كما كان جحا العربي ، محدثا ، عالما فقيها ، ووليا صالحا تردد اسمه بين رجال التصوف الاسلامي ، كما تلتمس منه البركات ، وكذلك كان جحا المصري .

ففي عصر المماليك « المشحون بالوقائع والاحداث ظهرت الموسوعات العربية الكبرى فيما يشبه عملية اجترار لتراث الماضي أمام عجز الحاضر وفقره ، وبرز أعلام الصوفية الذين لم يجتمعوا في بيئة أو عهد كما اجتمعوا في القرن السابع الهجري : ظهر السيد احمد البدوي ، ابراهيم الدسوقي ، أبو الحسن الشاذلي ، وأبو العباس المرسي ، والدريني ، وابن الفارض وغيرهم ... (١) » .

ومن اشكال المقاومة السلبية الرئيسية : الافراط في المجون من ناحية ، والافراط في الفكاهة والنكتة والتندر والسخر من جهة اخرى ، كنزعة من نزعات التمرد على الواقع والهرب منه ، وعلى الرغم من حزم السلطان الظاهر ببيرس ــ مثلا ــ ومحاولة الوقوف أمام تيار المجون فان البيئة التي اثقلتها الحروب ضد الصليبيين والتتار ، نفست عن نفسها بالفكاهة والخلاعة والمجون ، وحفر بعض الادباء المتحامقين أسماءهم بين نوابغ المبدعين ، ولا تستطيع ذاكرة التاريخ الادبي أن تنسى ابن دانيال وابن سودون واضرابهما ... (٢) .

ويمكن أن نقول أن الاعتصام بالدين ــ فيما يشبه النزعة التصوفية ــ ، والاعتصام بالفكاهة والمجون وجهان لعملة واحدة تتمثل قيمتها في : « رفض » الواقع و « التمرد عليه » ، واعلان السخط عليه . ولربما كانت النكتة المصرية والنسك المصري أمرين توامين أو صنوان ، فالنفس المصرية التي ارهفتها الحضارة ، وصقلتها المعيشة المنظمة لن تفتقر الى ملاذ تسكن اليه كلما اشتد بها الجور ، فاذا غلبت على المصري محنة النقمة ، فملاذه النكتة والفكاهة يروح بها عن نفسه ، ويجنح الى السخر ، واذا ما غلب عليه الحرج يلجأ الى الصبر على الفساد ويجنح الى النسك والزهد

---

(١) د. عبد الحميد يونس في مقدمة لكتاب « الادب العامي في مصر في العصر المملوكي » تاليف احمد صادق الجمال ــ الدار القومية سنة ١٩٦٦ .

(٢) السابق

والدروشة ... أما اذا سنحت فرصة التمرد فالثورة ملاذه ... بعبارة أخرى بقدر ما كانت النكتة تعبيرا عن الشعب وما يجيش في ضميره في ظروف معينة ، كان النسك تعبيرا عنه في ظروف أخرى ...

ولم يكن من المقبول او الطبيعي ان يتحول الشعب المصري الى شعب من الدراويش والنساك ، فانه قد أبقى على الوجه الاخر للعملة ، استجابة مع اتجاهاته النفسية وحالته الوجدانية ، واستجابة مع ما يتمتع به من حس فكاهي أو « روح الفكاهة » التي امكن بمقتضاها ـ الشعب المصري ـ ادراك العناصر الفكاهية في شتى المواقف المضحكة أو المؤلبة ، فقد اتسمت المقاومة المصرية بالسخر والتفكه والتندر حتى غدت الفكاهة سمة ثابتة ورئيسة من سمات الشخصية المصرية ... « ونرى مصداق ذلك فيما اثر عن الشعب المصري من كلف شديد بالنكتة الساخرة ، يرسلها في اعصب وقت واحرج موقف ، واحلك مناسبة (١) .. » وان اشد الناس بؤسا واسواهم عيشة ، واقلهم مالا ، واخلاهم يدا اكثر الناس نكتة ... كأن الطبيعة التي تداوى نفسها بنفسها رات البؤس داء فعالجته بالنكتة دواء (٢) .

ولعل هذا ما حفز ابن خلدون في مقدمته ان يقول لما عايش اهل مصر انه « لحظ ميل أهلها الى الفرح والمرح والخفة والغفلة عن العواقب (٣) » « أو كأنهم فرغوا من الحساب » (٤) .

وقد اثر هذا بطبيعة الحال في الزاوية النفسية التي يقف منها المصري نحو أحداثه ... اذ اضطرته هذه الاحداث التي تعرض لها الى الخروج النفسي منها و « الاستعلاء عليها بالفكاهة والتندر

---

(١) مجتمعنا ـ دكتور عبد الحميد يونس ص ٣٢ .

(٢) احمد امين ـ قاموس العادات والتقاليد الشعبية ص ١٠ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق علي عبد الوحد عبد الوافي ص ٤٩٢ .

(٤) المصدر السابق .

والسخر ، وكأنها احداث لا تقع له ولا تحيق به ، وانما يتعرض لها غيره ممن لا تربطه بهم مشاركة وجدانية ما ... واصبح الشعب اوفى الى المتفرج على الاحداث منه الى الواقع فيها والعامل على التخلص منها . (١) وهو الدور الذي صدر منه جحا في تعبيره وسلوكه جميعا » .

وبعبارة اخرى لا نستطيع ان ننكر ان ما تعرض له المصري ـ طوال تاريخه ـ من خوف وكبت وحرمان ، وتكرار فشل قد عاقه في النهاية عن تحقيق شخصيته تحقيقا ايجابيا ، فضلا عن الوقوف من الحياة ذاتها موقف المتفرج عليها والمتندر بها ، والساخر منها ـ ربما خشية الذوبان ، وربما اللامبالاة ـ ليس ذلك فحسب بل دفعته الاحداث كذلك ـ وهو الشعب العريق في التاريخ ، والشعب المعلم للحضارة ـ الى شعور عميق بالحزن لدرجة أضحى معها الحزن سمة اصيلة من سمات الشخصية العربية عامة والمصرية خاصة ... ، وخاصية من خصائص حياة الانسان المصري فأغلب تقاليده وعاداته ، وطقوسه ترتبط بالتعبير عن الحزن ، وتشير الى أن المصري ـ برغم ما قد يبدو عليه من سعادة ـ يشعر في أعماقه بالاكتئاب الذي هو طابع مزاجه العام (٢) ... « والملاحظ ـ بالفعل ـ أن المصري يشعر بالقلق اذا هو استمتع « خلسة » بالحياة ولو للحظة ، ولهذا كانت هذه العبارة التقليدية « اللهم اجعله خيرا » التي تتردد حين يشعر المصري أن « أفرط » قليلا في الضحك ، وكأن الضحك استثناء يثبت القاعدة ....

وليس من شك في أن هذه الخلفيات المتعددة للشخصية المصرية قد تركت بصماتها على الوجدان المصري الذي لاذ بالفكاهة عامة ملجأ أو مهربا أو مخرجا ... أو متنفسا ؛ ولهذا اجمع

---

(١) مجتمعنا ـ الدكتور عبد الحميد يونس ص ٧٧ .

(٢) د. عزت حجازي ـ مجلة الفكر المعاصر ـ العدد ٥٠ ـ ابريل سنة ١٩٦٩ م ص ٤٨ .

دارسو الشخصية المصرية على مدى تمتع الشعب المصري بالحسن الفكاهي ـ وما يتبع ذلك من سرعة بديهة ، وقدرة على الملاحظة .... الخ ، والحق أن الابتسام والضحك والبشاشة والمرح والفكاهة والدعابة والسخر والهزل والنكتة والملحة النادرة والكوميديا ان هي الا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها انما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة ـ في مصر ـ وقد يئست من حياة الجد والصرامة والعبوس ـ والحساب على حد تعبير ابن خلدون ـ فالتمست في اللهو ترويحا عن نفسها ، وبحثت في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها وسعت عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي اثقل كاهلها كثيرا .. ان لحظات اليأس هي المهد الطبيعي لتفجر الضحك واللهو . ومن ثم قال بعض الفلاسفة ـ **مكدوجل** : « ان الضحك استجابة للالم لا للسرور ، لان مفتاحه هو المواقف التي تسبب لنا الضيق او الكرب أو الالم ان لم نضحك (١) » ، وكما يقول فولتير : « ولو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس انفسهم (٢) » ، ان ما عاناه المصري من الم وما تعرض له من تسلط قد اكسبه صلابة واصرارا على الاحتمال وبعث فيه رغبة التمرد والثأر ، ولكن لما كان المصري عاجزا عن الرد الايجابي المباشر على المتسلطين عليه ومستغليه ، الذين حرصوا دائما على تجريده من امكانيات الرد ـ لظروف تفوق قدرته ـ فقد لجأ الى أساليب سلبية ـ اهمها الفكاهة ـ عبر فيها عن سخطه وغضبه كما سخر من مستغليه ، وبذلك نفس عن احساسه بالضيق والتبرم .... ولسنا نظن أن النكتة بعامة تشغل في تراث أي شعب من الشعوب المكانة التي تشغلها في التراث الشعبي المصري .. وان مضمونها الاجتماعي والسياسي ، ووظيفتها النفسية الانتقامية يلعبان دورا لا يستهان به في تخفيف الالام الكثيرة ، حيث تتدخل العوامل النفسية ـ عن طريق الضحك لانكار هذا الواقع المر ، وتخفيف وطأته ...

---

(١) انظر : سيكلوجية الضحك . للدكتور زكريا ابراهيم ص ١١٣ . القاهرة .
(٢) السابق ص ١٠٦

لهذا لا غرو ان يقال ان الشعب المصري ضحوك استجابة لآلام كثيرة ، ومن ثم كانت الفكاهة المصرية ـ في الصراع من اجل البقاء ـ امضى سلاح في عالم غير معقول او مقبول ... ولهذا كانت المقاومة المصرية ـ غالبا ـ ما تأخذ شكل الابتسامة الساخرة ، نعرف كيف نرد بها على متاعب الحياة . لقد جربت مصر الكثير ، وعانت الكثير ، وعلمت بحكمتها أن اعظم المحن سوف تنهار مع الزمن ، وتتفتت ويبقى الجوهر المصري اصيلا وخالدا ، لا تكدره الدلاء ـ وان زادت مرارة التجربة من حكمته وحنكته فكأن لسان حاله يقول « اصبر على جار السوء ، يا يرحل يا تيجي له مصيبة » .

وليس من شك في أن الروح الفكاهية التي تمتع بها المصريون او اكتسبوها كرد فعل او استجابة حتمية لواقعهم قد خففت الكثير من متاعبهم ، بل حفظت عليهم وجودهم ، « فما تحملوه من ضغط الاف السنين ، كان يكفي للقضاء عليهم لولا روح الفكاهة (١) » .

واذا كان اغلب الدارسين قد اجمعوا على ان الشخصية المصرية شخصية **لا مبالية** فان اللامبالاة صفة مكتسبة هنا ، وليست فطرية ... بل هي أخطر ما اكتسبته الشخصية المصرية من واقع ظروفها ، سواء على المستوى الفردي او الجمعي . فاذا كانت حركة الثورة تمثل قمة النشاط الانساني من اجل تغيير الواقع ، فاللامبالاة ـ بطبيعتها ـ عاطفة سلبية مضادة للحركة ، واللامبالاة أو عدم الاكتراث ظاهرة تنشأ في لحظات التحول الحضاري ، كما يقول الدارسون .

---

(١) احمد أمين ـ فيض الخاطر الجزء الثامن الطبعة الاولى ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠ م ص ٢٢١ وما بعدها .

واللامبالاة او عدم الاكتراث ـ كما يقول برجسون ـ (١) الوسط الطبيعي للفكاهة والتندر والسخر والتهكم . وتبدأ اللامبالاة عادة من فتور الحماس ، وتمر بطريق الاحساس بأن اي شيء يساوى كل شيء ، أو لا شيء على الاطلاق أو وفقا للتعبير الشعبي الشائع « كله محصل بعضه » « وكله عند العرب صابون » وكما نسب الناس الى سعد زغلول قوله « مفيش فايده » كما يتردد في امثالنا وتعبيراتنا الشعبية .

ان علاقة الشخصية المصرية بالضحك يمكن ان تزداد وضوحا اذا ما أشرنا الى الدلالة الاجتماعية للضحك باعتباره ظاهرة سيكوسوسيولوجية ، فلو انعمنا النظر في الموقف الفكاهي ـ عند الشخصية المصرية ـ لتبين لنا بوضوح أن الوظيفة الاولى التي يقوم بها ، انما هي تخفيف اعباء الواقع عن كواهلها ، وتخليصها الى حين من بعض تبعات الحياة ... لقد كان جنوح الشخصية المصرية الى السخر هو « الثار السلمي العادل أو الجزاء الاجتماعي الذي فطنت اليه الشخصية المصرية من اجل المحافظة ـ وبهذه السخرية نفسها ـ على صميم كيانها الاجتماعي ... تعبيرا جادا عن حيوتها في وقوفها صفا واحدا ضد واقعها عامة ، والاجنبي خاصة حتى لا تذوب فيه ، فالضحك ـ نوع من القصاص ـ كما يقول برجسون فهو يجعلنا نحاول أن نظهر بما ينبغي أن نكون .. (٢) . ومن ناحية اخرى فاللذة الكبرى التي وجدها الشعب المصري في جحا ـ او في الشخصية أو النمط الجحوي رمزا (شرطيا) للضحك والفكاهة والدعابة ـ انما ترجع في الجانب الاكبر منها الى هذا الشعور » بالتحرر من الواقع ، والتحلل من الحياة الجدية ، عن طريق الهزل والتفكه والمزاح ... ونظرا لما في المواقف الفكاهية من انكار للواقع أو تجاهل له ، فقد ذهب

(١) الضحك ـ ترجمة سامي الدروبي ، وعبد الله عبد الدايم ـ دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٨ م ـ ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) الضحك لبرجسون ص ٢٢ .

بعض علماء النفس ــ فرويد ــ الى ان الفكاهة تقوم في حيـاتنا النفسية بدور او وظيفة تشبه الى حد ما وظيفة اللاشعور (١) « فيصبح الواقع لا واقعا وكأن لا وجود له ــ لهذا الواقع ــ وهذا هدف اخر من اهداف الفكاهة وأسبابها في آن واحد ، والحق ان النمط الجحوي قد القى ــ بكل ما يتميز به وبخاصة في حمقه وتحامقه ، وتناوله للامور من أقرب الزوايا في فجاءة وبسـاطة ، لم يتعودها الناس من طول ما عانوه ــ ستارا من اللاواقعية ومـن ثم رفع من الحياة همومها بما فيها من جدية ــ كما هون من عبء الحاضر على الشخصية المصرية التي اكتشفت بفطرتها ذلك فيه ، وبذلك حافظت الشخصية المصرية على شيء من تماسكها طوال عصور القهر ... » فاحدى الوظائف الاساسية للضحك انه : « الترياق الواقعي من التماطف أو المشاركة الوجدانية (٢) » .

وقد يكون من المفيد هنا ان نؤكد تلك العلاقة الوثيقة ــ بين الفكاهة وبين حالات القلق او الحصر النفسي (Anxiety) اذا اكدوا انها ــ اي الفكاهة ــ تقوم بدور « الفيلسوف الساخر » الذي يلقى جلائل الامـور بروح الهـزل والاستخفاف او بـروح الاستهانة وعدم الاكتراث ، وانكار الواقع كما اظهرنا على ذلك فرويد في بحث قيم له عن الفكاهة ظهر سنة ١٩٢٨ ، وفي هـذا البحث نرى صاحب مدرسة التحليل النفسي يستعين بنظريته في « الانا الاعلى (Super Ego) فيقرر أن « الانا » (Ego) قد يتخذ فيحالات الضيق أو القلق أو الحصر النفسي وجهة نظر « الانـا الاعلى » ومن ثم فانه قد يجنح عن هذا الطريق في أن ينظر الى هموم « الانا » العادية ومشاغلها الطبيعية بشيء من التحرر الرواقي « الذي لا يخلو من نبل وسمو (٣) ، ولكي يدلل ــ فرويد ــ على

---

(١) سيكلوجية الضحك ــ د. زكريا ابراهيم ص ١٠٦ .

(٢) انظر سيكلوجية الضحك ــ د. زكريا ابراهيم ص ١١٤ .

(٣) نقلا عن المرجع السابق ص ١٣٠ وما بعدها .

صحة نظريته نراه يهيب ببعض الامثلة الموضحة فيروي لنا بعض نوادر المشنقة (Gallows) وهي نوادر تلتقي ببعض نوادر جحا مع أبي جعفر او مع أبي مسلم او مع تيمور حينما يتجاهل جحا الخطر المحيق به تجاهلا تماما ، وينكر الواقع والحقيقة تماما ، ويستخف بهيبة الموقف .

على كل حال . . . ما من شك في ان الفكاهة تلعب دورا هاما في حياة الناس (بانكارها الواقع واستبعاد الالم) وان الانسان قد زود بامكانيات هائلة للتهرب من فرط الالم ، من السكر الى الوجد الصوفي الى الامراض العصبية الى الضحك .. .الخ . فان الفكاهة تحرر الانسان من هذا الالم المفرط وتعيد اليه صحته وتوازنه النفسيين ولو مؤقتا ، فلا شك ان الفكاهة الساخرة ـ التي يزخر بها الادب المصري عامة والشعبي خاصة من مستبديه ومستغليه ، كانت تحفظ له هذه الصحة النفسية او « التوازن النفسي » ، وهذه الشخصية السوية التي تتالم افظع الالم ـ خلال فترات الانتقال وما اكثرها ومما تحفل به متناقضات وقلق وحصر نفسي ، ولكنها لا ترفض رغبتها في رفض هذا الالم ، وتمزيقه بالنكتة وفضحه باللسان ، حتى غدا ذلك اسلوبا مميزا للشخصية المصرية « اسقطه » على نموذج جحوي وباسلوب جحوي . فدائما نجد مصر حين يجثم على صدرها كابوس تنفس عن همها بالفكاهة الساخرة على نمط ما فعل أحد علماء القرن الحادي عشر الهجري وهو : يوسف الشربيني في كتابه : « هز القحوف » واضرابه كابن سودون ، وسيبويه المصرى وابن مماتي وغيرهم كثير يزخر بهم الادب المصري الرسمي ، والعامي ، والشعبي وبخاصة في السير الشعبية . وقد كانت نوادر هؤلاء تعكس دائما ـ في عصور الظلم ، وفترات البؤس والقهر ـ تطلعات الشعب المصري الى واقع افضل ومعقول .

الباب الثاني

فلسفة النموذج الجُحَوِيّ

١

جُحَا وَالنقد السِّيَاسِيّ

« السلطة ـ القضاء ـ الامن »

ذكرنا من قبل ان الشخصية الجحوية ارتبطت ـ من حيث الواقع التاريخي ـ بالعصور التي يشتد فيها الصراع بين قوميتين او اكثر ، أو التي تتحول فيها نظم الحكم من دولة أخذت في الافول الى دولة اخرى تستكمل مقومات السلطان والمكانة ، حيث تبرز في مثل هذه الظروف التناقضات في النظم الاجتماعية والعلاقات الانسانية والمواقف النفسية ... وفي ضوء هذه المتغيرات ، وما تفرزه من متناقضات وما تفرضه من معطيات جديدة ـ ولا سيما في عصور الكبت السياسي والقهر العسكري ـ ينمو الباعث الاخر ، على انتخاب الرمز الجحوي وهو محاولة الشعب التغلب على تلك التناقضات من ناحية أو مقاومة الانحراف والتسلط من ناحية اخرى ، والحرص في الوقت نفسه على عدم الذوبان في الظروف ، ومن ثم لا غرو أن تتخذ هذه الشخصية موقفا من اثنين ... : ـ

الاول : ـ عدم الاكتراث بالظاهر من الامور والاعتصام بنزعة صوفية تجعل الفرد ومضه في كون لا أول له ولا اخر ، ولذلك غلبت نزعة عدم الاكتراث بالعادات والتقاليد المتناقضة على شخصية جحا .

والثاني : ـ الاندفاع نحو المجون ، باعتباره نزعة من نزعات التمرد على الواقع ، والهرب منه بالاستعلاء عليه ، وعدم الاكتراث بالقواعد المرعية في السلوك الاجتماعي ، في محاولة للتغلب

على التقاليد المقيدة لارادة الانسان ، والمعوقـة لتحول الحياة الاجتماعية (١) .

ولقد راينا ان هذا الواقع الادبي ، يسانده واقع تاريخي مشترك بين النماذج الجحوية الثلاثة ـ العربي والتركي والمصري وكان لهذا أيضا دلالته الفنية ـ من حيث التعبير ـ حين أدرك الوجدان الشعبي أن المأساة يمكن أن تتحول الى ملهاة ، وذلك أن موقف الانسان من أعباء الحياة ليس هو الذي يحدد الفرق بين البكاء والضحك ولكن الزاوية النفسية هي التي تحدد هذا الفرق ، وكلنا يعلم أن اندماج الانسان في الموقف يضنيه ، وتتضخم ازاءه مشكلاته ، وخروجه منه ـ حين لم يكن منه بد ـ وفرجته عليه يسري عنه ، وقد يضحكه ، وهكذا استطاع جحا ـ الواقـع والرمز ـ ان يكابد الحياة ، وان يضطرب فيها ، وان يخلق من نفسه شخصا اخر بعيدا عن الاول ، يتفرج عليه ، ويسخر منه . وهكذا تحولت المآسي عنده الى طرائف وملح تخفف عنه وتسري عن أفراد الشعب العربي كله تأسيا به ... الامر الذي سلك به في النهاية ، في الابداع الشعبي مسلك الحكماء .

ولهذا لم يكن عبثا ، أو من قبيل المصادفة ان يرتبط الواقع التاريخي بهذا النموذج ، بعصور التحول ، كما ذكرنا من قبل ، ولم يكن عبثا كذلك أن يظل جحا ، في المأثور الشعبي ، مرتبطا بجنكيز خان وتيمور لنك وأبي مسلم الخراساني ، وقراقوش ، وأشباههم من الملوك والحكام ..

ولهذا أيضا ، لم يكن عبثا كذلك أن يربط الوجدان القومي بين نموذجه القومي الجحوي وبين تيارات الحياة العامة ، السياسية والاجتماعيه ... وان يقول على لسانه رايه فيما يدور حوله من أحداث ، وأن يسجلّ باسمه موقفه السياسي ، أو بالاحرى موقفه من السلطة السياسية فيْ عصور البطش والاستبداد ، وقد تمثل

(١) انظر : دفاع عن الفولكلور للدكتور عبد الحميد يونس ص ٢٠٠ وما بعدها .

هذا الموقف تارة في علاقته بالحكم والحكام ، وتارة اخرى تمثل في علاقته بالقضاء والهيئة القضائية ولامر ما كان جحا قاضيا مرة ، ومتقاضيا مرة اخرى ... ولامر ما ـ ايضا ـ كان جحا ـ الرمز ـ هدفا للصوص ، وأن يؤثر عنه في كل هذه طرائف وملح ونوادر ، تشكل في مجملها ـ اسلوبا ووظيفة ـ بابا واسعا م نأبواب النقد السياسي في الادب والحياة . ولهذا لا غـرو أن يستمر احتفاء الوجدان القومي بهذه النوادر الجحوية ـ بوظائفهـا الحيـوية والاجتماعية والجمالية ـ على مر العصور ، وأن يظل معتصما بها حقبا وقرونا متطاولة ، كلما حزبه أمر ، او حفزه موقف ، ولهذا فسوف تبقى نوادره بالنسبة للشعب العربي « صمام أمن وعصا توازن ، ووسيلة تعبير وذوق في آن .. » في تلك المعركة الازلية بين القوة المستبدة والحق الاعزل . ومما له مغزى في هذا المقام ، ان الرمز الجحوي لن يلتقي أبدا مع حاكم عادل ..

والان نلتقي مع الرمز القومي الجحوي في علاقته بالاشكال المختلفة للسلطة السياسية .

اولا : ـ جحا والسلطان ...

تعد نوادر الرمز الجحوي ، مع السلطان ، تجسيدا حيا وفعالا لكل ما تمور به عصور الظلم والاستبداد ، من بطش وقهر وكبت وخوف ... ، وهي من هذا المنظور انما تعكس لنا الرؤية القومية الرافضة لكل قوى الظلم والعدوان ـ وجلهم تيمور ـ كما انها في الوقت نفسه تحكي لنا المواقف المختلفة للناس . من كل حاكم ظالم ، ومن كل سلطان مستبد ، يستند في حكمه على القوة الباطشة وحدها ... وهي مواقف متناقضة بطبيعة الحال ، منها ما ينطوي على قيم وسلوكيات واخلاقيات سلبية ، واخرى تنطوي على قيم وسلوكيات واخلاقيات ايجابية .

أ ـ الموقف الاول : ـ

وفيه نرى النادرة الجحوية تعكس كل ما يشيع في مثل هذه العصور من مواقف انهزامية وفردية ووصولية ؛ وانتهازية .. الى غير ذلك مما تتسم به دائما تلك الطحالب البشرية التي تعيش في كنف كل حاكم ظالم ، وهنا نرى النموذج الجحوي يسعى الى تعرية هذا النوع من البشر ، او قل تلك الشرانق الخبيثة المحيطة بالحكام ، فيسخر منها ، ويكشف أساليبها واطماعها ووسائلها في الغش والخداع ، ويحذرها كذلك ، من مغبة تعاونها مع السلطة ، لانها آجلا أو عاجلا سينفضح امرها ، كما نراه في الوقت نفسه لا يعفى الناس من مسئولياتهم فيما حل به وبهم ، فيحملهم الجزء الاكبر من المسئولية ، حينما استسلموا للخوف ، واستكانوا له وتهاونوا في الدفاع عن حقوقهم ... وعن الذات العامة ـ الارض والمعتقد والانسان ـ فوقفوا هذا الموقف السلبي اللامبالي ، مما حلَّ بهم ، وهو لذلك طالما يسخر من عجز الناس وجبنهم وريائهم ونفاقهم للسلطة .وبذلك يكون قد جسد لنا في نوادره أسوأ ما في الجانب الانساني لحظة استسلامه للهزيمة .

وقد جاء جحا رمزا لهذه المواقف جميعا ، وشارك في صنعها بل كان بطلا لها ، وقد انطقه الوجدان القومي حينئذ بما يدور في خلده وضميره ـ حين عز القول ـ نحو حكامه ـ واغلبهم تيمور ، حتى أن أحد الباحثين راى في جحا « صورة لفردية عصر الاستبداد والانتهازية التي تتسم بها كل العصور الظالمة ، فنجده يستخدم ذكاءه لانقاذ نفسه من براثن السلطان ، وهو بهذا السلوك المشين صورة لعصره ، صورة للانماط والفردية ، والوصولية والانتهازية والانانية والانهزامية » (١) ، وهي رؤية قاصرة ومحدودة للنموذج الجحوي . لم يستطع خلالها هذا الباحث ، أن يكشف عن القيم الايجابية التي تنطوي عليها نوادر الرمز الجحوي بعامة .

---

(١) محمد ابراهيم ابو سنة ـ فلسفة المثل الشعبي . ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

وتذكر كتب النـوادر ان أول لقاء تم بين تيمورلنك وجحـا كان حينما استولى تيمور على بلاد الاناضول وراح يحضر علماء البلدة وفضلاءها ويسألهم : اعادل انا ام ظالم ... ؟ فان اجابوه « انك عادل » ذبحهم ـ وان قالوا انك ظالم قتلهم ، فضاق ذرعهم ، فجاءوا يقصدون الشيخ « نصر الدين » لما اشتهر به من الاجوبة السديدة الحاضرة ـ وقالوا له : لا ينقذنا من شر هذا الظالم غيرك ، فافعل وانقذ عباد الله من سيف نقمته . فأجابهم ان التخلص من هذا الرجل ليس بالامر الهين كما تعلمون ، ولكن ارجو ان اوفق الى ما تطلبونه وبكل حيطة جاء الى قصر تيمور لنك، فأعلموه انه قد حضر من يقدر أن يجيب عن سؤالك ، فأحضروه امامه واورد عليه ذلك السؤال ، فأجابه الشيخ : انت لست ملكا عادلا ، ولا باغيا ظالما ، فالظالمون نحن ، وانتم سيف العدل الذي سلطه الواحد القهار على الظالمين ، فأعجب تيمور بهذا الجواب ، وسر من شجاعة الشيخ واتخذه نديما خاصا له ولم يعد يفارقه مدة اقامته ببلاد الروم . وبذلك وبفضل حكمته وفطنته وذكائه ، استطاع أن ينقذ بلده ومواطنيه من بطش تيمور وبغى عساكره . ويذكر الرواة هذه النادرة ، في مجال فضل جحا وكيف انقـذ بلده ـ لكنه اشار هنا الى مسئولية الناس عن واقعهم وعما حل بهم من بلاء .... حقا لقد كان دبلوماسيا داهية في رده على تيمور . ولكن هل كانت تلك الاجابة تمثل واقع تيمور نفسه؟ على كل حال لم يقف جحا هذا الموقف دائما .. صحيح انه أصبح وسيطا بين قومه وتيمور ، ولكن الى جوار من وقف في وساطته ..؟ هذا هو السؤال . فبعد أن تم لتيمور النصر ، ترك الفيلة التي كانت تتقدم جيشه تسرح في أرض المملكة على هواها . وشاء أن نزل على بلدة جحا فيل ضخم من هذه الفيلة وكأنه استطـاب المرعى فطابت له الاقامة واخذ يعبث في المزارع حتى اتلفها وما ابقى للناس بقية من رزق ، وتجمع وجوه البلدة للتشاور في دفع

هذا الوبال وطلبوا الى جحا ان يتوسط لدى السلطان حتى يامر بنقل الفيل من البلدة ... فابى جحا ، ولكنهم الحوا في الرجـاء فقال جحا : اذا كان لا بد من هذا فلنذهب خمسة معا فنقف بين يدي السلطان صفا واحدا ويقول كل منا كلمة واحدة في الرجاء الذي نتقدم به ، فيقول الاول : فيلكم يا مولانا السلطان ثم يسكت، فيتلوه الثاني : نزل ببلدتنا منذ أمد طويل ، ويرد الثالث : وقد أفسد مزارعنا وأتلف أرزاقنا ، ويقول الرابع : نرجو أن ترحمنا فتأمر بنقله من بلدنا ، ثم يدعو الخامس : أن يمد الله في عمر مولانا السلطان وأن يديم عزه ونصره ، فنرد جميعا مؤمنين على الدعاء . وسألني القوم عن الحكمة في ذلك ، فقلت لهم انني أعرف ان سلطانكم أحمق ، وليس هناك ما يرضى اولئك الملوك الجبارين مثل التذلل واظهار الخضوع ، فاذا ما وقفنا بين يديه جميعا ورآنا من وجوه القوم في رعيته ، دب في نفسه دبيب الرحمة والعطف ، ثم هو لا يستطيع أن يحاسب واحدا منا لاننا جميعا سنشترك في رفع المظلمة ،وبهذا ننجو من غضبه وبطشه ، واستحسن القوم الفكرة ومدحوني بحصافة الراي ورجاحة العقل ، وقصدنـا من فورنا السلطان وبعد أن أبدينا مظاهر الخضوع والخشوع تكلم الاول فقال : فيلكم يا مولانا السلطان ، قال السلطان : ما باله .. ؟ فرد الثاني قائلا : لقد نزل ببلدتنا منذ أمد طويل . فقال السلطان : وما في ذاك .. ؟ وجاء دوري في الكلام ونظرت الى السلطان ، فرايت عينيه تقدحان بالشر ووجهه يتميز من الغيظ فأسرعت قائلا : اجل يا مولانا ، ان فيلكم قد طال عليه الامد في بلدتنا وقد شرفنا بذلك وهو على الرحب والسعة في ضيافتنا ، ولكنه قد اشتاق الى فيلة تؤانسه ، فنلتمس امركم بارسال فيلة اليه . فهدات ثائرة السلطان فجاة ، وانفرجت أساريره ، ثم أمر بارسال فيلة الى الفيل وبمنحي جبة وقاووقا دلالة التكريم وخرجت فاقبل علي أصحابي يلومونني ويقولون : لقد كنا في مصيبة فجئتنا باثنتين . قلت : يا قوم ، هذا شانكم ، اما شاني فانا ادرى به ، ومن يستطيع

ايها الحمقى أن يقول للسلطان فيلكم .. ؟ وهل كان من الخير لي ان اتملق السلطان واحظى بهذه الكسوة العظيمة او او اقول الحق ويعلق راسي على سور المدينة ..؟ (١) .

وقد بين جحا طبيعة أصحاب السلطان وحاشيته فيقول في بيان أو تفسير طبيعة هذه العلاقة بين السلطان وهذه الطبقة : ـ

* اذا قدر الله عليك ان تكون من أصحاب السلطان فاحرص على الا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تحس ولا تحكم ، وعليك دائما ان تكون في مرضاة هذا السلطان بالحق والباطل ـ فاذا رأيته راكبا كلبا فقل له : ما اجمل هذا الاسد : واذا سمعته يقول سخفا فقل له : ما أروع هذه الآيات المحكمات : واذا وجدته يرتكب الطيش والهوس فقل : انه العدل الذي يزن الامور بالقسطاس ... واعلم ان شجرة النفاق ، انما زرعت اول ما زرعت في ساحة الملوك والسلاطين ... وليس أصحاب السلطان وأهل بطانته الا فروع تلك الشجرة . وانما ينال الواحد منهم من الحظوة والرضا على قدر ما يبذل من نفاق ، ويقدم من ملق . هذه حقيقة أعرفها ـ وافهمها ، ولكن مصيبتي اني كثيرا ما أنسى : فقد كنا في يوم في حضرة الطاغية تيمور لنك ـ وكان يجلس على عرشه اشبه بالعتل او كأنه برميل ، وأهل بطانته يجلسون من حوله وابصارهم اليه شاخصة ـ وآذانهم نحوه مرهفة ـ والسنتهم تدور بتسابيح الحمد بذاته والثناء على خصاله وفي مجرى الحديث سأل واحد من البطانة زميلا له : هل لك أن تفيدنا عن مذهبك ؟ فانتفض الرجل من مكانه وتوجه نحو السلطان في ذلة وخضوع وانحناء ـ ووضع يده اليسرى على صدره ـ ورفع اصبعه مشيرا الى السلطان قائلا : السلطان تيمور مذهبي ومعتقدي : فأوما اليه الطاغية بالرضا وهمهم المنافقون من حوله بالاستحسان ، والتفت الي أحدهم وقال: « أما لك أيها الشيخ أن تسأله عن نبيه : وكنت قد نسيت أني في

---

(١) محمد فهمي عبد اللطيف ـ مذكرات جحا ص ٦٦ .

حضرة السلطان ـ واني في القوم المنافقين ـ فصحت مهلا يا أخي ـ فاني عرف أن الرجل الذي يكون مذهبه ومعتقده الطاغية تيمور ـ لا شك في أن نبيه السفاح جنكيز خان (١) ، فكأني به يقول مع القائلين الناس على دين ملوكهم ، فشريعة الغاب هي هي ومحاباة القوى آفة كل العصور والبطش هو هو في كل زمان ومكان ـ ولكن جحا ، لا يعفى الناس من مسئولية ما هم فيه ذلك أنه عندما استولى تيمور على بلاد الروم « الاناضول » واخذ المغول مدينته هاجر سكان البلاد فرارا من ظلمهم والتجأوا الى القرى والصحاري واعتصموا بالجبال وكان جحا وامرأته وولده فيمن هرب ، وبينما شرعوا يذكرون مظالم المغول ـ وطباعهم الوحشية ، اشترك جحا في الحديث فأخذ يعدد ما سيصيب الظالمين من العقاب في الاخرة ـ ويؤيد كلامه بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وبينما هم يتحاورون بذلك وكان يسمعهم خفية درويش مهيب الشكل ذو نظر حاد ، فاندفع اليهم قائلا بصوت جمهوري : كلا أيها الشيخ ، فان ما قرأته من الآيات والاحاديث لا ريب فيه ـ ولكن سيف النقمة الالهية والعدالة الربانية لا يتسلط على من ذكرت ، وانما سلطة الله على أمثالكم ممن نزعت حميتهم ، وضعفت همتهم وقلت غيرتهم وأصبحوا لا اتفاق بينهم ولا اتحاد ، فلما سمعوا هذا الكلام خافوا وذهلوا ونظر جحا الى ذلك الدرويش يتأمله ـ وكاد عقله يطير وتعجب من وجوده ثم تجرأ وسأله : من أي بلاد أنت .. ؟ وما اسمك المبارك ، فصاح الدرويش مزمجرا : أنا داهية ما وراء النهر ـ واسمي تيمور . وما أتم كلامه حتى طار صواب جحا وقال له (متحامقا) : وهل يقترن باسمك خان مان .. ؟ فزأر الدرويش بغضب : أجل ، فالتفت جحا الى من حوله من القرويين وقال : يا أمة محمد : هلموا فصلوا علي « صلاة الجنازة » (٢) .

ونحن نرى أن النادرة تشير الى ظلم المغول وبطشهم ، كما انها

---

(١) انظر محمد فهمي عبد اللطيف ـ مذكرات جحا ص ٦٨ ـ نادرة رقم ٢٢ .

(٢) نوادر جحا الكبرى ص ٢٢٨ ـ برقم ٣٢٥ .

تشير الى جبن جحا ومن ورائه الناس بطبيعة الحال ... حقا انهم ـ في مقاومة سلبية ـ قد لجأوا الى الجبال، واعتصموا بالدين ملاذا في أوقات الحرج ، وبالامل في عقاب الاخرة ولكن النادرة تتناول مضمونا اخر في غاية الاهمية هو بيان مسئولية الناس فيما حل بهم من بلاء ـ كما جاء على لسان هذا الدرويش .. « كلا أيها الشيخ ، فان ما قرأته من الآيات والاحاديث لا ريب فيه ـ ولكن سيف النقمة الالهية والعدالة الربانية لا يتسلط على من ذكرت وانما سلطه الله على أمثالكم ممن نزعت حميتهم ـ وضعفت همتهم وقلت غيرتهم واصبحوا لا اتفاق بينهم ولا اتحاد » .

* وحدث أن أهدى تيمورلنك حمار، فسر به وطفق الحاضرون يمدحونه أمامه وكل واحد منهم يكيل في وصفه والثناء عليه حتى رفعوه الى مرتبة مخلوق عجيب وجاءت نوبة الكلام على جحا ـ فقال : ان هذا الحمار عنده استعداد عظيم لان أعلمه القراءة ، فقال تيمور لنك : اذا علمته شيئا من ذلك فاني افيض عليك بالهدايا والعطايا والنعم ، واذا لم تقدر على ذلك فاني أعاقبك فضلا عن اتهامك بالحمق . فقال جحا : ان الدعوى الباطلة أمامك تعد بلاهة أو جنونا ... ولست بأحمق ... اعطني نفقات كافية وامهلني ثلاثة اشهر ، فلبى تيمور طلباته . وبعد ثلاثة اشهر اقبل جحا بالحمار الى مجلس تيمور لنك ـ وقربه الى كرسي ووضع عليه دفترا كبيرا فجعل الحمار يقلب الصفحات بمشافره ـ وأحيانا يتجه الى جحا وينهق في استعطاف ، فتعجب الحاضرون وسر تيمور لنك من جحا ووهب له جائزة كبيرة ـ وساله كيف علمت هذا الحمار .. ؟ فقال جحا : الامر سهل جدا ، لقد اشتريت مائة رق من جلد الغزال ـ وخططت عليها بعض الخطوط التي تشبه الكتابة ، وجلدتها على هيئة كتاب ـ وكنت أضع شعيرا بين كل صفحة واقلب الصفحات أمام الحمار وهو يلتقط الحب ـ وبعد فترة جعل يقلب الصفحات بنفسه ، واذا نسى التقليب قلبتها أمامه الى أن « اتقن » ذلك . ثم صرت لا أضع الشعير بين الصفحات ، فكان يقلبها بحثا عنه ، فاذا لم يجده وهو جائع ينهق في استعطاف

من جوعه الى ان اتقن العمل تماما ، وكنت اتسلى بذلك واغرب في الضحك ولا سيما وقد حصلت على مال وافر كنت أعيش به في غاية من الرفاهية ... والامتحان الذي اداه الان هو على اثر جوعه يومين ، لذلك فانه لم يجد شعيرا في الكتاب فنهق من فؤاد حزين ناظرا الي كما رايتم . وهذا الدفتر الذي ترونه مكتوبا هو على مثال الدفتر الذي اتخذته تماما الا أن الاول خال من الكتابة ما عدا بعض خطوط مشوشة كالكتابة . فقال بعض الحاضرين (من المنافقين) : واي قراءة هذه التي قراها الحمار .. ؟ حقيقة انه قلب الصفحات ـ وحقيقة انه نهق عند بعض الصفحات ، ولكننا لم نفهم ما قرأ ، فهل معنى ذلك انه تعلم القراءة . فقال جحا : ان قراءة الحمار لا تكون الا بهذا المقدار ، وأما ما زاد على ذلك ، فيتوقف على الجنس والنوع يا صديقي .

● طبخ جحا يوما اوزة وحملها ليهديها الى تيمور لنك ، وفي الطريق تغلبت عليه شهوته فاكل منها فخذا ـ ولما راي السلطان انها ناقصة ، قال لجحا : واين رجلها ؟ فقال جحا : ان جميع اوز المدينة برجل واحدة ـ وفي هذا تلميح الى ما كان عليه تيمور من العرج ـ واذا لم تكن تصدقني فانظر الى الاوز الموجود على ضفة البحيرة أمامك ، وكان الاوز عندئذ واقفا في الشمس ورافعا احدى رجليه ومخبئا راسه في صدره كما هي عادته ، فرأى السلطان ذلك وتظاهر بالقناعة ـ ولكنه أصدر امره خفية الى الموسيقى السلطانية بأن تقترب من البحيرة وتضرب ضربا شديدا وما هي الا برهة حتى صدحت الالات الموسيقية ودقت الطبول فجفل الاوز من هذه الضوضاء المزعجة واخذ يركض يمينا وشمالا خائفا مذعورا ، فالتفت تيمور الى جحا وقال له : كيف تكذب علي ، اما ترى أن الاوز يمشي على رجلين .. ؟ فقال جحا : ولكنك يا مولاي نسيت أن الرعب ياتي بالعجائب ـ فلو اخافوك مثل ما اخافوه لجريت على الاربع .

ومما هو جدير بالذكر ان نرى جحا في نوادره يحذر من التعاون مع السلطة الغاشمة ، ففي ذلك تأييد لها ، ثم هو يعرف مغبة هذا الامر سلفا ، كما تحكي النادرتان التاليتان :

● استحضر تيمور ذات يوم حاكم المدينة « لمصادرة امواله بحجة انه اختلس من الاموال الاميرية مبالغ طائلة ، بينما كانت الحقيقة ان الجوائح السماوية قد اجتاحت الزرع والثمار هذا العام ، فما اخرجت الارض للناس ما يقتاتون به على عكس العام الماضي ، حيث كان الخير وفيرا ، ومع ذلك فقد بذل هذا الحاكم كل جهده وكل ما لديه من شدة حتى جمع كل ما في ايدي الناس من مدخر وابرز الرجل حساباته المكتوبة على أوراق صفيقة كانت تستعمل في ذلك الزمان . . . فما كان من تيمور الا أن مزقها ، وامر جنده بضرب هذا الحاكم ، واجباره على أكل هذه الاوراق وبلعها ـ ثم صادر أمواله حتى جعله مفلسا عاريا لا يملك دافقا ثم استحضر تيمور جحا وامره أن يجعل الاموال الاميرية تحت نظارته ، وذلك لما اتصف به من استقامة ـ فتعلل الشيخ واعتذر فلم يقبل منه ، وفي اخر الشهر طلب منه الدفاتر الحسابية ، وكانت مرقومة على رقاق من الخبز ـ فلما رآه تيمور قال ما هذا يا جحا ؟ فأجابه : يا سيدي : انك سوف تأمرني في نهاية الامر بلعها ، وأنا لست رجلا عظيم الشهرة كسلفي بل انني طاعن في السن ، وبالجهد تهضم معدتي هذا الورق » .

● وحدث ذات يوم أن احتاج تيمور أحد الابطال ليستخدمه بمعيته في منصب كبير ، وكان من الصعب أن يرضى احد بالقرب منه لانه يكون في كل وقت تحت القضاء ، عرضة للسخط بعد الرضاء ، لذلك لم يجرؤ احد على التقدم ولم يمكنهم أن يقولوا انه « يوجد رجلٌ يصلح لخدمته ، فراجعوا جحا في امرهم لانهم كانوا يسمونه (منقذ الارواح) وقالوا له انك ممن يحبه تيمور لنك محبة حقيقة في هذه البلد . وقد تعلمت اطواره ، ويمكنك القيام بهذه المهمة ريثما نرى من يمكن أن يقبلها ، وكان الشيخ صافي النية رقيق

القلب ، وفي الوقت نفسه كان ذا حمية وطنية عظيمة . فقبل رجاءهم . وعرضوا الامر على تيمور لنك فرضي به ، الا انه اراد ان يقوم بتجربة يمتحن بها ثبات جاشه ، وامر بذلك . فأقاموا جحا واقفا في الميدان بحضرة تيمور لنك ، فرمى احد الرماة نشابة جعلها تمر بين رجلي الشيخ الذي خاف طبعا ، وانما لم ينبس ببنت شفة ، وقرأ كل ما يحفظه من الاعتصام . ثم امر اخر ان يرمي قوسه ويصيب كم جبة الشيخ الشمالي تماما ، ويثقبه ، ففعل ـ واصبح جحا في حال عجيب من الخوف ، ثم امر اخر ان يرميه ثالثة بنشاب يصيب قلنسوته تماما ففعل وثقب الزر ـ فعندها خاف جحا خوفا عظيما ، ولكنه وقف جامدا كالعمود لا يتحرك ، ولما لم يصبه اذى ـ بشروه بالنجاة ، فثاب اليه رشده ولم يظهر تعبه او خوفه ، واخذ يضحك واعجب السلطان بجراته ، وانعم عليه بالعطايا وامر ان يعطوه جبة وقاووقا جديدين ، فشكر له هذه النعم . واخيرا قال : ارجو ان تامروا لي بسروال ايضا ليكمل فوج الثياب تماما ، فقال تيمور : لقد ابلغونا انه لم يصب سروالك بضرر وقد عاينوه فلم يروا شيئا . فقالَ جحا : اجل يا سيدي كلامك حق ، فان السروال لم يصبه ضرر خارجي من رماتك ، ولكنه أصيب باضرار عظيمة مني في داخله ، فلم يبق فيه مكان يمكن امساكه منه .

ب ـ **الموقف الثاني :**

واذا كانت النوادر السابقة تدين القيم السلبية التي يتسم بها بعض الناس ـ هي جزء من طبيعة المهزوم ، فان ثمة نوادر أخرى ، تزخر بالقيم الايجابية ، هي جزء من طبيعة المهزوم أيضا ، ورد فعل مقاوم للهزيمة ، رافض لها ، انه الموقف النقيض الذي يعكس احلام الناس وآمالهم في الثورة ، والحرية والعدالة .. وفي هذا اللون من النوادر نرى النموذج الجحوي يقف الى جانب الناس ضد السلطان ... فيكشف لهم عن مظالمه ، وعن حماقة عقله ، وسفاهة رايه ، وجور احكامه ، في قالب من السخر والتندر .

● قال له تيمور لنك يوما : « اتستطيع أن تخبرني كم اساوي من المال فنظر جحا اليه مترددا ثم قال : لا اظنك تساوى اقل من الف دينار ، فضحك تيمور حتى استلقى على ظهره ثم قال : انك لم تبلغ في جوابك شيئا . ان ملابسي وحدها تساوي ذلك المقدار من الدنانير . فقال جحا : لقد صدق ظني اذن ، فما كنت أنظر من تقدير ثمنك الا الى هذه الملابس » .

● وهناك نادرة شبيهة تقول : دخل يوما هو وتيمور لنك الى الحمام فسأله تيمور لنك : لوكنت عبدا فكم كنت اساوى ؟ فقال له : خمسون درهما : فصاح تيمور بوجهه : يا قليل الانصاف ان الفوطة التي بوسطي تساوي هذه القيمة ، فأجابه جحا بسكون : واني قطعت سعرا للفوطة ايضا .

● سأله تيمور يوما قائلا : هل تعلم يا جحا أن خلفاء بني العباس كان لكل منهم لقب اختص به ، فمنهم الموفق بالله ، والمتوكل على الله ، والمعتصم بالله ، والواثق بالله ، وما شابه ذلك، فلو كنت أنا واحدا منهم فماذا كان يجب أن أختار من الالقاب فأجابه جحا على الفور : يا صاحب الجلالة لا شك بأنك كنت تدعى بلقب « العياذ بالله » .

● كان الحديث يدور في مجلس تيمور لنك عن عذاب يوم القيامة وما يلقى فيها الكفار من شقاء واهوال ، وكان جحا حاضرا فناداه تيمور لنك وقال : لجحا : اين يكون مقامنا في الاخرة يا ترى . . ؟ فقال جحا : يكون مع الملوك والعظماء الذين خلدوا أسماءهم في التاريخ ، فسر تيمور لنك ، وقال : مثل من من الملوك يا جحا ؟ فقال : مثل فرعون موسى والنمرود وهولاكو وجنكيز خان من امثال جلالتكم .

والذي يلفت النظر في النادرة الاخيرة السابقة ان تذكر النادرة ان تيمور أعجب بهذه المنزلة ، فظهرت عليه علامات الرضا

والسرور ـ وهذا بطبيعة الحال تعريض بكل جبار لا يرضيه الا أن يكون ـ غباء وحمقا ـ على راس كل جبار حتى ولو كان في جهنم .

● اراد حاكم ظالم ان يعاقب جحا بعدما وشى به أحد الطحالب البشرية ، متهما اياه بعصيان أولي الامر ، فأمر باحضار جحا ولما حضر بين يديه ضربه بالسوط خمسين ضربة ، وقال : اذهب يا كافر ـ فقال جحا : انا لست كافرا لاني أحفظ القرآن . فقال : اذن فاقرا ـ فقرا جحا بسم الله الرحمن الرحيم « اذا جاء نصر الله والفتح ورايت الناس يخرجون من دين الله أفواجا » فقال الحاكم مصححا« يدخلون » . فقال جحا : كانوا : اما الان فيخرجون من ظلمك .

ويصور جحا ايضا في نوادره بطش الحكام وظلمهم ويعرض ذلك في اطار من السخرية البعيدة او الذكية ، بهذه القوة المتسلطة والسلطة الغاشمة الحمقاء التي يمثلها الطاغية تيمور .

● جيء بفارس من عساكر تيمور وكان مخمورا ، فامر تيمور لنك بضربه ثمانين عصا ، وكان جحا حاضرا فتبسم ، وكان يعلم ان الحدود لا تنفذ الا في الضعفاء فقط ، فغضب تيمور وقال لجنده : اضربوه خمسمائة عصا ، فأخذجحا يضحك قهقهة ـ (وقد تخيل حال هذا الجندى المسكين بعدها) فغضب تيمور لنك غضبا شديدا وتطاير الشرر من عينه وقال : اضربوه ثمانمائة عصا ـ فتراخت أعضاء جحا بخواصره من شدة الضحك . فنهض تيمور لنك وقال : يا خائن الشرع انت تستخف بالحد الشرعي الذي اقمته وعمامتك بقدر حجر الطاحون مع انك تعلم انك أمام جبار ترتجف له الارض ـ فأجابه الشيخ : تقول صوابا ـ وانا أعلم اهمية المسالة الا اني حائر في فكرة : فاما انك لا تعلم الارقام او انك لست مثلنا من المخلوقا ت، فأين الثمانون عصا من الثمانمائة ؟ ان الامر باللسان هين ولكن تنفيذ الامر هو الصعب ، فمن هذا الذي يطيق احتمال ثمانمائة جلدة ؟ !

وهنا نرى لمزا وسخرية من مفهوم القوة والعقاب عند تيمور ، فقد تتمثل القوة والعقاب فقط في مزيد من البطش والطغيان والظلم – وهذه هي الحماقة الكبرى .

● وتبلغ السخرية الجحوية قمتها في تصوير قوى البطش وآثاره المدمرة حينما خرج جحا مع تيمور في رحلة الى الاقاليم ليطمئن على اذعان الناس لجبروته ومذلتهم لطغيانه – ونزلنا اول يوم على قرية ، فنشب فيها حريق أكل دورها وشتت اهلها – وتركها خرابا بلقعا – فقال تيمور : فلتأكلهم النار جميعا . وفي اليوم الثاني نزلنا على قرية أخرى فقيل لنا : ان دارا أسقطت على سكانها فمات تحت الانقاض كثيرون من الرجال والنساء والاطفال فقهقه الطاغية وقال : ولماذا يتركون الدار تسقط عليهم ؟ وفي اليوم الثالث نزلنا على قرية وقد انحدر عليها السيل من الجبل فجرف بيوتها واهلك اهلها فلما علم الطاغية بذلك قال : ولماذا لم يدفعوا السيل عن انفسهم ؟ وفي اليوم الرابع نزلنا على قرية ، فقيل لنا أن عجلا انطلق فنطح عددا كبيرا من الناس فمنهم من بقر بطنه ومنهم من قلع عينه ، وقيل للطاغية فقهقه قائلا : ما اجدر بهذا العجل الشجاع أن يكون في الجيش . وهالني – اي جحا – ما رأيت من الشنائع والفظائع فتمثلت بين يدي الطاغية في تضرع وابتهال وقلت : يا مولانا السلطان ، ان طالع السعد يبدو حيث سرتم وطائر اليمن يقر حيث حللتم ، في كل يوم يشرق من جبينكم على هؤلاء المساكين واخشى أن تمتد رحلتكم اكثر من هذا فيكون في هذا هلاك العباد وخراب البلاد .

ولا تنسى النادرة الجحوية ابدا ان تصور بعض الحكام في جورهم وفي أحكامهم وطغيانهم وحيفهم عن الحق – وارتشائهم وفساد حكمهم .

● دخل أحد التجار مطعما فقدمت اليه دجاجة وبيضات واتفق أن يدفع الحساب عند عودته من سفره وبعد ثلاثة أشهر رجع التاجر وتوجه الى المطعم فأكلَ دجاجة وبيضتين وطلب حسابه

جميعا . فقال صاحب المطعم : ان حسابنا طويل ولكن يكفي ان آخذ مائتي درهم ، فصاح التاجر عجبا .. ؟ ما معنى طلبك مائتي درهم ثمنا لدجاجتين وأربع بيضات ، فقال صاحب المطعم ان الدجاجة التي اكلتها منذ ثلاثة أشهر لو باضت كل يـوم بيضة ووضعناها تحت دجاجة لنتج كذا دجاجة وكذا بيضة ولبعنا بمئات الدراهم ، واحتدم بينهما الجدال وذهبا الى الحاكم ـ وكان ضالعا مع صاحب المطعم ـ فسأل التاجر : هل اتفقتما على الثمن منذ ثلاثة اشهر فاجاب بالنفي ـ فقال الحاكم الا يمكن أن يحصـل من الدجاجة والبيضتين في هذه المدة مئات من البيض والدجاج فقال التاجر طبعا هذا معقول لو كانت الدجاجة حية ، ولكنهـا كانت مذبوحة محمرة ، وكانت البيضتان مقليتين ـ ولكن الحاكم بدا عليه أنه سيحكم بالدراهم المائتين . فطلب التاجر تأجيل الحكم الى الغد لان عنده حجة سيقدمها ، فأجابه الى ذلك ولجأ التاجر الى جحا وقص عليه القصة وولاه الدفاع عنه ، وفي الصباح حضر التاجر وقال : ان جحا سيقدم حجتي . وانتظروا جحا فابطأ كثيرا ثم جاء فصاح الحاكم غضبا : لماذا تأخرت وتركتنا ننتظرك . فقال جحا في رفق : لا تغضب يا سيدي فاني عندما تأهبت للحضور جاء شريكي في الارض التي سنزرعها قمحا وطلب البذور فانتظرت الى ان سلقت له مقدار جوالين من القمح واعطيته اياه ليبذره في الارض فهذا سبب تأخري ـ فصاح متهكما : ما اعجب هذا الاعتذار هل سمعتم ان القمح يسلق قبل ان يبذر فينمو ، فقال جحا على الفور : وهل سمع أحد أن الدجاجة المحمرة والبيض المسلوق يتوالد ويتكاثر ثم يطلب لاجل ذلك من هذا التاجر مائتا درهم فبهت الحاكم وخرج التاجر منصورا .

ولا شك ان استخدام الحيلة والذكاء كان وسيلة ناجحة ومثيرة من وسائل النموذج الجحوي في تنفيذ الاوامر السلطانية الحمقاء ـ وهي أوامر ما كان بمقدور جحا أن يرفض تنفيذها ولكن كان بمقدوره أن ينفذها بوسائله الخاصة التي تفوت على السلطان الغاية منها .

● استصحبه تيمور معه في أيام الربيع ليحضر تعليم الجند رمي القوس والنشاب وفي اثناء التدريب أراد تيمور أن يعبث به ـ فأمره أن يرمي هو أيضا ، وأن يصيب الهدف ، والا فالويل له ، فاعتذر جحا فلم يقبل منه بل أجبره على الرمي ، فأخذ القوس ورمى الهدف أول مرة فلم يصبه فقال : هكذا يرمي رئيس الشرطة عندنا ، ثم صوب مرة أخرى فلم يصبه . فقال وهكذا يرمى حاكم بلدنا ـ ولما رأى الثالثة صادف أن أصابت الهدف صاح قائلا في افتخار هكذا ارمي انا ـ فاعجب تيمور وأنعم عليه .

● شاء تيمور لنك أن يعبث بجحا فأمره أن يركب دابة ويخرج بها الى ميدان السباق فدخل جحا الاسطبل وركب ثورا كبير السن بطيء المشي وخرج به الى الميدان سائرا على مهل ، فرآه الناس فصاحوا وضحكوا ، فناداه الملك تيمورلنك وقال له : كيف تدخل ميدان السباق وانت تركب هذا الثور العجوز فأجابه جحا : انني قد جربت هذا الثور من عشر سنوات فكان يسبق الطير في جريه .

● كان أمير البلد يزعم انه شاعر ، وما اكثر الذين نافقوه حتى صدق انه شاعر الشعراء ... وحدث ان انشد ذات يوم قصيدة ، فهلل المنافقون وشرعوا يتلمسون اوجه البيان والاعجاز فيها ، بينما ظل جحا صامتا ، فسأله الامير : الم تعجبك ... ؟ أليست بليغة ، فقال جحا : ليست بها رائحة البلاغة ، فثارت ثائرة المنافقين حتى غضب الامير ، فأمر بحبسه في الاسطبل ، فمكث محبوسا مدة شهر . وفي يوم اخر ، نظم الامير قصيدة وانشدها وكان جحا حاضرا ، فقام مسرعا ، فبادره الامير : الى أين يا هذا ؟ فقال : الى الاسطبل يا مولاي الامير .

ومن هذه النوادر أيضا تلك النادرة البعيدة المغزى : ـ

* في أيام شباب جحا امر الحاكم بمنع حمل السلاح، وفي يوم كان جحا ذاهبا الى المدرسة وهو يحمل سكينا كبيرة فاخذوه الى

الحاكم فسأله : الا تدري انني حرمت حمل الاسلحة ، فكيف تحمل هذا السلاح في وضح النهار .. ؟ فقال جحا : انما حملته لاصلح به بعض الاغلاط التي اجدها في الكتب . فقال الحاكم : الا يمكن أن تصلح هذه الاخطاء بغير هذه السكين الكبيرة . فأجاب جحا : يا سيدي انه من الاخطاء ما تكون هذه السكين صغيرة بازائه .

وكان النموذج الجحوي يعلم يقينا أن السلطان ــ مهما كان بطشه ــ فهو الى زوال وان البقاء ابدا للشعوب .. فهي الاصل ، وهي الاكبر دائما :

● سئل جحا يوما : السلطان اكبر او الزارع .. ؟ فقال طبعا الزارع أكبر ، لانه اذا لم ينتج القمح مات السلطان جوعا .

ثانيا : جحا والقضاء : ــ

تؤكد النادرة الجحوية ان تحقيق العدالة وسيادة القانون في مجتمع ما رهن بطبيعة النظام السياسي ونزاهة القائمين عليه ، فاذا كنا مع عصور الاستبداد ، كان القانون ــ بالضرورة ــ في اجازة ، وكانت كلمة الحاكم المستبد هي القانون ، وكانت مصلحته الفردية فوق المصلحة القومية ... وحينئذ يفتقد الناس الى المقاييس والمعايير والضوابط التي تستقيم بها حياتهم ومجتمعهم وتصبح حياتهم جحيما لا يطاق .

واكبر الظن انه لا يمكن لدارس تاريخ القضاء في المجتمع العربي أن يفصله عن تاريخه السياسي ، ذلك أن النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والقانونية هي أعضاء في جسم السلطة وهيكلها العام ، واذا رجعنا الى ابن اياس في تاريخه ، عن القضاء في مصر ــ على سبيل المثال ــ فسنجد أخبارا لا تنتهي عن اختلال العدالة ، وفساد القضاء ، فهذا ملك الامراء « خاير بك » أو « خاين بك » كما يحلو للمصريين أن يلقبوه آنذاك ــ وهو جركسي الاصل ــ قد تولى حكم مصر نيابة عن السلطان العثماني سليم ، بعد مغادرته مصر ــ يقول عنه ابن اياس : ــ

« احد العوام الفقراء دخل بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعها في قفه ، فقبض عليه الخولي وكان ملك الامراء خاير بك حرج على بيع خيار شنبر وصار يشتريه على ذمته ويتاجر فيه « اي محتكر لهذا الصنف » فرسم الوالي خاير بك بشنقه ، واشهر بالقاهرة وعلقت القفه في رقبته وشنق على القنطرة التي بزقاق الكحل . واقام ثلاثة ايام وهو مصلوب لم يدفن ... هذا وملك الامراء خاير بك يبيت يسكر طول الليل . ويصبح في خيال السكر يحكم بين الناس بما يقوله له عقله المتارجح » .

ويقول ابن اياس في موضع آخر عن القضاء في مصر : « ان السلطان سليمان بن عثمان قد ابطل قضاة المذاهب الاربعة وجلهم من المصريين الاصالى ويعين قاضيا من قبله يسمى سيد جلبي » . وانه في راي السلطان سليمان ــ اعظم قضاة السلطان واكبرهم ... فماذا قال ابن اياس عن هذا القاضي « الذي بهدل القضاة المصريين منذ يوم وصوله الديار المصرية ...... ووقع منه امور شنيعة ما تقع من الجهال ولا المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، قد فتك بهم في تلك الايام فتكا ذريعا ، وجمع بين قبح الشكل والعقل فانه كان اعور بفرد عين ، بلحية بيضاء وقد طعن في السن ، وكان قليل الرسمال في العلم اجهل من حمار (ولا يزال اللفظ لابن اياس نفسه) لا يدري شيئا في الاحكام الشرعية . وقدمت اليه عدة فتاوي ، فلم يجب عنها بشيء » .

هذه صورة مصغرة لميزان العدالة المتمثل في مصر ــ ولم يكن العالم العربي بافضل منها ــ تحت وطاة الحكم العثماني .

واذا كان الوجدان الشعبي ، قد اعلن من خلال جحاه موقفه من السلطة السياسية ، ورايه في حكامه ، فانه قد اعلن هذه المرة رايه ، في السلطة القضائية ، ورايه في قضاته ... ولهذا لم يكن من قبل المصادفة ان يتولى جحا القضاء ايضا ، او هكذا شاء له الوجدان القومي ، في ابداعه الشعبي ، فأجلسه في مجلس القضاء ليتخذ منه وسيلة يعلن بها رايه في ميزان العدالة وفي فساد القضاء

وبخاصة في تلك العهود التي كان يعيش فيها القضاة أيضا على هوى الحكام . واذا كان القضاة منذ اقدم العصور ـ هدفا لسهام النقد اللاذع فانه يعني مجالا خصبا ـ بغير شك ـ للنموذج الجحوي . والدارس للنوادر الجحوية الخاصة بالقضاء والقضاة تهوله كثرتها ، وبمقدوره أن يستشف بوضوح غياب القانون ، ومن ثم مدى اضطراب العدالة ، واختلال ميزانها ، وفساد معاييرها انها تعكس موقف الناس من القضاء ، ومآخذهم عليه ، من خلال الرمز الجحوي الذي وضع في مواقف كثيرة مختلفة لتكون رؤيته ، ومواقفه منها أقرب الى الواقع التجريبي ، ولهذا أيضا لم يكن من قبيل الصدفة أن يجيء الرمز الجحوي في أغلب نوادره مع القضاء ـ « **متقاضيا** » يجسد لنا مفاسد القضاء وعيوبه عن كثب وعن موقف وتجربة . كما نراه كذلك ـ **قاضيا** ـ يعتلي منصب القضاة ليحكم بين الناس بالعدل ويفصل بين المتنازعين بالقسطاس المستقيم ومن ثم يحقق الوجه الاخر للصورة التي رأيناه فيها متقاضيا ، اذ نراه هذه المرة يحقق القيم المفقودة والمثل المنشودة في القضاء . فيعيد الحق الى نصابه ولتاخذ العدالة مجراها في جو من النزاهة ـ ونراه كذلك مستشارا للقاضي (١) . ولكنه يقف الى جانب الحق والعدل . فهو يؤمن بان القضاء للناس لا عليهم على حد تعبيره في بعض نوادره ، ونراه كذلك يقوم بما يشبه دور المحامي ، فيقف مدافعا عن اصحاب الحقوق والمظلومين وينتصر لهم . وقد تراه شاهد زور أحيانا ! ولكنه سرعان ما يعترف ، ولا يخرج في ادواره الثلاثة الاخيرة عن مفهومه للقضاء فهو في رايه ـ الجمعي ـ قضاء للناس ... لا على الناس . انه بذلك يحقق رغبات الناس وأحلامهم في قضاء عادل نزيه . ويواجه جحا هذه المواقف الذي شاء له الوجدان القومي ان يضعه فيه ، ليعلن ـ من خلالها ـ آراءه في القضاء والقضاة ، بأسلوبه الجحوي

---

(١) يسمى في النوادر : قاضي الظل .

الذي تميز هذه المرة بالبساطة والصراحة ... والصدق والعفوية المقصودة ، وفي اطار من الناحية الخفيفة تارة ، أو التهكم احيانا اخرى ، والسخرية اللاذعة في أحايين كثيرة .

وثمة ملاحظة ينبغي الاشارة اليها : وهي أن اغلب النوادر التي يعاد فيها الحق الى نصابه وتجري العدالة مجراها يكون النمط الجحوي هو القاضي حينئذ او مستشارا للقاضي أو محاميا عن المتهم ـ صاحب الحق ـ على عكس النوادر التي تحيد فيها العدالة عن مجراها الطبيعي فيكون جحا حينئذ هو المتقاضي غير ان الوجدان القومي لم يشأ ان يترك العدالة تنحرف عن شخص جحا المتقاضي ، فيأبى الا ان يكون الى جانب جحا في النهاية ، منتصرا له ، ومحققا العدالة التي ينشدها .

والحق أن نوادر الرمز الجحوي هنا ، قد صورت في وضوح مدى الجور الذي لحق بالناس عند غياب القانون ، ابان عصور القهر السياسي والعسكري ، فابرزت كثيرا من مفاسد القضاء والقضاة ، واضطراب العدالة واختلال ميزانها ... كما أبرزت ضيق اصحاب الحقوق ، بالوساطة والشفاعة واتباع الهوى في الاحكام .... الخ . ولعل اهمها بالتسجيل ظاهرة الرشوة ، مادية كانت أو جنسية ، وان كان يشير الى الجنس تلميحا لا تصريحا ، والى تأثيره على القاضي في أحكامه ، لكن أغلب الرشاوى مادية ، وكثيرا ما قدم جحا الرشاوى الى القضاة ، ولكنها الرشاوى المزيفة دائما ، يعرف كيف ينتقم بها من هؤلاء القضاة بعد قضاء مصالحه .

وتجسم لنا النادرة الجحوية كيف أن القضاة يتبعون أهواءهم حينما يكون أحد طرفي القضية صديقا للقاضي ـ أو ذا مكانة مرموقة ، والخصم فقيرا لا حول له ولا قوة ... وحين تتحكم في القضاء المحاباة والمجاملة لا القانون او الشريعة .

اما اذا كان القاضي نفسه او السلطة الطرف الآخر في القضية فلا امل في العدل .... لقد ضاع ، فالقضاء معناه أنهم جاءوا

ليحكموا على الناس لا على انفسهم (بل هذا هو مفهوم العدالة من وجهة نظر السلطة القضائية في عصور الظلم والاستبداد) .

كذلك قد يقف ـ جحا ـ من القضاء موقف شاهد الزور . . . لكنه سرعان ما ينكشف امره . . . فيفضح القاضي والمدعي معا ، ويسخر من شيوخ هذه الظاهرة في القضاء . . . برغم معرفة القضاء بأن الشاهد يمكن تأجيره وان يقول ما يلقنه من دفع له . . . وهذا كله يعكس حقيقة واحدة هي أن ميزان العدالة مختل ، وان القيم والمعايير مفقودة في أخطر مناصب الدولة في السلطتين التنفيذية والتشريعية معا .

هذا هو الجانب السلبي للقضاء . . . اما الجانب الايجابي منه فمفقود . . . ومن ثم حققه الوجدان القومي بواسطة ـ جحا القاضي ـ حين ولاه القضاء . . . . واستطاع النمط الجحوي ان يقيم ميزان العدالة . . . وان يقضي على الجور مهما بدا ذلك صعبا أو ـ مستحيلا أو من قبيل العبث بالقضاء واحكامه ، فاستخدم ـ جحا ـ حكمته ، وذكاءه وسعة حيلته حتى أعاد الحق الى نصابه محققا بذلك عالما قضائيا نزيها تتحقق فيه العدالة ، وممثلا بذلك رغبات الشعب ـ واحلامه في اقامة قضاء نزيه .

وانطلاقا من هذا الهدف ، نرى أن الوجدان القومي لم يترك ـ جحا ـ متقاضيا في قضية الا انتصر له ، وفي انتصاره لجحا انتصار على نظام القضاء الفاسد نفسه .

ا ـ مفاسد القضاء . . . : ـ

قد يكون القاضي سكيرا مرتشيا ، يدفعه الهوى ، ويعميه الطمع وحينئذ تكون الطامة الكبرى على أصحاب الحقوق ، تقول النادرة :

* كان بالبلد التي بها جحا قاض سكير ، خرج يوما الى المزارع ، وسكر فخلع جبته وعمامته والقاهما جانبا ، وخرج جحا الى التنزه فرأى القاضي على هذه الحال فاختطف الجبة ولبسها

وذهب ، ولما انتبه القاضي ولم يجد الجبة ، رجع وكلف الحاجب أن يحضر له السارق وبحث الحاجب فوجد جحا لابسا اياها فاخذه الى القاضي ، فساله من أين أتيت بهذه الجبة ..؟ فقال جحا : ذهبت امس مع بعض اصدقائي الى المزارع فوجدت رجلا سكران ملقى على الارض في حالة مزرية ، فاخذت جبته ولبستها . ويمكنني أن اثبت ذلك بشهود واريك واري الناس من هو هذا السكير ، فقال القاضي : لا نريد معرفة هذا السفيه ـ فالبس الجبة كما تشاء ولا شأن لي بصاحبها .

وتشيع **ظاهرة الرشوة** في النوادر الجحوية للسلطة عموما ، للوالي أو الحاكم والقاضي ولم يكن هذا الا انعكاسا صادقا وامينا لشيوع تلك الظاهرة بالفعل في العالم العربي أواخر العصر المملوكي وطوال الحكم العثماني ، ومن يعد الى الخطط التوفيقية ـ مثلا ـ لعلي مبارك ... يجد في الفذلكة التاريخية لخططه عن « حال القاهرة في أيام الدولة العلية العثمانية » كيف كثرت الرشوة حتى غدت أمرا معتادا ، واصبح هم الباشوات جمع المال ... يحتالون لتحصيله بكل وسيلة دون أن يراعى أحدهم ـ في ذلك ـ حلا ولا حرمة . بل الغريب أن أكثر الحكام كان يقرر الرشوة على الناس ، ثم يستعملها من يجيء بعده كأنها حقوق ثابتة .

وثمة ملاحظة اخرى في هذا المقام . هي أن جحا حينما يقدم رشوة في سبيل تسهيل مهمته . فاننا نكتشف دائما أن هذه الرشوة رشوة مزيفة ولم يكتشفها المرتشي الا بعد أن يقضي مصلحة جحا . ويمكن أن نطلق عليها « **رشوة جحوية** » .

* كان ببلده قاض مشهور بالارتشاء ، وكان لجحا (عقد بيع) يريد تصديقه من القاضي ، وقد اتخذ كل الوسائل فما امكنه أن يصدق عليه ، فقدم جرة عسل كبيرة للقاضي ، وعندما رآها القاضي خرج الى محل الضيوف ، وقابل جحا بكل ترحاب وختم العقد ، فتناوله جحا وسار بعد أن نظر للقاضي ، نظرة ذات معنى . ولم يمض يومان حتى أهدى بعضهم الى القاضي شيئا من القشدة ،

فاسرع الى الجرة وادخل فيها الملعقة قاصدا اخراج شيء من العسل فلم يجد غير قطعة من الطين قد يبست في اسفل الجرة ، فغضب القاضي وقال لحاجبه : اسرع وائتني بجحا ، فذهب الحاجب الى جحا ، ودنا منه بكل احترام قائلا : يا سيدي لقد وقع في تصديق العقد نقص في السبك والربط ، ويريد اخوكم القاضي اصلاحه واعادته . فتبسم جحا في استهزاء وقال : ليس في العقد شيء من النقص ، وانما هو في عقل مولانا القاضي .. فأرجو ان يصلحه الله .

* وهناك نادرة اخرى طويلة تشبه هذه النادرة ، وكان الذي قدم الرشوة ايضا هو جحا (وهي رشوة مزيفة كذلك) ولكنه اي جحا استطاع افحام القاضي حينئذ . فبهت القاضي ومال من يومه الى العدل وابطل الارتشاء . وكان جحا سببا في توبته واعاد الجاموس ــ موضوع النزاع ــ الى صاحبه (١) .

* قال احد الاثرياء لجحا : اذا بصقت على وجه فلان ــ وهو عدو لي ــ فلك كذا درهم ، فوافق جحا على ذلك ، وذهب الى الرجل وبصق على وجهه فذهب بجحا الى القاضي ــ ولما سأله ، اجاب جحا قائلا : ان لدي « فرمانا » يخول لي الحق في ذلك . فتعجب القاضي من ذلك وقال له : ارني « الفرمان » فدفع جحا الى القاضي كيسا وفيه نصف المبلغ الذي اخذه من صاحبه الثري، وما ان اخذ القاضي الدراهم حتى ولى وجهه الى الشاكي وقال له : حقا لقد ابرز خصمك « فرمانا » يخول له الحق في أن يبصق على وجهك ، وعلى وجوه الناس ، بل على وجهي كذلك .

ويحدث ان يكون جحا نفسه قاضيا مرتشيا للسخرية .. : ــ

* كنت أجلس في الدار فجاءني شخص وحدثني عن دعوى له على شخص آخر ، وبعد أن اشار وفهمت اشارته ــ رشوة ــ قال : يا مولانا أنت شيخنا وقاضينا ، وقد حدثتك بدعواي

---

(١) انظر نوادر جحا الكبرى ص ١٤٥ ــ ١٤٩ نادرة رقم ٢٣٤ .

واني لصاحب الحق فيها . قلت : اجل يا اخي . انك لصاحب الحق كله . وما كاد الرجل ينصرف من عندي حتى جاءني خصمه ، فتقدم وسلم وقص على القضية مطولة مفصلة ، وفي اثناء الحدث غمزني بحاجته غمزة فهمت ما وراءها (رشوة) وبعد ان انتهى من حديثه . قال هذه يا مولانا القاضي هي دعواي وقضيتي واني لصاحب الحق فيها . قلت : اجل يا اخي انك لصاحب الحق كله . وغضبت زوجتـي لما رات وسمعت ولـم يعجبها ما قلت للرجلين . فقالت : كيف يصح هذا يا جحا ؟ حضرتك قاض او فاض ..؟ ... كيف يكون الخصمان صاحبي حق معا في دعوى واحـدة ؟ والملعونة زوجتي تعلم علم اليقين ان الرجل الاول ، قد حمل الى دارنا جرة سمن ، وان الرجل الاخر قد جاءنا بجرة عسل ، وما دام هناك سمن وعسل . فكل الناس صاحب حق ، وانف الحق راغم ، ولا بد ان تتسع ذمة « الدعوى » فيصير كل المتخاصمين اصحاب حق فيها ، ولكن اللجاجة غريزة في النسـاء . والثرثرة ماثورة عنهن ، ولم اشأ ان ادخل مع زوجتي في مناقشة او مخاصمة خشية ان يسمعنا احد فيفتضح الامر ، فاذعنت قائلا : اجل يا زوجتي وانت فيما قلت صاحبة حق .

ورشوة القضاء لا تقف عند حد المال . بل تتعدى ذلك الى اغراء الجنس (تلميحا لا تصريحا) .. : ــ

* تقدمت الى جحا امرأتان فاتنتان عندما كان قاضيا ، فقالت احداهما : ــ

لقد أوصيت هذه على عمل خيوط ثخينة كشعري فنسجت لي خيوطا رقيقة ، وحسرت الحجاب عن وجه كأنه البـدر . وأرته شعرها اللماع كسبائك الذهب قائلة : فلترد لي دراهمي . فقال جحا : سبحان الله . والتفت الى المراة الثانية . وقال لها : ماذا تقولين انت ؟ فقال بصوت يرتجف غضبا : كانت مقاولتنا أن يكون كخنصري هذا لا كساعدي ، وكشفت عن ساعدها الابيض

وهو ثخين كعمود من فضة او بللور . وقال لها : كفى كفى يا ابنتي لا تجعلي الخيط ثخينا يفجع ولا تجعليه رقيقا يقطع ، كقلب شيخكما جحا . (١)

ومن اعجب النوادر - في المأثور الجحوي - التي تصور مدى حيف القضاة وفساد ضمائرهم في في هذه العصور ، نادرة الوالي « **كميش والفران** » والتي نقدم ملخصا لها هنا نظرا لطولها :

كان الوالي كميش ، مثالا حيا لفساد القضاء والقضاة في في عصره وكان على ذكائه وفطنته يدفعه الهوى ويَعجبه الطمع ، فيعتسف الطريق ولا يخجل من تلفيق الحجج الواهية التي لا تصدر عن اشد الناس غفلة وغباء ، وفي النادرة التالية مثل من حماقاته باختصار شديد : - كان الوالي يجول في طرقات المدينة فشم ريح لحم مشوي ينبعث من فرن قريب ، فاسالت الرائحة لعابه فنادى على الفران ، ودارت بينه وبين الوالي مناقشة سخيفة سمجة - انتهت بأن امر الوالي الفران ان يرسل الوزة المشوية الى بيته ؛ وطلب من الفران يخبر صاحب الوزة انها طارت بعد ان شواها .. فان لم يقتنع ، فلا تتردد في الحضور عندي لتحتكما الي وأنا الكفيل بتأديبه ، استسلم الفران للوالي وارسل الوزة .. فلما حضر صاحبها أخبره الخباز بأنها طارت ، فاشتد غضبه ، ودبت بينهما مشاجرة ، اجتمع على اثرها الناس وثاروا عليه واتهموا الفران بالسرقة ، وضيقوا عليه الخناق ، فخشى سوء العاقبة .. استولى الياس عليه ، اندفع هربا بحياته كالمجنون ، لكم أقرب الثائرين اليه لكلمة قوية أطارت احدى اسنانه (وفي رواية اخرى أحدى عينيه) فازدادت ثورة الناس عليه . دفعه حب الحياة الى الاستماتة في طلب النجاة ، فقفز هاربا الى شارع ضيق قريب ، فاعترضته امرأة حامل ، عائدة الى بيتها مع

---

(١) ثمة نوادر أخرى تتسم بالفحش ، لفظا ومعنى ، ولم يكن جحا هو القاضي بطبيعة الحال ، لكنه كان دائما هو الذي يفضح امثال هؤلاء القضاة .

زوجها ، فركلها بقدمه ، فاسقط حملها (اي اجهضت) فتضاعف سخط الناس عليه ... وواصلوا ملاحقته ولكنه انطلق كالسهم المارق هاربا الى مسجد قريب ، وصعد المئذنة ، لاحقه الناس ، فالقى بنفسه من فوق المئذنة العالية لكنه لم يمت ، فقد سقط على احد الثائرين فمات ونجا هو .تضاعف سخط الناس فهرب الى دكان جزار وخطف منه سكينا ، وتظاهر بالجنون ، كان حمار جحا قريبا منه ، أهوى بمديته على حمار جحا فقطع ذيله مهددا ، ثم فر هاربا الى دار الوالي كميش والناس تلاحقه ، استقر الجميع في دار الوالي ، وتظاهر الوالي بالدهشة وعدم معرفته للفران ، فلما استمع للقصة كلها تظاهر بتصديق الفران واعتبرها دلالة على قدرة الخالق سبحانه وتعالى .. ثار صاحب الوزة ، فاتهمه القاضي بالكفر وعدم الايمان بقدرة الخالق ، وامر بتغريمه عشرة دنانير جزاء له علىمكابرته واسراره على المطالبة بحقه .والتفت الوالي الى الخصم الثاني وعرف قصته فامره ان يضرب الفران لكمة واحدة ، على شرط ان تسقط سنا من اسنانه تماثل السن التي اسقطها له . وان عجزت فالويل لك ... فأدرك الرجل مدى تحامل القاضي ، ويئس من اقامة العدل ، فتنازل عن حقه ، فأمر الوالي بتغريمه عشرة دنانير ، وجاء دور الخصم الثالث ، وعرف القاضي قصته فقال له : ان العيب كان عيب المرحوم اخيك ، اذ لماذا يمر في هذه اللحظة من تحت المئذنة ، وعلى كل فلا بد للحق أن يتبع ، وان تأخذ العدالة مجراها ، فلتصعد الى نفس المئذنة العالية ، وتلقي بنفسك على الفران ، فتصرعه كما صرع اخاك ، وادرك الشاكي مغالطة القاضي ، فيئس من عدالته ، وتنازل عن حقه ... فامر القاضي حينئذ بتغريمه عشرة دنانير لانه لم ينفذ امر العدالة ، فلما جاء دور المراة التي اجهضت ، لامها الوالي على مرورها في هذا الوقت بالذات من هذا الشارع وهي تعلم انه ضيق ، والعيب على زوجها الذي اختار لها مسكنا في هذا الشارع ، ومع ذلك فلا بد ان تاخذ العدالة

مجراها ومن ثم امر بحقها ، وكان مجمل حكمه : من افرغ بطنك (من الحمل) عليه ان يملأها بحمل جديد بدلا منه فبهتت المراة وزوجها ، وادركا مدى تحامل الوالي ، فتنازلت المراة عن حقها ، فغضب الوالــي وامر بتغريمها بعشـــرة دنانير ، لضياع وقت المحكمة . فلما جاء دور جحا ، وقد راى ما هاله من احكام هذا الظالم المخبول ، فر بحماره وهو لا يصدق النجاة من شر هــذا الطاغية ، فادركه الوالي ، واوقفه ولكن جحا يصيح : هكذا خلق الله حماري بلا ذيل ولا عقل ، فلم يصدق الوالي ذلك (بعد ان غمز اليه الفران) ، وحينئذ ادرك جحا عبث الجدل فقال : يــا سيدي الوالي : هكذا خلق الله حماري ، بلا ذيل ، ولا عقل ، فهل تعترض على قدرة الخالق ..؟ هل تكابر ايها الوالي ...؟ فبهت ولــم يرد .

ولعل جحا بسخريته اللاذعة من القضاة . ومفاسدهم . وجورهم **كان يمثل املا في اصلاح القضاء** ويبغي قضاء نزيها بعيدا عن الجور . حتى يقيموا العدالة بين الناس ، بوحي من الشريعة والضمير الطاهر . لا بوحي مما يقدم اليهم من هدايا او رشاو . بل لقد تاب كثير من القضاة المرتشين على يديه (الامل في الاصلاح) مثلما نرى في نادرة من الذع ما عرف عن جحا من نوادر حينما اقر القاضي بصحة الدعوى التي ادعاها جحا (غراب يصيد جاموسا) لان جحا رشاه ... ومخلص هذه النادرة ان جحا كان معه غراب فوقف على قرن جاموس ، واعتبر جحا الجاموس صيدا له فاخذ الجاموس ثم اتضح ان الجاموس ملك لجاره ، الذي رفع امره الى القضاء مطالبا باعادة الجاموس اليه . ولكن جحا قدم للقاضي جرة سمن رشوة له . فحكم له بالجاموس .. ثم اتضح ان جرة السمن التي قدمها جحا مليئة بروث البهائم . فاراد ان ينتقم من جحا وارسل في طلبه . ولكن جحا فاجاه بقوله : هل سمعت ان غرابا اعرج يساوي قرشين يصطاد راس جاموس ثمنه الف قرش .

وكيف حكمت لي به ..؟ وعلى اية شريعة بنيت هذا الحكم ..؟ فبهت الحاكم المرتشي من هذا الكلام . ومال من يومه الى العدل . وابطل الارتشاء ، وكان جحا سببا في توبته ، واعاد الجاموس الى صاحبه .

اما لو كان القاضي والمتهم صديقين فقد ضاع الحق على صاحبه لا محالة ... ولكن صاحبه هنا هو جحا ... ومن ثم فان الامر لا بد مختلف :

* كان جحا مارا في السوق فجاء رجل من خلفه وصفعه صفعة شديدة فالتفت اليه وقال : ما هذا ..؟ فاعتذر له الصافع بقوله : عفوا يا جحا ظننتك احد اصحابي الذين لا تكليف بيني وبينهم ، فلم يتركه جحا ورفع الامر للقاضي وكان الرجل من اصدقاء القاضي . فلما رآه مع جحا وسمع دعواهما حكم لجحا ان يصفعه . فلم يرض جحا بذلك . فقال القاضي ما دمت غير راض عن هذا الحكم فانني احكم بأن يدفع لك عشرة دراهم جزاء نقديا وقال للرجل : اذهب واحضر الدراهم ليأخذها جحا . وهكذا افسح القاضي المجال لفرار الرجل . فانتظر جحا عدة ساعات على غير فائدة . وادرك عند ذلك ان القاضي خدعه وصرف الرجل ، فنظر جحا الى القاضي فرآه غائصا في أشغاله ، فتقدم حتى قاربه وصفعه صفعة قوية وقال : ايها القاضي انا مشغول ، وليس عندي وقت للانتظار ، فأرجوك ان تأخذ الدراهم متى جاء الرجل لاني مستعجل .

ولم تهمل نوادر جحا التندر بمحاباة ذوي المكانة الخاصة على حساب الضعفاء والفقراء والعدالة ، فتحكى هذه النادرة

* ان رجلا من عامة الشعب جاء الى القاضي جحا ، يشكو اليه من احد كبراء البلد ، ويدعي عليه انه ضربه وعض اذنه ، ويطلب

منه أن يقتص له بحق الشرع وحق العدالة . فاحضر الرجل الكبير وساله عن حقيقة دعوى الرجل عليه في لطف وتبجيل يليق بمكانته ، فرد الرجل الكبير في برود وعدم مبالاة : كلا ، بل هو الذي عض اذن نفسه ، وتدبر جحا الامر فوجد نفسه امام معضلة مشكلة وان كان وجه الحق فيها واضحا ، ولكن كيف يصح ان يصدق رجلا صعلوكا فقيرا لا مكانة له ... واخيرا هداه تفكيره الى أن يجرب بنفسه ، عله يجد في التجربة ما يحسم الامر في هذه القضية بما يريد هو ؟؟ ثم استمهل الرجلين قليلا ودخل الى الدار واخذ يحاول عض أذنه باذلا في المحاولة كل سبيل دون فائدة حتى وقع على الارض وشج راسه ، فربط موضع الشجة وخرج الى المحكمة ، فتقدم اليه المدعي وصاح : انصفنا يا مولانا القاضي ، فانت قاضي المسلمين وامام المنصفين . هل في استطاعة انسان ان يعض اذن نفسه ..؟ قال جحا : نعم يا ولدي يعض الانسان اذن نفسه ، ويقع على الارض فيشج راسه ويتحطم جسمه أيضا . فاحمد الله على أن عضضت اذنك فحسب ، والا فسوف تلقى ما لاقيت .

اما اذا كان القاضي طرفا في النزاع ، وخصما في قضية هو الحكم فيها ، فان جحا يحذرنا أن لا جدوى من نيل الحقوق حينئذ . ويؤكد لنا أن القاضي في عصر الاستبداد سوف يحكم لصالحه ـ ما دام هو الخصم والحكم في آن ـ لا لصالح العدالة .

* جاء رجل يوما الى جحا عندما كان قاضيا وقال له : ان ثورك نطح ثوري فقتله فهل يلزمني الضمان ..؟ فقال جحا : كلا ، فان جرح العلماء جبار (أي هدر) فقال صاحب الثور : عذرا ، لقد اخطأت . ان ثوري هو الذي نطح ثورك . فالتفت جحا منزعجا : لقد تغير وجه الادعاء . واشكلت المسألة . فهات هذا الكتاب الذي فوق الرف لانظر فيه !!

* كان جحا قاضي البلد . فجاء شخص ، وقال له : اذا بال كلب على حائط فكيف تطهر ؟ فقال جحا : تهد الحائط وتبنى سبع مرات . فقال الرجل : ولكنها الحائط التي بيني وبينك فقال جحا : اما هذه الحائط فقليل من الماء يطهرها .

ويحدث أن يؤتى بجحا شاهد زور ... فيقبـل ، ولكنه يفشي الحقيقة في النهاية :

* قال له احد الناس : تعال واشهد عند القاضي على انني داينت فلانا مائة أردب من القمح ، وأعطيك عشرين دينارا . فرضي وأخذ المبلغ وتوجه معه الى القاضي . فلما مثلوا بين يديه ادعى الرجل انه سلف فلانا مائة اردب قمحا ، فسأله القاضي : اين شاهدك ؟ فقال : جحا يشهد لي . قال القاضي لجحا : أتشهد بذلك ..؟ قـال : يا سيدي اشهد ان هذا الرجـل يداين ذاك الشخص بمائة أردب من الشعير ، فقال القاضي : انه يدعي قمحا ، وانت تشهد انه شعير ، فقال جحا : يا سيدي ما دامت الشكوى كذبا في كذب ، والشهادة زورا فالقمح والشعير يستويان .

ب ـ جحـا قاضيـا .... : ـ

اول ما يلاحظ أن اغلب القضايا التي عرضت على جحـا القاضي مثيرة للدهشة ، تبدو بسيطة ، بل ان ظاهرها غير ذي موضوع ... لكن سرعان ما تنجلي عن مشكلة بالفعل . بل تبدو القضية كاللغز ، فقد توافرت عناصر القضية ، شرط ومشروط ، وقضية فيها خصمان ، ولا بد للقاضي من أن ينصف المظلوم ، وأن تأخذ العدالة مجراها بين طرفي النزاع ، ويستطيع جحـا القاضي أن يقوم بهذا الدور ، **محققا بذلك توازنا نفسيا للوجدان الذي انشاه** ، بعد أن عجز عن تحقيقه الواقع عند السلطان والقضاء فابى الا ان يقيمها في ابداعه الشعبي لكن ذلك ان دل على شيء ، فانما يدل على احساس الرمز الجحوي بذلك العبث الرهيب الذي يسود عالم القضاء نتيجة طبيعية لذلك الجور الذي عانى

منه الشعب العربي طويلا ، ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان أثر الجور في الشعوب على المدى الطويل ينأى بها بل يفقدها روح احترام القانون في نفس قوم دأب سلاطينهم وولاتهم وقضاتهم على العبث به .

* ادعى بعضهم على اخر امام جحا ـ وكان قاضيا ـ انه راى في منامه ان ذلك الشخص (المدعى عليه) أخذ منه دراهم عدها له ، وكان لها رنين ، ثم قال : والان اطلبها فلا يعطيني اياها ، ففكر جحا قليلا في هذه القضية ، ثم امر المدعى عليه باحضار مقدار من الدراهم الى المحكمة فاحضرها بعد تردد واعتراض ، ونادى الخصمين ، فلما وقفا بين يديه ابتدأ يعد الدراهم ويفحص رنينها حسب المعتاد ، ثم التفت الى المدعي وقال له : خذ هذا الرنين ، وقال للمدعى عليه : خذ انت دراهمك ولا تتجاوزا حقوقكما .

* وهذه نادرة اخرى (من باع بخار الطعام يقبض رنين الدراهم) وهي شبيهة بالنادرة السابقة وملخصها : عثر احد الفقراء على كسرة خبز يابسة فمر من امام طاه فاكل الكسرة على رائحة البخار المتصاعد ، فشكاه الطاهي الى جحا مطالبا بثمن بخار طعامه ، فاخرج جحا نقودا وعدها بطريقة يسمع معها الرنين، وقال للطاهي : خذ الرنين ثمنا لرائحة طعامك .

* ولعل نادرة الشواء من اهم النوادر التي يمكن ان توضح مع سابقتها موقف جحا القاضي : وقف فقير بباب شواء يشوي اللحم ورائحته تفوح منه ، وكان الفقير جائعا ، فاشترى رغيفا ، وجلس بالقرب من دكان الشواء واكل الرغيف على رائحة الشواء ، فرآه الشواء ، فخرج اليه وطلب منه ثمن رائحة الشواء ، فلم يدفع له الفقير شيئا ، فأمسك بخناقه ، وساقه الى القاضي (جحا) وقال له : يا سيدي القاضي ، ان هذا الرجل اكل رغيفا على رائحة الشواء ، وقد طلبت منه ان يدفع لي ثمن رائحة الشواء فلم يرض

بدفع شيء ، ففكر (جحا) قليلا ثم قال : كم قرشا تطلب ثمنا لرائحة شوائك ..؟ فقال الشواء : أطلب خمسة قروش .. فأخرج جحا قطعة فضية من ذات الخمسة قروش ، ورنها على رخامة امامه وقال للشواء ، هل سمعت رنين النقود ، فقال الشواء : نعم يا سيدي القاضي . فقال جحا : خذ الرنين فهو ثمن رائحة شوائك .

* ومثل ذلك نادرة (لك الصوت وله الاجرة) .. كان جحا قاضيا ، فجاءه أحد الماكرين مدعيا على أحد الذين يعملون في قطع الخشب أن بذمته مبلغا من المال ، نشأ من أنه كان يحثه بترديد جملة (هيلاهوب) وبهذا سهل تقطيع الخشب عليه ، فقال له جحا : وكم تطلب اجرا على حثك هذا ..؟ فقال : أطلب خمسة دراهم ، فأخرج جحا من كيس نقوده خمسة دراهم ورنها ثم قال للمدعي الماكر : قد سمعت رنين الدراهم ، فخذ هذا الرنين فهو اجر قولك ، (وفي رواية اخرى صوت بصوت) .

* ونادرة (اللاشيء) تنازع شخصان، وذهبا الى جحا ـ وكان قاضيا ـ فقال المدعي : لقد كان هذا الرجل يحمل حملا ثقيلا ، فوقع من فوق عاتقه ، فطلب الي أن أعاونه ، فسألته عما يدفعه لي من أجر على ذلك فقال : لا شيء .. فرضيت بها وحملته حمله ، وانا الان أريد أن يدفع لي ال « لا شيء » . فقال جحا : دعواك صحيحة يا بني ، اقترب مني وارفع هذا الكتاب ، فرفع المدعي الكتاب ، فقال له جحا ماذا وجدت تحته .. ؟ قال : لا شيء ، فقال له جحا : فخذها وانصرف .

وتروى هذه النادرة بصورة وعظية اكثر ، حين يتهم الحضور في مجلس القضاء ، هذا الحمال بالحمق ، ولكن جحا ، يؤكد لهم أنه سيكون هو الاحمق اذا لم يفصل في هذه القضية ، ثم يشرع في مناقشتهم حول بعض الموضوعات التي تؤكد عبثية الحياة وغباء الانسان أحيانا ، وضيق افقه ، واستماتته في سبيل ماديات

فانية ، وما تجره من حروب واحقاد بين البشر .. ثم يتساءل : ماذا يأخذ الانسان بعد ذلك كله في النهاية (عند الموت) فيجيبون جميعا : لا شيء ، فيؤكد لهم جحا أن هذا اللاشيء هو الثمن الغالي والصعب الذي لا يدركه الناس الا بعد فوات الاوان .

وهناك مجموعة من النوادر تصور جحا قاضيا ذكيا لماحا واسع الحيلة في سبيل الوصول الى تحقيق العدالة التي افتقدها الناس ، عاكسة بذلك آمال الشعب في اصلاح ما اختل من قيم وموازين ومعايير .

* دخل لص دكان جزار ، وطلب منه شيئا من اللحم ، وبينما كان الجزار يشتغلُ بقطع اللحم فتح اللص الدرج واخذ منه نقودا (من الفضة) فلمحه الجزار ، فامسك بخناقه ، وساقه الى جحا القاضي ، فلما عرف حكايتهما ، تحير في الحكم بينهما ، وجلس يفكر ثم امر باحضار سلطانية فيها ماء ساخن ، ووضع فيها النقود ، فظهر على وجه الماء دهن قليل ، فعرف جحا ان النقود للجزار ، فسلمها اليه ، وامر بحبس اللص .

وهذه نادرة اخرى تمثل جحا قاضيا يعرف كيف يعيد الحق الى نصابه ، وتأخذ فيها العدالة مجراها الطبيعي .

* نام رجل في الغيط ، وتغطى بجبته ، فجاء لص وسرقها ، فاحس به الرجل ، فأمسك به وساقه الى جحا القاضي ، فلما وقفا امامه ، ادعى كل منهما أن الجبة له ، ولم يستطع احد منهما ان يأتي بشاهد يشهد أن الجبة له ، فجلس (جحا) يفكر في هذه القضية العويصة ، ثم خطرت بباله فكرة رائعة ، فامرهما ان يمسك كل منهما بطرف الجبة وتركهما على هذه الحال مدة طويلة، وتشاغل عنهما بالنظر في الاوراق ، وفجاة صاح فيهما : اترك الجبة لصاحبها أيها اللص ، فتركها احدهما ، فعرف (جحا) انـه اللص ، فحكم عليه بالحبس وسلم الجبة لصاحبها .

وقريب من هذه النادرة ما سمعته منسوبا الى جحا من أن اماتين تنازعتا طفلا ، ادعته كل واحدة منهما ولدا لها بغير بينة ، ورفعتا أمرهما الى القضاء ، فأشكل الامر على القاضي (جحا) فوعظهما وخوفهما فاقامتا على التنازع والخلاف ، فقال عند تماديهما في ذلك : ائتوني بمنشار فقالت المراتان : ما تصنع ؟ قال : اقده نصفين ، ولكل واحدة منكما نصفه ، فسكتت احداهما وصرخت الاخرى قائلة : لقد سمحت به لها ، وبذلك عرف من هي الام الحقيقية ، فأعاده اليها ...

والحقيقة أن هذه الحادثة قد نسبت الى أكثر من شخصية ، فهي قد نسبت الى سليمان الحكيم عليه السلام ، كما نسبت أيضا الى الامام علي كرم الله وجهه ، وقد تكون نسبت الى غيرهما ، وهي تحكى دائما للدلالة على ذكاء صاحبها وقدرته على التخلص من أعقد المواقف الانسانية ، ولعل في نسبتها الى جحا دليل على ما ترسخ في وجدان الشعب عن جحا من حكمة وكياسة ، فما بالنا لو كانت هذه الحكمة والكياسة في مجالس القضاء ، لتحقق اذن ما ينشده الشعب من عدالة ، ومن رغبة في اعادة الحقوق الى أصحابها الحقيقيين ، مهما بدا ذلك مستحيلا أول الامر ، ومهما كانت مغالطات الباطل وأسانيده .. ومهما كانت القوى التي تقف وراءه ...

* ذبح رجل دجاجة، ونتف شعرها، ثم أعطاها خبازا ليشويها وانتظر في منزله حتى تنضج ، فلما قاربت النضج فاحت ريحها فشمها الخباز ، فطمع فيها ، وأكلها مع عماله ، ولما جاء صاحبها ليأخذها ادعى الخباز أن الدجاجة بعد أن نضجت تحولت الى أميرة جميلة وطارت من الفرن بجناحيها البيضاوين ، فدهش الزبون ، وطار عقله ، وقاد الخباز الى القاضي جحا ليحكم بينهما .. سمع جحا قول الخباز ، فأجل النظر في القضية الى اليوم التالي ، وأمر الخباز أن يرسل اليه في موزله خمسين رغيفا ، وفي اليوم التالي حضر الخباز والزبون ... ووقفا أمام جحا الذي قال

للخباز : كيف تغشني ايها الخباز وترسل الي ارغفة مسحورة ، انها قد طارت في الجو دون ان يكون لها اجنحة ، اني لا ادفع لك ثمنها لانني لم انتفع بها ، فصاح الخباز متعجبا ، وكيف تطير الارغفة يا سيدي دون ان يكون لها اجنحة .. ؟ فقال جحا : ان الذي جعل الدجاجة تتحول الى فتاة تطير بجناحيها البيضاوين قادر على ان يجعل الارغفة تطير في الجو بدون اجنحة .

ومن طرائف نوادره في القضاء :

جحا مع الحق : ـ راث كلب في شارع عام بين منزلين ، فاختلف صاحبا المنزلين على من يزيل الروث منهما ، وتنازعا ، فذهبا الى القاضي وكان جحا عنده في هذه اللحظة ، فقص المتنازعان قصتهما ، وطلبا من القاضي ان يحكم بينهما ، فاراد القاضي ان يعبث بجحا فقال له : افصل بينهما فقال جحا : المسألة واضحة ، ان الروث في شارع عام وليس على احد كما ان يزيله ، وانما الروث على مولانا القاضي (يعنى ازالته ، في المعنى الغريب للتورية) فضحك القاضي والمتنازعان ، وتعاونا على ازالته ...

ولعل مما له مغزى في هذا المقام نادرته التي تقول : ـ

... كان جحا قاضيا للبلد ، وفي يوم جلس مع قاضيين من اصدقائه ، وجاء ذكر الحديث الشريف (قاض في الجنة ، وقاضيان في النار) فقال جحا فجاة : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانا القاضي الذي سيدخل الجنـــة .

ثالثا : جحا والامن الداخلي : ـ

ان المتامل لنوادر جحا واللصوص لا بد له ان يربط بينهما وبين الموقف الجحوي من خلال نوادره مع السلطة والعدالة معا لا لكثرتها بل لوقوفها عند مضمون واحد تعكسه لنا هذه النوادر جميعها ، الا وهو اختلال حال الرعية وفساد الامن الداخلي نتيجة طبيعية كما يذكر علي مبارك في خططه لانحلال عرى الضـــبط

والسياسة في حديثه عن « حال القاهرة ـ على سبيل المثال ـ في ايام الدولة العلية العثمانية » . فكثرت اللصوص وقطاع الطريق واهل الفساد في سائر جهات القطر حتى صاروا يدخلون البلاد للنهب جهارا ، ليلا ونهارا بلا مبالاة ، لانتماء رؤسائهم الى الامراء (١) ، ولهذا ـ وكما أكدت مرارا لم يكن من قبيل الصدفة أن يزدهر النموذج الجحوي في العصرين المملوكي والعثماني بخاصة حين كان باشا يجيء وباشا يذهب ولا تتعدى اقامة الباشا منهم العام أو العامين ولا يسلم أمره لمن يليه الا بعد أن يقدم حسابا عن ادارته فكل باشا يعرف مقدما أنه مضطر في النهاية الى دفع ما سيقرر عليه بسبب هذا الحساب المغلوط !! ومعنى ذلك أن ينهب كل ما يستطيع نهبه استعدادا للطارىء المحتوم وقد نهبوا كلهم وسلبوا وقتلوا وعذبوا ومن حولهم شيخ البلد وامير الحج وبقية امراء الجراكسة ومماليكهم واجنادهم ، كلهم يسرقون وينهبون ويعذبون ويقتلون ، على حد تعبير علي مبارك ، ومن قبله ابن اياس ... ويستمر الحال على هذا المنوال قرونا وحقبا متطاولة ، وتترجم النوادر الجحوية عن اختلال الامن الداخلي آنذاك ، ويردد الناس هذه النوادر تعبيرا وتنفيسا ... ولهذا شاء الوجدان القومي ان يكون « **البيت الجحوى » هدفا دائما للصوص ، وان يكون جحاه مسروقا لا سارقا . وان يكون في النهاية بيت جحا رمزا للبيت الكبير** ، الوطن ، الذي طالما تعرض للسطو والنهب والسلب على يد شرذمة غريبة متسلطة من الاجانب والدخلاء ، وكلهم قد اجتمع على نهب بيته الذي امسى خاويا لكثرة ما تناوب عليه اللصوص ، ولذلك دلالة لها مغزاها ينبغي الا تغيب في هذا المقام .

---

(١) انظر : الخطط التوفيقية لعلي مبارك جـ ١ ص ٢ ط دار الكتب المصرية ١٩٦٩ م .

صحيح ان هناك بعض النوادر جاء جحا فيها سارقا ، ولكنه قد يأتي سارقا من أجل لقمة العيش التي عز وجودها وكاد يموت هو وأولاده جوعا . أو قد يأتي سارقا لمجرد الدعابة من حماقة بعض اللصوص أو لاسترداد ما سرقوه منه بحيلة تفوق حيلتهم وتكشف عن غبائهم ، وتسامحه في نفس الوقت ، وقد تكون للانتقام وحده حين لم يكن بد من الانتقام ، الا أن نوادر جحا المسروق ، تظل اضعاف نوادر جحا السارق ، التي جاء فيها جحا ، ضحية اللصوص دائما الذين طالما تخيلوه احمق غرا ساذجا . . وقد اطمعهم فيه طيبته وكرمه وعفوه وتسامحه ولكنهم كانوا في النهاية ـ أمام ذكاء جحا ـ هم الحمقى . . . ومن اللافت للنظر ان يأتي جحا دائما اذكى من لصوصه ، فيقبض عليهم جميعا ، غير انه لم يعد يقدمهم للقضاء ـ بعد ان فقد ثقته به ، وباقامة العدالة في هذه العصور ـ ولكنه يلقنهم دائما الدرس القاسي جزاء وفاقا بعد أن يفضح ـ الاعيبهم وحيلهم ، ويكشف عن حمقهم وغبائهم : ـ

ا ـ جحا المسروق : ـ

* كان مع جحا كيس به نقود كثيرة وبينما كان يمشي في الطريق وحده في اخر البلدة خرج عليه لصان ، ومع كل منهما سكين كبيرة وهدداه بانه اذا لم يسلمهما ما معه من نقود فسيقتلانه . فقال جحا : اتركاني لحظة حتى ابلع ريقي وازيل الخوف الذي لحقني منكما ، اجلسا نتفاهم ، فجلس اللصان وقعد جحا فقال لهما : « ان معي نقودا كثيرة ولكني لا اعطيها الا لواحد فقط ، فاتفقا فيما بينكما على من يأخذها منكما فقال اللص الاول : انا الذي آخذها وحدي فأنا الذي اكتشفت جحا ، وقال اللص الاخر : لا بل أنا الذي آخذها وحدي فأنا الذي اكتشفت كيس نقوده . فقال لهما جحا : لا تختلفا فان الخلاف عاقبته الندم واتفقا بهدوء على من يأخذ النقود منكما ، ولكن اللصين لم يتفقا واشتد النزاع بينهما ، ولكنه لم يتعد دائرة الخلاف في الراي ، فقال لهما جحا : عندي فكرة لطيفة ، اني سأعطي النقود لاعظمكما

قوة فقال اللص الاول : انا اقوى من زميلي وسأكسر راسه ، وقال اللص الثاني لا بل انا اقوى من زميلي وساقتله بضربة واحدة . فانتهز جحا فرصة اختلافهما وقال لهما : والان يبرهن كل منكما على صدق كلامه . فتضارب اللصان بقوة وعنف وكسر كل منهما راس الاخر فوقعا على الارض والدم يسيل منهما ، فلما تأكد جحا من انهما لا يستطيعان القيام ، هرب منهما وتركهما .

ولعل المغزى السياسي لهذه النادرة غير بعيد .

* كان جحا نائما في منزله بجوار امرأته فشعر بوقع أقدام لص قد تسور سطح البيت فاستيقظ وأيقظ امرأته وهمس لها : اني علمت أن اللص قد علا ظهر بيتنا فانا سأتناوم لك فأيقظيني وقولي لي : يا راجل من أين جمعت هذا المال العظيم .. ؟ ففعلت زوجته ذلك ، فقال لها كنت في شبابي أسطو على المنازل ، فاذا تسورت منزلا صبرت الى أن يطلع القمر فأتعلق بالضوء الذي ينفذ من « المنور » وأقول « شولم شولم » سبع مرات وأعتنق الضوء وأتدلى بلا حبل وأصعد ولا ينتبه أحد من أهل البيت .. وكان اللص يستمع الى هذا الكلام . فقال في نفسه : والله لقد غنمت شيئا كثيرا في هذه الليلة أضيفه الى المال الذي سأسرقه . ولما نفذ ضوء القمر من المنور احتضنه اللص وقال « شولم شولم » سبع مرات ، وانزلق فسقط وتكسرت أضلاعه فأسرع جحا اليه وصاح في امرأته أن تشعل المصباح قبل أن يهرب ، فقال له اللص لا تعجل يا أخي فما دمت تعرف هذه الفائدة العظيمة وأنا بهذه العقلية الحمقاء فلن أستطيع الهرب منك بسهولة (1) .

---

(1) من النوادر المنسوبة لجحا الرومي ، ولكنها اكثر شيوعا في الريف المصري ، ومما هو جدير بالذكر أن أصلها العربي موجود في « ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي ج ٢ ص ١٧١ ، ويختلف الاصل العربي عن الرواية المصرية التي أخذت بها في أمرين : الاول : ان ابن حجة أوردها غير منسوبة لجحا ، والاخر : ان أمر اللص فيها انتهى بتسليمه الى الشرطة حتى تأخذ العدالة مجراها .

دخل لص بيت جحا وسرق جانبا من الاثاث ، ولما خرج اخذ جحا بقية الاثاث وتبعه فالتفت السارق وراءه فوجده فقال له : ماذا تريد يا رجل .. ؟ قال جحا : « معزل » من بيتنا الى بيتكم، انت اخذت جانبا من الاثاث وانا حملت الباقي وان شاء الله غدا ، عند طلوع الشمس يجيىء الاولاد والنسوان كلهم ، انهم فرحون جدا « لانهم سيعزلون من بيتنا الخربان » فتحير اللص وقال : « خذ مالك وارحني من شرك » .

ويتضح لنا من النوادر السابقة ان جحا كان دائما اذكى من لصوصه وان هؤلاء اللصوص دائما حمقى وانه عرف كيف يتخلص من شرورهم . ولم يعد في بيت جحا ما يغري اللصوص بالسرقة فسخر جحا من هذه الحقيقة ومن نفسه وواقعه معا كما ياتي :

* دخل لص الى دار جحا فقالت له امراته بلهفة : الا ترى اللص يدور في البيت ؟ فاجابها بكل تأن : لا تهتمي به فياليته يجد شيئا فيهون علينا أخذه من يده .

* شعر جحا بوجود لص في داره ليلا فقام الى خزانة فاختبأ فيها وبحث اللص عن شيء يسرقه ، فلم يجد شيئا ، فرأى الخزانة فقال لعل فيها شيئا ففتحها ، فاذا بجحا فيها فارتج على اللص ولكنه تشجع وقال : ماذا تفعل هنا يا جحا .. ؟ فقال : لا تؤاخذني يا سيدي ، فاني عارف بأنك لن تجد ما تسرقه ، ولهذا استحيت واختبأت خجلا منك .

واذا كان الامن مختلا واللصوص كثر وكذلك قطاع الطريق وأهل الفساد حتى صاروا يدخلون البلاد للنهب جهارا ، ليلا ونهارا ، فان جحا لم تفته هذه الظاهرة فعبر عنها ، وهذا نموذج لنوادره في هذا الموضوع وقد بلغ بالناس الحذر والحرص الى الحد الذي جعل جحا الرمز بعد أن فقد ثقته بالنظام القائم في المحافظةعلى الامن أن يعبر عن ذلك بنادرتين من الذع ما نسب اليه ... : ـ

* ذهب جحا ليستحم في النهر فنزل وترك ملابسه على الشاطىء فسرقها اللصوص ، فعاد الى منزله عريانا ، وبعد أيام ذهب الى النهر ونزل فيه بملابسه فرآه أصحابه فقالوا له : ما هذا يا جحا ؟ فقال : لان تبتل ثيابي علي خير من أن تكون جافة على غيري .

* كان جحا يغرس فسائل الاشجار في بستانه نهارا ، ثم ينزعها وياخذها معه الى البيت ليلا ، فقيل له ، ما هذا الذي تفعله ؟ فقال : الدنيا صارت لا أمان فيها فعلى الانسان أن يجعل ماله في حرز حريز ، فلا أحد يعلم ماذا يحدث .

* كان يمضغ يوما قطعة من العلك (اللبان) في احد المجالس ، فدعوه لتناول الطعام ، ولما جلس ليأكل أخرج قطعة العلك من فمه ، والصقها بانفه ، فقالوا له : ما هذا يا جحا ؟ فأجابهم : الم يقولوا : ان مال الفقير يجب أن يكون نصب عينيه .. ؟ .

* كان جحا مع بعض أصحابه فاتفقوا على أن يسرقوا حذاءه فسمعهم وهم يتهامسون ، فقال احدهم : هل تستطيع يا جحا أن تصعد هذه الشجرة العالية .. ؟ فقال جحا نعم استطيع . فقال الاخر : انك لا تستطيع اني أتحداك ، فخلع جحا حذاءه ووضعه في داخل ملابسه وبدأ يتسلق الشجرة ، فقالوا له : ولماذا تاخذ حذاءك معك .. ؟ اتركه هنا ، فلا حاجة لك به فوق الشجرة فقال جحا : ربما وجدت طريقا اخر في الشجرة فالبسه واسير به فيها .

واذا كان البسطاء السذج من الناس هدفا سهلا ومضمونا للصوص فان الابداع الشعبي لم تفته هذه الظاهرة فسجلها في نوادره المنسوبة الى جحا وقد استغل فيه اللصوص حسن نيته وسذاجته التي تصل الى حد الحمق والغفلة (أحد وجوه الرمز الجحوي) فكان بسبب سذاجته او حمقه وغفلته ضحية لمكر اللصوص وخبثهم وذكاهم .

* سمع ذات ليلة ضوضاء امام داره ، فاراد ان يعرف سببها وكان الليل قد انتصف فقالت له امراته ، نم في فراشك فما يعنيك مما يجرى خارجا في هذه الساعة فلم يعبأ بقولها ، بل التف بلحافه خشية البرد القارس وخرج وبينما هو يسير بين الناس المجتمعين ليفهم سبب الضوضاء ، اذ برجل مجهول اغتنم فرصة الظلام الحالك فخطف منه اللحاف وراح يعدو هاربا فالتفت جحا عن يمينه وعن يساره فلم ير احدا من شدة الظلام ، وبينما وهو كذلك اذ بالمتجمهرين يتفرقون حتى لم يبق احد ، فأحس ببرد شديد وصار يرتجف فركض الى داره وقابلته امراته عند الباب ، فسألته عن سبب الضوضاء فقال : ذهب اللحاف وانتهى الخلاف.

* ذهب جحا الى السوق وشترى حمارا وربطه بحبل ومشى وسحبه وراءه .. فتبعه لصان وحل واحد منهما الحبل ووضعه حول عنق نفسه وهرب الاخر بالحمار وجحا لا يدري ، ثم التفت خلفه فوجد انسانا مربوطا في الحبل فتعجب ، وقال له أين الحمار؟ فقال : أنا هو ، قال : وكيف هذا ؟ قال : كنت عاقا لوالدتي فدعت الله أن يمسخني حمارا فلما أصبح الصباح قمت من نومي فوجدت نفسي ممسوخا حمارا فذهبت الى السوق وباعتني للرجل الذي اشتريتني منه والان احمد الله لان امي رضيت عني ، فعدت آدميا . فقال جحا : لا حول ولا قوة الا بالله ، وكيف كنت ساستخدمك وأنت آدمي اذهب الى حال سبيلك . وحل الحبل من حول عنقه وهو يقول له : اياك أن تغضب أمك مرة أخرى والله يعوضني خيرا . وفي الاسبوع الثاني ذهب جحا الى السوق ليشتري حمارا ، فوجد حماره الذي اشتراه من قبل فتقدم اليه وجعل فمه في أذنه وقال له : يا شؤم عدت الى عقوق أمك الم اقل لك لا تغضبها ؟ انكَ تستحق ما حلَّ بك .

وتبلغ سخرية النموذج الجحوي ذروتها في هذين الموقفين :ـ

* سرق حمار جحا فجاءه أصحابه وقال احدهم : انت مهمل لانك لم تعن باقفال الباب ، وقال اخر : لا بد أن سور البيت كان

قصيرا ، وهذا اهمال منك ، وقال ثالث : لا بد انك فعلت ذنبا فعاقبك الله بسرقة حمارك ، وقال رابع : لا شك في أنك احمق لانك مكنت اللص من سرقة حمارك ، ولم تنتبه له . فقال جحا : لقد اقفلت الباب وسور البيت واحتطت لنفسي ومع ذلك فأنتم تلومونني ، وكان يجب أن تلوموا اللص ام أن اللص في رايكم لا ذنب عليـــه ؟ !

* اكتشف في الصبح أن داره قد سطا عليها اللصوص ... وسمع أهل البلد بالخبر وراحوا يسألونه عن هذا الذي جرى ، وكيف جرى ، كأنهم يحسبونه ــ على حد تعبيره ــ كان مع اللصوص في السرقة ، وانهالوا عليه تعنيفا وتقريعا ، أحدهم يقول له : كيف يحدث هذا وانت نائم لا تستيقظ ؟! هل كنت في نوم أو في موت ؟ وقال ثان : هب أنك لم تسمع ، فكيف بزوجتك لم تسمع هي الاخرى ؟ ! وقال ثالث : انك مقصر لانك لم تضع لباب الدار قفلا متينا ، ورابع يقول : لو انك اقتنيت كلبا شهما ما استطاع اللصوص ان يقتربوا من الباب ، وهكذا أخذ كل واحد منهم يدخل من باب في لومه ، فقال جحا : حسبكم يا أهل بلدتنا انكم أهل انصـــاف حقا ، فقد اشبعتموني تعنيفا وتقريعا ، وما رايت واحدا منكـــم ذكر اللصوص بكلمة سوء ، فهل أنا الجاني الاثيم وهم الابرياء الشرفاء ؟!!

ب ــ جحـــا السارق : ــ

* كان لجحا خروف سمين ، فجعل جيرانه يقولون له ليتك تذبحه وتطعمنا به فلم يفعل ، فسرقوه وذبحوه واكلوه ، وعلم جحا وتظاهر بعدم المبالاة ، واستمر يبحث عن الشخص الذي قام بالسرقة حتى عرفه ، وبعد عام كان لهذا الجار السارق نعجة ، فاختطفها جحا وذبحها واكلها مع أهل بيته . وكان صـــاحب النعجة بخيلا جدا ، فلما لم يجدها جعل يتغنى بمحاسن نعجته : من سمنها وصوفها وكبر حجمها ، وجحا يخالفه في ذلك ، ويصر صاحبها على أن نعجته حوت كل المزايا الحسنة ، وفي مرة كان

الجيران مجتمعين وبدأ الجار يتغنى بمحاسن نعجته ـ كالعادة ـ فصاح جحا بغلامه : اذهب الى المخزن وهات جلد تلك النعجة لينظر الحاضرون هل كان صوفها كالحرير ولونه كبياض الثلج أو هي بعكس ذلك ؟ وهـل هـي في حجـم الهرة أو في حجـم الجمـل ولنتخلص من حكاية ـ النعجة التي يصفها كأنها ناقة صالح . واتى الغلام بالجلد فادرك الرجل أن جحا انتقم لنفسه !

* اراد جحا السفر الى مكان بعيد ، وكان عنده حديد كثير ، فتركه أمانة عند احد جيرانه ، ولما رجع من سفره ذهب الى جاره ، وطلب منه الحديد . فقال الجار : أنا آسف يا صديقي لان عندي فيرانا كثيرة وقد أكلت حديدك كله . فدهش جحا وقال : يا شيخ اتق الله ، أتأكل الفيران الحديد . فقال الجار : نعم ، هذا هو ما حدث ، وان لم تصدقني ، فتعال معي الى المخزن لترى بعينك ان الفيران قد أكلت حديدك . ففكر جحا كثيرا . ثم قال هازئا : انت صادق على كل حال ، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن الفيران تأكل الحديد كما تأكل السمن والسكر والعيش ، ما دامت في بيتك ، الامر لله . وبعد أيام تربص جحا بأحد أطفال التاجر وأخذه معه واخفاه في منزله ، وافتقد التاجر ابنه ولم يجده فجن جنونه ، وفي اليوم التالي حضر جحا الى منزل جاره ، وقال له : يؤسفني يا صديقي ضياع ابنك ، ومما يزيد في حزني عليه انه سوف لا يرجع اليك . فصاح التاجر قائلا : من أين عرفت ؟ قل لي : فقال جحا : اني قد رايت عصفورا يخطفه ويطير به ، فهز التاجر كتف جحا ، وقال : العصفور يخطف ولدا صغيرا ، يا شيخ اتق الله ، وقل كلاما غير هذا . فابتسم جحا وقال : وانت يا شيخ اتق الله ، وقل كلاما غير هذا ، فقال الجار : وماذا قلت ، فقال جحا : لقد قلت ان الفيران اكلت حديدي ، فعرف الجار أن جحا خطف الولد ، كما انكر هو الحديد . فقاده الى مخزن كبير تحت الارض ، وقال له : يالك من « عصفور » ماكر ، خذ حديدك ، وهـات ابني !

* حدث ان سرق جحا حمارا ، ومضى لبيعه في السوق ، فسرق منه ، فسأله احدهم : بكم بعت الحمار ، فقال جحا : براسماله !

* اخذ جحا زكيبة ودخل بستانا فلم يجد فيه صاحبه فقطع جزرا ولفتا وغيرهما ووضعهما في الزكيبة ، واذا بصاحب البستان قد اتى فقال له : من اتى بك ، وما الذي في الزكيبة ؟ فقال جحا : هبت ريح عاصف فحملتني حتى رمتني في هذا البستان . فقال له البستاني سلمت لك أن الريح رمتك هنا فمن قطع هذا الجزر واللفت وغيره ؟ فقال جحا : ان الريح لما رمتني صارت تدحرجني من جنب الى جنب فكلما امسكت جزرة أو لفتة أو غيرها طلعت في يدي . فقال البستاني : قد سلمت لك بهذه الحجة ، فمن الذي عبأها في الزكيبة ، فتحير جحا وقال : والله يا اخي انا كنت افكر في ذلك حتى جئت انت .

* دخل جحا بستانا وصعد شجرة مشمش ليأكل منها فرآه صاحب البستان وصاح به : ماذا تفعل هنا ؟ فقال جحا أنا بلبل اغني . فقال له : اذن فغرد لنسمع ، فجعل يصفر مقلدا البلبل فضحك الرجل وقال : اهكذا تغرد البلابل — فقال جحا : البلبل العادي لا يغرد افضل مما سمعت ، فضحك الرجل وسامحه .

* حمل مرة سلما على كتفه ليصعد فوقه على حائط بستان فصعد واخذ السلم معه في البستان ليسرق من الفواكه وحضر البستاني فراى جحا ومعه السلم . فقا لله : ماذا تفعل ؟ فقال : اريد أن ابيع السلم « حراج مزاد باربعين قرشا هل لكم غرض ..؟ هل لكم هوى ؟ سابيع » ، وعمل كما يعمل الدلال في السوق . فقا لله البستاني : يا اخي هل تباع السلالم في البساتين . فأجاب جحا يا احمق البيع جائز في اي مكان .

ومن خلال هذه النوادر نرى ان مسرح الاحداث الذي يجول فيه جحا سارقا هو البساتين العامرة يسرق ليأكل ... وهو يسرق دائما في وضح النهار .. ولابد ان يلتقي بصاحب البستان استكمالا للحبكة الفنية في النادرة ـ وان جحا لا يجزع أو يفزع من ضبط صاحب البستان له .. بل يمضي معه في الحديث كأن شيئا لم يكن ، وينتهي الموقف بنكتة جحوية مرحة أو دعابة ظريفة أو فكاهة لطيفة ، ويعفو صاحب البستان بعدها عن جحا .



٢
جحا والنقد الاجتماعي

١ ــ جحا والتهكم الاجتماعي

اذا كانت ركائز او محاور فلسفة النموذج الجحوي ــ العربي ــ تقوم على عنصرين محوريين كبيرين هما النقد السياسي، والنقد الاجتماعي ... فان الامر الذي ينبغي أن يشار اليه باهتمام أن نوادر السخر والنقد الاجتماعي هي أضعاف اضعاف نوادر الرمز السياسي لجحا (١) .

وهذه النوادر تعكس الى جانب نزوعها الى السخر تجسيما حيا لما يريده الوجدان القومي العربي من خلال ابداعه الفني الفكاهي ، من ترسيب للتجربة أو الحكمة العملية ، ونقد للحياة الاجتماعية ، ولهذا لم تشأ الامة العربية التي ابدعت هذا النموذج ــ كما ذكر أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس (٢) ــ أن تجعل هذا النموذج أو المثال سلبيا او منعزلا ... وانما جعلته نموذج رجل عادي من الناس ، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم ، عليه أن يسعى في سبيل العيش ، ويختلف الى الاسواق ، ويرحل الى الامصار ، ويلتقي بالحكام ، ويعايش العامة ويتحدث اليهم ويختلف

---

(١) يعود السبب في ذلك الى ان النوادر السياسية ، نوادر موقوتة او مرهونة بظروفها التاريخية والسياسية ، ومن ثم فدورها أو وظيفتها تنتهي بانتهاء هذه الظروف في الاغلب ، فضلا عن حذر الناشرين من تدوينها في طبعاتهم لمجموعات النوادر المنسوبة لجحا .

(٢) دفاع عن الفولكلور ص ٢٠٣ .

معهم على تباين طبقاتهم ومراتبهم ، وله معهم نوادره ، ولهم معه نوادرهم التي تجسم فلسفته الخاصة ، بل تجسم ما يريده الشعب العربي الذ يتبناه في ابداعه الشعبي على مر أجيال متعاقبة متصلة مستمرة ، وأثراه باضافاته الكثيرة من واقع تجربته ورؤيته وفلسفته ، وأوقفه من قيمه ومعاييره ومثله السلبية أو المختلة موقف المتهكم بها الساخر منها ، حتى عد بحق ناقدا اجتماعيا للحياة العربية له من الشمول والمرونة والقدرة على التطور ومسايرة الزمان والمكان .

وذلك في أسلوب مميز يجمع بين الفكاهة والسخرية والحكمة في آن واحد ، ومن ثم أصبح جحا المتحدث بلسان الشعب العربي في كل شأن من شئون الحياة ، « فهو الواعظ ، والفقيه ، والفيلسوف ، والحكيم ، والساخر ، والضاحك ، وما شئت من كل ما تجيش به عواطف الشعب نحو احداث ووقائع الحياة (١) ، ولهذا يتراءى لنا النموذج الجحوي في هذا الفصل في شخصيات متباينة ، يمثل كل منها جانبا من جوانب الحياة المختلفة ورافدا من روافد التجربة الاجتماعية . فيعمل على ترسيب معتقداتها وقيمها ومثلها ومعاييرها الايجابية ، ولهذا فسوف يعيش هذا المثال أو الرمز حقيقة موجودة في نفس كل انسان ، لانه يمثل تلك الشخصية التي تفتقدها كل أمة « استكمالا لجانب من شخصيتها ، وهو جانب يختفي دائما وراء أحداث الحياة ، وتقاليد المجتمع وتدافع الناس في غمرة الصراع على الرغيف ، ولكنه يظهر ويتجلى واضحا في مجال التحرر من القيود ، والانطلاق من ربقة التقاليد ، اي في مجال الصراحة والبحبحة ، ومواجهة الامور مكشوفة على حقائقها ، وهو جانب لا يمكن أن تحيا الامم بدونه أبدا » (٢) .

---

(١) محمد فهمي عبد اللطيف ــ مذكرات جحا ص ١٤ .

(٢) مذكرات جحا ص (٤) .

ولسوف نجد أنفسنا في هذا المقام ـ امام المئات من النوادر التي تصور الحياة الاجتماعية بجوانبها المتعددة وتجاربها المختلفة . ولما كان النموذج الجحوي ونوادره ليس الا فلذة هذه الحياة ونتاج تجربتها الطويلة ، فان النوادر لا تحتاج ـ حيث تعيش ـ الى تفسير ، فالحياة لا تشرح نفسها ان صح هذا التعبير ، لان النوادر هنا لا تبحث لنا عن غير المالوف او عن الخوارق ، وانما تعطينا مالوفات الحياة اليومية .

ومن ثم فان جهدنا هنا لا يتمثل في الشرح والتحليل لهذه النوادر ، أو تبريز دلالاتها النفسية ووظائفها الاجتماعية ، بقدر ما يتمثل في التصنيف ، واستخلاص العناصر المحورية لنوادر السخر الاجتماعي عند النموذج الجحوي ، ولا نتوقع بطبيعة الحال في هذا المقام أن نستشهد بكل ما أثر عنه من نوادر ، بل سوف نلجأ الى انتخاب أو انتقاء امثلة محددة تؤكد ما نريد ان نستخلص من دلالات ونتائج .

وسبق أن اكدنا أن الرمز الجحوي ، في نقده لجوانب الحياة الاجتماعية قد سلك مسلك الفكاهة ، وفقا لما يؤثره المجتمع العربي الذي يجمع بين الذكاء اللماح والتهكم الساخر ، وهذا الجنوح الى السخر هو كما ذكرنا ، الثأر السلمي العادل أو القصاص أو الجزاء الاجتماعي الذي تحافظ به الجماعة على صميم كيانها الاجتماعي .

وعلى كل حال فالتهكم الاجتماعي يحقق غايتين : أولاهما ، أن المجتمع قلما برىء من عيوب يضيق بها كثير من الناس ، وهم لا يستطيعون ان يحبسوا ضيقهم بين جوانحهم ، ولا يستطيعون في الوقت نفسه ان يقاوموا هذه العيوب مقاومة مادية لانها ليست عدوانا عليهم ، وليست جرائم يعاقب عليها القانون ، او هي جرائم لكن القانون عاجز عن القضاء عليها ، لخفائها ، او لنفوذ أصحابها ،

او لعارض آخر ، وفي هذه الحالة لا مندوحة للساخطين من ان يسروا عن انفسهم بالفكاهة والتهكم والضحك .

اما الغاية الاخرى فهي ان العيوب الاجتماعية نوع من التصلب والجمود والتخلف عن مجاراة المجتمع ومسايرة المثل الاعلى ، ولا سبيل أجدى من الفكاهة والتهكم في تقويم اعوجاجهم ، وعلاج امراضهم ، حملهم على المرونة في نفسياتهم وطباعهم واخلاقهم واعمالهم ، وغني عن البيان ان التهكم الاجتماعي محتاج الى بصيرة بأحوال المجتمع ، وملاحظة دقيقة لما فيه من عيوب ، وخيال مسعف للموازنة بين الواقع ، وما يجب أن يكون ... وهذا التهكم يشبه الهجاء بعض الشيء ، لكنه يخالفه أكثر مما يشبهه ، لان الهجاء صدى للحنق والموجدة ، ولكن التهكم صدى للنقد ، ولان هدف الهجاء الهدم والتجريح ولا شيء غيرهما ... ولكن هدف التهكم الاصلاح والاكمال وليس وراءه هدف غيرهما .

والحق ان التهكم في الادب لون من الوان السخرية المتفلسفة او الفلسفة الساخرة ، ومن هنا كان التهكم الاجتماعي صورة من نظرة صائبة الى الحياة والاحياء ، واشعاعا من مزاجه وتفكيره ، وهو في الوقت نفسه صورة للمجتمع الذي يتهكم به الساخر ... على ان التهكم قد يعتمد على المبالغة ، كما يعتمد على المفارقة والجمع بين النقيضين ، لابراز المعالم وتجسيم الصورة (١) .

ولهذا لا غرو ان يلتقي في وجدان الرمز الجحوي تجسيم المثل العليا ، وتشخيص الفضائل الثابتة كما يتصورها بنقده لحياته وحياة من حوله ، وهو يرسم نقداته لبعض الخصال وبعض الفعال رسما قريبا من الكاريكاتير ، يضخم خصلة ، ويبرز خليقة ، ويبالغ في أبعاد ما يريد أن يظهر نفسه عليه ، وصنيع الوجدان الشعبي في

---

(١) الدكتور احمد الحوفي ــ الفكاهة في الادب ص ٢٩٠ .

صدق احساسه بواقعه ، وادراكه لبعض عيوبه يجعلـه نزاعـا الى الاصلاح ، راغبا في التطور ، متمثلا لكمال الممكن (١) . فالتهكم الاجتماعي اذن لون من السخرية ، يراد به نسبة عيب الى شخص أو تضخيم عيب في شخص ، وسيلة الى تهذيبه واصلاحه ، ليخاف ذلك العيب ان لم يكن فيه ، وليبرأ منه كله او بعضه ان كان فيه ، فهو اذن نوع من الزجر والردع شبيه بالعقوبة ، لكنه اخف منهـا وقعا ، وان اتفق معها في الغاية ، وهي خدمة الفرد والمجتمع ، فمبعث التهكم الرغبة في الاصلاح ، وهو الوسيلة للسخرية مـن الحمقى والاشرار والمعوجين ... على أن العيوب الخلقية والنفسية ليست كلها مثيرة للضحك ، وانما يثير الضحك بعضها ، وهو الذي لا يتعدى ضررها صاحبها ، وقلما يتجاوز الى غيره من الناس ... وان أصاب ضررها غير صاحبها مسه مسا خفيفا ضعيفا وغير مباشر ، ونستطيع ان نقول انها العيوب الشخصية التي لا تساير المثل العالية للمجتمع ، كالبخل ، والجبن ، والكسل والغرور وحب الظهور (٢) . وكذلك النفاق الاجتماعي والرياء والتلون ، والجهل والامية الفكرية او التعالم ، والخضوع للخرافات والاباطيل ، والايمان بالشعـوذة والمشعوذين ، والمحاكاة العميـاء ، وغريزة القطيع ، فضلا عن الطمع والجشع والشره ، والتهكم بالبلاهـة والحماقة والغفلة ، وكذلك بالصفاقة والثقل وخلف الوعد ونقض العهد وغيرها كثير مما نعده من العيوب الاجتماعية .

على اننا نلاحظ أن المثال الجحوي في هذا النوع من النوادر قد يكون سلبيـا تارة وايجابيا تارة أخرى ... **سلبيا** بمعنى أن العيوب قد نسبت الى شخصه ، **وايجابيا** بمعنى أنه هو الذي انتقد عيوب غيره . بعبارة اكثر دقة : ان النمط الجحوي هنا تتبادله المثالب والمناقب على السواء ، ولكن النتيجة او الدلالة التي تهدف

---

(١) الدكتور عبد الحميد يونس ـ مجتمعنا ص ٣١ .

(٢) الدكتور احمد الحوفي ـ الفكاهة في الادب ص ٢١٨ .

اليها نوادره واحدة ، فغايتها تجسيم هذه العيوب الاجتماعيــة والخلقية بغية الاصلاح والوصول بها الى الكمال الممكن ، ونقــــد الانماط اللااجتماعية في المجتمع وما اكثرها ... وسوف نعرض لاهم هذه الانماط في المأثور الجحوي : ــ

على انه ينبغي ان نؤكـد من جديد ما ذهب اليــه استاذنا الدكتور يونس حين قال : « لم يكن جحا مخبولا أو ناقص العقل ، ولكنه كان يتناول الامور من اقرب الزوايا الى الحق والواقع ، فيبدو مناقضا لصنيع الاخرين الذين لا يتصورون الحق قريبــا ويمدون ابصارهم وبصائرهم الى بعيد ، كما انه كان صريحا غاية الصراحة في التعبير عن نفسه ، لا يشغل باله بأن الاطار الاجتماعي كثيرا ما يفرض على الناس أن يسكتوا أو يرمزوا ، وهذه الصفة تنطبق على أمثاله ، فهو يستسلم دائما لرغباته في لحظاتها ، وهذه الفلسفة الخاصة به تجعله دائما بريئا من الخوف والكبت وتبرزه أقوى من غيره ، ولعلها هي التي جعلت شخصيته اقرب ما تكون الى من يسقط عنه التكليف الاجتماعي » (١) .

* * *

لعل اكثر ما يغيظ في الناس ويكون هدفا مغريا لسخريات هذا الرمز هو **جانب الغفلة والحماقة** فيهم ، وما يؤدي اليه ذلك ــ بوجه خاص ــ من قبولهم لكثير من بدهيات الوقائع والامور في تبعية مطلقة دون تفكير أو تمحيص الى حد « المحاكاة » العمياء أو ما يسميها البعض « بغريزة القطيع » وما ينجم عنها من مفارقات تكون مثارا للسخرية ، وليس أقرب الى احتواء هذه المقولة والتعبير عنها في المأثور الادبي من النمط الجحوي الذي يستهدف أول مــا يستهدف ابراز تلك الغفلة التي تنطبع في بعض الطبائع البشرية ، وفتح الاذهان المغلقة عن كثير من حقائق الحياة ... وبديهياتها أيضا ، ولسوف نرى عشرات النوادر في هذا المعنى ــ عند حديثنا

(١) دفاع عن الفولكلور ص ٢٠١ .

عن الحمق والتحامق ، غير اننا هنا نشير الى بعض النمـاذج ، من امثلة :

* كان جحا يسير في الطريق ، فأدركه الجوع ، فجلس تحت ظل شجرة ، واخذ يتناول طعاما كان معه ، فمر به رجل يعرفه من اولئك المتحذلقين الرقعاء ، وبدلا من ان يبادله التحية نظر مبحلقا وقال : ما هذا الذي انت فيه يا جحا ؟ قال جحا : ما فيه سائـر الناس . قال : كلا ، ولكنك تخرج على اوضاع الناس . فقال جحا : في اي شيء ؟ قال : كيف يليق بك أن تأكل يا شيخ هكذا على قارعة الطريق مما يحط من قدرك في أعين الناس فضحك جحا في نفسه ساخرا ثم قال : وأين الناس ؟ قال الرجل : هؤلاء الذين يمرون بك ، قال جحا : هؤلاء ليسوا بناس ، ولكنهم بقر . فانكر عليه الرجل قوله ولم يشأ جحا ان يدخل معه في جدل ، فيسمع الناس ما كان بينهما ، وتدور العاقبة عليه في النهاية ، ولكن سرعان مـا اسعفته بديهته بالحجة الرادعة ، فنهض من مكانه وقال مهلا يـا اخي : لا تتعجل وانتظر . ثم علا جحا وهدة من الارض ونادى بأعلى صوته ، أيها الناس ، اني واعظكم فاستمعوا ، واقبل الناس يتواكبون من كل صوب ، ثم ابتدأ حديث الوعظ قائلا : ـ يا بني آدم ، انتم كالانعام بل اضل سبيلا ، انتم حطب جهنم يوم القيامة ، ... فما بقي واحد فيهم الا وقد تحدر على خـده دمعة أو اطرق آسفا على حاله.. فمضى جحا يفيض عليهم من أحاديث الامم الغابرة حتى انتهى ما في جعبته ثم قال ، أيها الناس ، لقد جاء في الأثر ان من أخرج لسـانه فضرب به أرنبة أنفه غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما بقي احد منهم الا وقد اخرج لسانه ، وراح يحاول ان يضرب به ارنبة انفه !! فتركهم جحا على هذه الحال ثم التفت الى صاحبه قائلا : ـ

انظر أيها الاحمق الناس هؤلاء ام بقر ؟ .

* كما اذاع في يوم من الايام انه سيطير في اصيل يوم الجمعة القادم من فوق مئذنة المسجد الكبير في الكوفة ، حتى اذا حـان

الموعد تجمع الناس من كل مكان ، وضاق بجموعهم الميدان اطل جحا من اعلى المئذنة ونظر اليهم ساخرا من بلاهتهم ، وجعل يمد ذراعيه ملوحا بها ، في الهواء ، ويحرك يديه مرة بعد اخرى كأنما يتهيأ للطيران بالفعل ، وطال انتظار الناس ولم يطر ، فصاحوا به ان ينجز ما وعد ، فنظر اليهم ساخرا ثم قال : كنت احسبني منفردا ، بالغفلة والغباء ، والان أيقنت انني واياكم في الحماقة سواء ، بل رأيت فيكم من يفوقني في هذا الباب ، رايتكم تصدقون ما لا يصدقه جحا ، وتنخدعون بما لا ينخدع به ، تتخيلون ما لا يمكن أن يكون أنه يكون ، خبروني أيها العقلاء ــ كيف صدقتم انسانا مثلي ومثلكم يستطيع ان يطير بغير جناحين ؟!

* وقع احد الناس مغشيا عليه ، فظن اهله انه مات فغسلوه وكفنوه وحملوه على النعش وساروا به ، وفي الطريق تنبه الرجل ، فقعد في النعش ، وصاح : انا حي لم امت خلصني يا جحا ، فقال جحا : عجبا أأصدقك واكذب كل هؤلاء المشيعين ..؟

* كان لجارته جدي اعجف مشوه ، حاولت أن تبيعه فلم تفلح . فأشفق جحا عليها وقال لها : غدا اذهبي الى السوق وساجيئك واساومك فيه فلا تقبلي ثمنا فيه اقل من مائة دينار وفي اليوم التالي ذهبت المراة بجديها الى السوق وذهب جحا وطاف بين البائعين ، ومعه ذراع يقيس بها ، ثم اقبل على المراة ، وكأنه لا يعرفها وجعل يقيس طول الجدي وعرضه وارتفاعه واقبل عليه الناس ينظرون ثم بدأ يساومها في الثمن من دينار الى عشرة الى عشرين وثلاثين ... الى التسعين ، وهي تمتنع عن الموافقة وقالت لا ابيعه بأقل من مائة دينار ، فأبدى اسفه انه لا يملك هذا المبلغ وتركها ومشى ، وجاءها احد التجار وقد حسب ان في الجدي سرا عظيما ، فاشتراه بمائة دينار ، ثم ادرك جحا وقال له : ــ ارجو أن تعرفني الفائدة التي كنت تريد الجدي لها ، فجلس جحا واعاد

قياس الجدي طولا وعرضا ، ثم قال : لو كان طوله يزيد اصبعين وعرضه يزيد اصبعا لصلح جلده أن يكون طارا وطبلة (1) .

* * *

ولم يفت النادرة الجحوية أن تسخر من هؤلاء الذين يتسمون **بالمبالغة** وما تسببه لاصحابها من مواقف حرجة ، ما كان اغناهم عنها لو التزموا الصدق والاعتدال في أقوالهم أو سلوكهم :

* « كان جحا يبالغ في كلامه ، فقال له أحد أصدقائه : اذا لاحظت في كلامك مبالغة ، فسأجعل العلاقة بيني وبينك أن أقول « احم » ، وفي يوم جلس جحا مع بعض الناس ، فقال لهم : اني بنيت مسجدا في البلد طوله ألف متر ، فقال صديقه « احم » فسكت جحا ، فسأله أحد الناس : وكم عرضه ..؟ فقال جحا : وعرضه متر واحد ، فتعجب الناس ، وقالوا له : لماذا جعلته ضيقا جدا ..؟ فالتفت الى صديقه وقال : ـ وماذا نفعل ..؟ الله يضيقها على من ضيقها علينا » .

* جلس جماعة يتفاخرون بفروسيتهم ، فقال جحا : أتي يوما بحصان حرون فتقدم اليه أحد الفرسان ، فلم يستطع أن يقترب منه ، وقفز واحد ليركبه فرفسه ، وجاء آخر فلم يمكنه من الركوب ، فأخذتني الحمية وشمرت عن ساعدي ، وجمعت أثوابي ، ومسكت بعرفه وقفزت (وهنا دخل أحد معارف جحا) فأكمل جحا حديثه قائلا : ولكني لم ستطع أن أركبه .

* « ويرتبط بهذا الموقف كذلك ما نسميه « **بالفشر** » اذ تصوره النادرة الجحوية ـ في مصر ـ أيضا « فشارا » ومن الطريف

---

(1) تروى النادرة بصورة اخرى ، حيث نرى ان جحا نفسه هو الذي كان يملك الجدي ، فلما اراد بيعه لم يتقدم لشرائه أحد ، فقال لامرأته اذهبي بـه غدا الى السوق ، وتنكر جحا في زي خواجة وبدات المساومة ... على نحو ما رأينا في النادرة .

ان هذه النادرة هي النادرة الوحيدة التي اقترن فيها اسم جحا بلقب (الحاج) وهو لقب لم يضف ـ هنا ـ من قبيل الصدفة ؛ تقول النادرة : جحا رجل خواف . ولكنه يكذب على زوجته كل يوم ويحكي لها قصة من خياله عن شجاعته وقوته ، حتى سئمت زوجته من كذبه ، لانها تعرف انه يخاف من خياله ، وكان (الحاج) جحا يشتري كل يوم عصا ، ويدهنها بالدم ، ويدعي أنه قتل بها لصوصا خرجوا له في طريقه ليلا . وفي يوم اختبأت زوجته في الطريق ، فلما اقترب منها قالت : (احم احم) فخاف الحاج جحا ، ورمى العصى على الارض وهرب ، فأخذتها زوجته وهي فرحانة .. ورجعت الى البيت قبله ، وبعد مدة اتى الحاج جحا ينهج ، وريقه ناشف فسألته عن حاله ، فقال لها : ان اربعين لصا خرجوا علي في الطريق، والدنيا عتمة، فقتلتهم جميعا بالعصا . فقالت زوجته :وابن العصا ..؟ فقال الحاج جحا : لقد تكسرت على رؤوسهم فرميت بها في الطريق لانها لم تعد تنفع . فقامت واحضرت العصا ، وقالت له : ها هي العصا سليمة يا حاج جحا ، اني قد وجدتها في الشارع . فأحضرتها اليك ، ولكني بعد أن جئت الى البيت وجدت اللصوص الاربعين الذين قتلتهم قد عادت اليهم ارواحهم وجاءوا الى بيتك ليسرقوك انتقاما منك . فقال الحاج جحا : وابن اللصوص ؟ فقالت الزوجة : انهم مختبئون تحت السلم فاخرج اليهم لتقتلهم ، فذهب الحاج جحا الى سريره ، وغطى جسمه باللحاف ، وقال لزوجته : اخرجي اليهم انت ، لاني اكره ان اقتل اشخاصا احياهم الله !!

* جلس جحا في المقهى يبالغ في كلامه . ويدعي ان عنده كثير من الذهب والنقود فسمعه لص ، فطمع فيه فلما اتى الليل ذهب اللص الى منزل جحا ليسرقه ، وفتش كل الحجرات فلم يجد شيئا يستحق السرقة . فاغتاظ غيظا شديدا ، ووقف يلعن جحا ويشتمه واراد الخروج ، فوجد جحا واقفا بالقرب من الباب ، فخزي اللص ، ولكن جحا رحب به ، فسكت اللص ، واتجه الى الباب ليخرج فقال له جحا : اقفل الباب من فضلك ، لئلا يدخل

اللصوص ، ويسرقوا ما عندنا من الذهب والنقود ، فقال اللص في غيظ شديد : الله يلعنك يا جحا ، والله ما طمعني فيك الا كلامك هذا !

* * *

واذا كانت **العبرة في الجوهر لا في الشكل** ، والانسان بمحضره لا بمظهره كما يقولون فان هناك ــ مع ذلك ــ كثيرا ممن يجهلون المقاييس الحقيقية للعظمة ، فيرونها في فخامة الثياب او ضخامة الجسم ، انما يعظم الانسان وترتفع مكانته بكمال عقله وحسن تصرفه .. هذه هي المقولة التي تتناولها النادرة الجحوية في هذا المقام : ــ

* « كان جحا مدعوا في وليمة ، فلبس ثيابا مقطعة وذهب اليها فلم يعيروه التفاتا فقام وذهب الى منزله ، ولبس ثيابا حسنة وركب بغلة ، واتى الى الوليمة ، فتلقوه واكرموه وعظموه ، واجلسوه في صدر المجلس ، فلما حضرت المائدة ارخى كمه عليها ، وقال : كل يا كمي ، فتعجب الحاضرون ، فقال جحا : ان اعتباركم كان لكمي ، وليس لي ، فهو احق بالاكل مني !

* ورد أحد الاميين خطاب مكتوب باللغة الفارسية ، فصادف جحا في طريقه وقال له : اقرأ لي هذا الخطاب ، وفهمني معناه ، فتناول جحا الخطاب ، ونظر فيه فرآه بالفارسية ، فرده اليه ، وقال له ، ليقراه لك أحد غيري ، فأصر الامي على أن يقراه هو ، فقال جحا : ان أفكاري مضطربة فقد تشاجرت مع امراتي ، وهذه كتابة بالفارسية ، ولو كانت بالعربية لما استطعت أن اقراها وأنا في هذه الحال ، فغضب الرجل ، وقال له : اذا كنت لا تعرف القراءة فلماذا تضع على راسك هذه العمامة الكبيرة ، وتلبس هذه الجبة ، وتتزيا بزي الشيوخ ؟ فغضب جحا ورمى اليه بالعمامة والجبة وقال له : اذا كانت القراءة بالعمامة والجبة فخذ البسهما ، واقرأ لنا سطرين من هذا الكتاب !

* ذهب جحا يوما الى الحمام ، وكانت هيئة ملابسه لا تبعث على الاحترام فلم يعتنوا به ، واعطوه منشفة قديمة ، ولم يقوموا بخدمته كما ينبغي ، وبعد ان انتهى أعطاهم مبلغا كبيرا من المال ، فعجبوا من ذلك وفرحوا ، ثم جاء في الاسبوع التالي فقابلوه بحفاوة واكرام ، وقدموا له مناشف نظيفة واظهروا له عناية فائقة ، فلما انتهى قدم لهم مبلغا ضئيلا جدا ، فغضبوا وقالوا له : هذا لا يعادل ما قمنا به نحوك فقال : لا تغضبوا واجعلوا اجرة هذا اليوم للمرة السابقة واجرة المرة السابقة لهذا اليوم !

* كان يشتري بيضا ، كل تسع بيضات بدرهم ، ويبيع العشرة بدرهم فقيل له : ولماذا الخسارة يا جحا ؟ فقال : يكفي ان يقول الناس عني انني تاجر ... وأن يراني أصحابي ابيع واشتري !

* * *

والغرور ايضا مرض نفسي يدفع المصاب به الى ان يعطي نفسه أكثر من حقها ، ويزعم انه أقدر الناس وأذكاهم وابعدهم نظرا ... الخ والناس يرونه في غروره كذابا دعيا .. ولا شك في ان تهكمهم به نوع من القصاص منه ، وتأديب له وحماية للمجتمع منه ومن أشباهه .

* ادعى احد الناس انه لا يستطيع احد ان يخدعه أو يغشه ، فذهب اليه جحا وقال له : انت تزعم انه لا احد يستطيع خداعك او غشك ، فقال الرجل بكل غرور : نعم ، فقال جحا ، ولكني قد حضرت اليك لاتحداك واريك أني استطيع ان اخدعك ، واظهر للناس غباوتك ، فقال الرجل : لا أحد يستطيع ذلك ، واذا استطعت انت فافعل ، فقال جحا ، اتراهنني على ذلك ؟ فقال الرجل : نعم اراهنك . فقال جحا : ان ذلك لا يكون الا في الخلاء فتعال بنا الى هناك ، وانا اريك كيف يكون الخداع . فوافقه

الرجل ، وذهب مع جحا الى الخلاء ، وكان الهـواء شديدا . والسماء تكاد تمطر ، فلما بعدا عن البلدة راى جحا من بعد رجلا يركب حمارا فقال لصاحبه : اني لا استطيع ان اخدعك الا امام جمع من الناس ليحكموا بيننا ، فانتظر هنا حتى احضر الناس حالا ، وسأركب الحمار خلف هذا الرجل لاحضرهم بسرعـة . فوافقه الرجل فذهب جحا الى بيته ، وجلس يتدفأ وظل الرجل واقفا في الهواء العاصف ، والبرد الشديد ، والمطر المنهمر مدة حتى مل الوقوف واصيب بالبرد ، فلما طالت غيبة جحا ، وقـد هجم الليل رجع المغرور الى البلدة يسب ويلعن ، وذهب الى بيت جحا ليلومه على انه تركه واقفا في البرد والمطر والعواصف مدة طويلة فقال جحا : هذا هو الخداع يا سيدي الذكي ، المجـرب للامور ، اذهب لحال سبيلك ، واحذر ان تدعي انه لا احد يستطيع ان يخدعك !!

* * *

واذا كان الكرم فضيلة لها قيمتها واثرها فقد كان **البخل** رذيلة بل نقيصة يبغضها الناس والمجتمع ، ولهذا كان البخلاء اهدافا مغرية للاذع القول والسلوك ، ومثارا للتهكـم والتندر عليهم ، وقد حفلت النوادر الجحوية بعدد كبير جدا منها .

* قال له ابوه : هات الطعام واقفل الباب . فقال جحا : ياابي ليس هذا بشرط حزم ، بل قل : اقفل الباب أولا ، ثم احضر الطعام !

* قال جحا لاحد البخلاء : لم لا تضيفني ، فقال له : لانك جيد المضغ سريع البلع اذا اكلت لقمة هيأت اخرى ، فقال جحا : يا اخي اتريد اذا اكلت في بيتك ان اصلي ركعتين بين كل لقمتين !

* ولعل من اطرف ما نسب الى جحا تلك القصة التي حدثت له مع أعرابي : كان جحا ماشيا في بادية ، وكان جائعا ، فـرأى اعرابيا ومعه طعام يشرع في اكله ، فتقدم اليه ، وكان طامعا أن يدعوه للاكل ، ولكن الاعرابي قال له : ـ

ـ من اين أقبلت يا ابن العـم ؟
ـ مـن الثنيـة .
ـ هل أتيت منها بخـير ؟
ـ سـل عمـا بدالك .
ـ كيف علمك بحينـا ؟
ـ أحسن العلـم .
ـ هل لك علم بكلبي نفـاع ؟
ـ حارس الحي لا يستطيع أحد ان يقربه من قوته وشدته .
ـ فكيف علمك بزوجتي أم عثمـان ؟
ـ بخ بخ . ومن مثل أم عثمان ؟ لا تدخل الباب الا متبخترة بالثياب المعصفرات مثل الطاووس .
ـ وكيف ابنـي عثمـان ؟
ـ وأبيك ، انه شبل الاسد ، ويلعب مع الصبيان .
ـ وكيف جملنا السقـاء ؟
ـ ان سنامه ليخرج من الغبيط .
ـ وكيف دارنا الان ؟
ـ وأبيك انها لخصيبة الجناب ، عامرة الفناء ، كانها دار النعمـان .

فقام الاعرابي عنه وانتحى ناحية يأكل طعامه وحده مطمئنا بمـا سمعه دون أن يدعو جحا للاكل معه ، فمر كلب فصاح به الاعرابي وقـال : ـ

ـ يابن عم ، اين هذا الكلب من نفـاع ؟
ـ يا أسفي على نفاع ، لقد مات فكثر السارق في الحي بعد موتـه !
ـ وما سبب موتـه ؟
ـ اكل من لحم الجمل السقاء فاغتص بعظمه منه فمات .
ـ انا لله ، او قد مات الجمل ؟ فمـا أماتـه ؟
ـ عثر بقبر ام عثمان فانكسرت رجله !
ـ ويـل أمـك ، اماتت أم عثمان ؟
ـ أي وعهد الله ، سقطت الدار عليها !
ـ وهل هدمت الـدار ؟
ـ نعم ، ونهبوا جميع ما فيها حتى الطوب والخشب !

فرمى الاعرابي بطعامه ونثره ، واقبل ينتف لحيته ، ويقول : ـ

ـ الى أيـن اذهب ؟

فرد جحا مسرعـا : الى النـار .

واقبل جحا يلتقط الطعام ويأكله ، ويهزأ به ويضحك ، وهو يقول : لا أرغم الله الا انف اللئام .

ومن أطرف ما نسب الى جحا في هذا الباب تلك النادرة : ـ

* وفد جحا على قرية سمع عن أهلها انهم بخلاء فأراد ان يجرب ذلك بنفسه فذهب الى احدهم وطلب منه أن يسقيه فأحضر له اناء فيه لبن ولما شربه شكر للرجل صنيعه ثم قال له : سمعت يا أخي أنكم بخلاء ولكنني وجدتكم كرماء ، وقد احضرت لي بدلا من الماء لبنا ، فقال الرجل : لو لم يكن هذا اللبن سقط فيه فأرا لما جئت به ! فغضب جحا ، والقى الاناء على الارض ، فصاح الرجل : لا تكسر الاناء الذي تبول فيه ابنتي !!



ولا شك في ان القناعة خلة حميدة تدل على رضا صاحبها ، وغضه بصره عما في أيدي الناس ، اما **الشره فانه تجمع الجشع والحرص والاثرة** ، لذلك كان الشره مثارا للتهكم والفكاهة في النادرة الجحوية :

* قيل لجحا ما بلغ من **طمعك** ..؟ قال : ما رايت عروسا تزف الا ظننت أنها لي ، ولا رايت جنازة تمر الا ظننت أن صاحبها اوصى لي بشيء (ولا رايت اثنين يتناجيان الا خيل الي انهما يأمران لي بمعروف) . ولقد كان الصبيان حولي يوما يلعبون بي ، فقلت لهم لابعدهم عني : ان في دار فلان وليمة ، فذهبوا اليها مسرعين ، فلما بعدوا عني وغابوا ظننت نفسي صادقا فتبعتهم (١).

* جلس يوما مع زوجته فتمنى أن يهدى اليه خروف مسلوخ ليتخذ من الطعام لون كذا ولون كذا ـ فسمعته جارة له فظنت أنه أمر بعمل ما سمعته ، فانتظرت الى وقت الطعام ، ثم جاءت فقرعت الباب ، وقالت شممت رائحة قدوركم ، فجئت لتطعموني منها ، فقال جحا لامراته : انت طالق ان اقمنا في هذه الدار التي جيرانها يتشممون الاماني .

* طبخ طعاما وقعد يأكل مع زوجته ، فقال : ما أطيب هذا الطعام لولا الزحام . فقالت زوجته : اي زحام ؟ انما هو انا وانت ! فقال : كنت أن أكون أنا والقدر لا غير .

---

(١) اذا كانت هذه النادرة تنسب ـ اكثر ما تنسب ـ « الى أشعب » فان هذه النادرة بعينها قد سمعتها برواية تختلف الى حد ما ، اذ تركز النادرة المروية على الجزئية الاخيرة من النادرة (الوليمة المزعومة التي اختلقها جحا ثم صدقها) في نادرة مصرية طويلة ، تحمل مقولة نفسية واحدة وتبرزها ... فكم من الناس قد اختلق مثل هذه الوليمة المزعومة والتي كانت من وحي خيالهم ، ثم كانوا أول من صدقها ، وأول ضحاياها أيضا ، اذ تأبى النادرة المصرية الا أن تنزل العقاب بجحا ، حينما ذهب الى الدار التي عمل اصحابها هذه الوليمة المزعومة ، فكانت الدار في أطراف البلدة ، ، وكان الجو صقيعا ، والسماء ممطرة ، والارض موحلة .. الخ .. ولان ساعة مندم .

* ضاف جحا رجل أكول فقدم له اربعة ارغفة ، وراح جحا ليأتي بالأدام ، وكان عدسا فلما اتى به وجد الرجل اكل الارغفة كلها ، فوضع العدس قدامه وراح ليأتي بأرغفة غيرها ، فلما رجع وجد الرجل أكل العدس ، فما زال على تلك الحال عدة مرات حتى فرغ الخبز والعدس من داره ، فسأل جحا الرجل : الى أين تمضي يا أخي ؟ فقال : الى بغداد ، فان بها طبيبا ماهرا اريد أن يداوي بطني ، لان أكلي قد قل عن عادته ، فقال له جحا : بالله عليك أن ذهبت اليه وداوى بطنك على حسب عادتك الاولى في الاكل ، فارجع من طريق أخرى ، والا اعلمني وانا اعزل قبل مجيئك .

* * *

وكلنا يعلم أن في الناس آحادا ، يتسمون ، **بثقل الظل ، وبرود الروح ، وصفاقة الوجه** ، كما يتسمون **بالتطفل والفضول** ... الى غير ذلك من صفات ، بحيث يكره الناس لقاء أمثالهم ، ويمجون حديثهم ، ويفرون من مخالطتهم ، ولكنهم لا يضمنون لانفسهم النجاح دائما ، فكثيرا ما يهبط عليهم سمج ثقيل ، أو فضولي وقح أو متطفل رذل ، فيقبض صدورهم ، ويثقل نفوسهم بجلوسه او حديثه ، ولم يغب هذا عن النادرة الجحوية فسخرت منهم وتهكمت عليهم جميعا ، وهذه نماذج لكل صفة (1) :

* دخل جحا على قوم يأكلون ، فقالوا : من انت ؟ قال : انا الثقيل الذي لا احوجكم الى رسول !

* دق سائل باب جحا ، فقال : من أنت ؟ قال السائل : انزل ، فنزل جحا ، فقال السائل : اعطني شيئا لله ، فقال جحا : تعال معي ، فذهب وراءه حتى طلع على السطح وقال له : الله

(1) سوف تصادفنا نوادر كثيرة من هذا النوع عند حديثنا عن نوادر التحامق الجحوي في نهاية هذا الفصل .

يعطيك . فقال السـائل : لم لم تقل هذا الكلام وانا امام الباب ، فقال له جحا : ولم لم تطلب الاحسان وانا فوق .

* صحب جحا رجلا في سفره ، فقال له الرجل : امض فاشتر لنا لحما ، فقال : لا ، والله ما اقـدر فمضى الرجـل فاشترى ، ثم قال لجحا : قم فاطبخ فقال : لا احسن الطبخ ، فطبخ الرجل ثم قال له : قم فاثرد ، قال : انا والله كسلان ، فثرد الرجل ، ثم قال له : قم فاغرف قال : اخشى أن ينقلب على ثيابي ، فغرف الرجل . فقال له : قم الان فكل ، قال : والله قد استحييت من كثرة خلافي عليك وتقدم فأكل .

* قال احد الفضوليين لجحـا : اني رايت شخصين في الطريق يحملان دجاجة مطبوخة في طبق كبير ، فقال جحا : وما الذي يهمني أنا ؟ فقال الفضولي : انهما ذاهبان بها اليك ، فقال جحا : وما الذي يهمك انت ؟

والحق اننا لو مضينا في تتبع المثالب الاجتماعية والنفسية والخلقية للناس ... والتي تناولتها النادرة الجحوية بسخريتها اللاذعة لطال بنا المقام فالمكابرة والعناد ... والمداهنة والرياء والجبن والنفاق والوصولية ، والتكاسل والتمني بدون عمل وامور الشعوذة والدجل الى غير ذلك كانت موضوعا خصبا للنادرة الجحوية ... التي لم تغفل ـ كذلك ـ بعض التجارب العامـة التي تصور طباع الناس السلبية التي تتنافى وقيـم المجتمـع ومعاييره ومثله ، فتعمل على ترسيبها في دروس عملية ولم اشأ ان اقف بالتفصيل عند كل واحدة ، وانما سأذكر فيما يلي مجموعة لا بأس بها ، مختارة بعناية ، ومنتقاة ، تمثل كل واحدة موقفـا بذاته ، لكنها في مجملها تدور حول التهكم الاجتماعي ... فليست هذه النوادر التي يتناقلها الناس عن جحا ، او بلسان جحا الا

حكمة الايام ووعظ الزمن . وتجربه الدنيا . وسخرية الحياة . ومفارقات الذهن الانساني في اروع ما يكون من الفطنة والصفاء . وان حسبها البعض من صنع الغفلة والغباء : ــ

* اراد جحا يوما ان يركب حصانا فقفز فلم يستطع ان يركب ، فقال : آه على زمن الصبا . والتفت حوله فلم ير احدا . فقال : الحقيقة انني لم اكن في زمن الصبا افضل مما انا الان !

* كان جحا راكبا بغلته . فوقع وعلقت رجله بالركاب . فرآه الصبيان وصاحوا : جحا وقع من فوق بغلته . فقال لهم : لا تضحكوا ايها الفتيان . فانني قبل ان اقع كنت اريد النزول !

* كان مسافرا مع جماعة . فنزلوا للراحة . ولما ارادوا استئناف السير وضع رجله اليمنى في الركاب وقفز . فجاء ركوبه مقلوبا فضحكوا منه ، فقال : ما لكم تضحكون ؟ ان البغلة هي التي جعلت امامها خلفا ، وخلفها اماما !

* سألوه يوما : كم عمرك . . ؟ فقال عمري اربعون عاما . وبعد مضى عشرة اعوام سئل ايضا عن عمره . فقال عمري اربعون عاما ، فقالوا له : اننا سألناك منذ عشر سنين ، فقلت : انه اربعون ، والان ايضا تقول انه اربعون ، فقال انا رجل لا اغير كلامي ، ولا ارجع عنه ، وهذا شأن الرجل الحر ، ولو سألتموني بعد عشرين سنة فسيكون ايضا هكذا لا يتغير !

* جاءه احد اصدقائه ، وقال له : كنت قد وعدتني ان تقرضني بعض النقود ، فهيا اقرضني . فقال له جحا : انا لا اقرض دراهمي لاحد ، ولكنني اعطيك يا صديقي ما تشاء من وعود .

* راى كلبا يقزح على تربة ، فاخذ عصاه ليضربه ، فنبح الكلب ، فخاف ، وقال : سامحني سيدي انا ما عرفتك . (١)

* كان ماشيا ومعه سيف وبندقية ، فقابله رجل في الطريق ، وبيده هراوة فسلبه كل شيء واخذ حماره وثيابه ، فرجع الى البلد على هذه الحال فقيل له ما هذا يا جحا ؟ فقص القصة من أولها الى آخرها ، فقيل له : يا جحا هل يسلب ماش بيده هراوة راكبا معه سيف وبندقية ..؟ فأجابه بأن احدى يدي كانت مشغولة بالسيف ، والاخرى مشغولة بالبندقية ، فهل كنت اضربه بأسناني وهو يسلبني ..؟ لكني أحرقت قلبه كما احرق قلبي ، فقيل له : ماذا عملت ؟ وكيف أحرقت قلبه ..؟ قال : انه بعد أن صار بعيدا مني بمسافة ميل شتمته شتما شديدا وما تركت شتما في الدنيا الا قلته ؟

* كان جحا في احدى المدن فجاع ، ولم تكن معه نقود . ومر بالسوق فراى الخبازين يخرجون الخبز شهيا ، فتقدم الى احدهم وسأله : اهذا الخبز لك ..؟ قال نعم ، فقال جحا : وكل هذه الارغفة لك ، فأجاب الخباز متضجرا : أجل كلها لي . فقال جحا : فلماذا تقف كالتمثال تنظر ولا تأكل !

* ضاع حماره فكان ينادي في الاسواق : من يجد لي حماري اعطه حمارين فقيل له : كيف تعطي حمارين بحمار ..؟ فقال انتم لا تعرفون لذة وجدان الضائع !

* ضاع حماره فحلف انه اذا وجده يبيعه بدينار ، فلما وجده جاء بقط وربطه بحبل وربط الحبل في رقبة الحمار ،

---

(١) قد سمعتها كذلك على النحو التالي : بال الكلب على مقبرة ، فحاول جحا أن يبعده ، ولكن الكلب كشر عن انيابه فتراجع جحا وقال له : تفضل أيها البطل ... افعل ما بدالك ... الخ ، فانظر كيف تحولت الشجاعة الى خوف الى جبن والجبن الى نفاق .

واخرجهما الى السوق وكان ينادي : من يشتري حمارا بدينار ، وقطا بعشرة دنانير ..؟ ولكني لا ابيعهما الا معا !

* لبس جحا ملابس سوداء ، فقابله صديق له ، وسأله عمن مات من أهله واصحابه ، فقال جحا : أكلّ من يلبس ملابس سوداء يكون قد مات له قريب أو صاحب ؟ فقال الصديق : ذلك هو المعروف عند الناس . فقال جحا : اذا كان الامر كذلك ، فاني البس الاسود حزنا على وفاة والد ابني !

* كان لجحا دجاجة ، فماتت وتركت فراريج صغارا ، فأخذ جحا اشرطة سوداء ، وربط بها رؤوس الفراريج فقيل له : لماذا تفعل ذلك يا جحا ..؟ فقال : حزنا على المرحومة أمهم ، وهم يتقبلون عزاءها .

* طلب منه جاره حبلا ينشر عليه الغسيل ، فدخل البيت ثم خرج وقال : اعذرني يا جاري فان زوجتي نشرت عليه دقيقا، فقال : يا جحا هل ينشر الدقيق على الحبال ؟ فقال جحا ؟ اذا لم تكن لي رغبة في أن اعطيك اياه فلي الحق ان اقول نشرنا عليه الهواء !

* خرج يوما ليجمع الحطب في الجبل ، واخذ معه ثلاث بطيخات ، ليطفيء بها ظمأه اذا ادركه العطش ، فلما عطش كسر واحدة وذاقها فوجدها غير ناضجة ، فألقاها فأصابتها الاقذار وكذلك فعل بالثانية والثالثة ، وحينما اشتدت حرارة الشمس ، وجف ريقه من العطش ، عاد الى احداها ، وقال : هذه لم تصبها الاقذار ثم اكلها ، وادركه العطش مرة أخرى ، فتناول الثانية وقال : وهذه نظيفة لا شيء فيها ثم اكلها ، ولما زاد عطشه عاد الى الثالثة وقال : وهذه أيضا لم يصبها شيء ثم أكلها ! (1)

---

(1) تروى بطريقة أخرى ، اشترى جحا ثلاث تفاحات وذهب بها الى منزله في المساء ، ولما وصل أشعل النور وكسر احداها فوجدها فاسدة فرماها وكسر الثانية فوجدها مثل الاولى فرماها ، ولما غضب أطفأ النور وأكل الثالثة

* مشى في طريق ، فدخلت في رجله شوكة فآلمه ، فلما ذهب الى بيته أخرجها وقال : الحمد لله ، فقالت زوجته : على أي شيء تحمد الله ؟ فقال : أحمده على أني لم أكن لابسا حذائي الجديد والا خرقته الشوكة !

* سمع جحا أن الحشيش يذهب العقل فابتاع منه مقدارا ... وذهب الى الحمام ، وتناول منه بعضه وفي أثناء اغتساله خطر له أن الناس يقولون ان الحشيش يذهب العقل ، فقال : لا بد أن هذا كلام فارغ ، أو ان البائع غشني ، وفي الحال خرج من الحمام مسرعا وهو عريان ، فنظر اليه الناس متعجبين ، وسألوه لماذا تفعل بنفسك هكذا يا جحا .. ؟ فحدثهم بما يقال عن الحشيش ، وقال لهم : لا شك أن البائع خدعني وأعطاني حشيشا لا يخدر .

* صعد المنبر يوما وقال : ايها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ..؟ فقالوا : لا . قال : حيث انكم لا تعلمون ما أقول فلا فائدة للوعظ في الجهال ، ونزل من فوق المنبر . ثم صعد يوما اخر وقال : أيها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ؟ قالوا نعم ، قال حيث انكم تعلمون فلا فائدة في اعادته ثانيا ، ونزل من فوق المنبر . فاتفقوا على أن يقول جماعة منهم نعم وجماعة لا ... ، ثم صعد يوما اخر المنبر وقال : أيها الناس ، هل تعلمون ما أقول لكم ؟ فقال بعضهم : نعم ، وقال بعضهم : لا . فقال لهم : على الذين يعلمون أن يعلموا الذين لا يعلمون ، ونزل !

* ادعى انه ولي من أولياء الله فقالوا له : ما كرامتك فأجاب اني أعرف ما في قلوبكم ، قالوا : قل ، فقال : ان في قلوبكم كلكم اني كذاب ، قالوا صدقت !

* ادعى الولاية فقالوا له : ما كرامتك ..؟ قال : اني آمر كل شجرة فتجيء لي وتطيعني ، فقالوا له : قل لهذه النخلة ان تجيء اليك فقال : تعال أيتها النخلة فلم تجيء فكرر ذلك ثلاث

مرات ثم قام ومشى فقالوا له : الى أين يا جحا ..؟ قال ان الانبياء والاولياء ليس عندهم كبر ولا غرور فان لم تجيء النخلة الي فانا اذهب اليها .

* كان احد الناس يدعي انه ولي وانه صاحب كرامات فقال لجحا : امالك صنعة في الحياة الا الهذر والمزاح .. ؟ ان كانت لديك كرامات فابرزها ، فقال له جحا : هل انت لك كرامات ؟ قال : اني اطير كل ليلة واصعد الى السماء فقال له جحا : اما احسست بشيء ناعم كالمروحة يمس وجهك .. ؟ فقال الرجل : اجل أحسست : فقال جحا : هذا الذي احسسته هو طرف اذني الطويلة (وفي رواية أخرى هو ذنَب حماري الذي اركبه هناك) .

* هبت يوما ريح شديدة فاقبل الناس يدعون الله ويتلون، فصاح جحا : يا قوم لا تعجلوا بالتوبة ، انما هـي زوبعـة وتسكن .

* باع جحا منزله واستثنى منه مسمارا في الحائط ، اخرجه من البيع ، واشترط الا يمنع من زيارة مسماره في أي ساعة من الساعات لانه عزيز عنده ، فقبل المشتري هذا الشرط . وفي الصباح ساعة الافطار دخل جحا ليزور مسماره فدعـاه الرجل الى الافطار . وفي الظهر ساعة الغداء اقبل جحا ليتأمل مسماره فدعاه الرجل الى الغداء . وفي الليل ساعة العشاء حضر جحا ليتفقد المسمار فدعاه الرجل الى العشاء وحتى في لحظات الراحة واوقات النوم كان جحا ياتي فجاة الى المنزل ليرى ما حدث للمسمار وتوالت تلك الزيارات الى أن ضاق المشترى بها ذرعا ، ولكن الشرط يلزمه بأن لا يمنعه من زيارته فلما لم يجد حيلة تخلصه من جحا تنازل له عن جميعه ، وانتقل منه من غير أن يأخذ من ثمنه شيئا .

* وقف جحا على باب طحان فنظر الى حمار يدور في الطاحون وفي عنقه جرس ، فقال للطحان : لم وضعت الجرس في عنق الحمار ، قال : ربما أدركني النوم فاذا لم أسمع صوت الجرس أعلم أن الحمار قد وقف ، فقال جحا : واذا وقف الحمار وحرك رسه بالجرس ، فقال الطحان : اذهب من هنا والا افسدت علي حماري ! (١)

* شكا أحدهم من شدة البرد فسمعه آخر فقال : ياللعجب من هؤلاء الناس اذا جاء الشتاء يشكون من البرد ، واذا جاء الصيف يشكون من الحر فلا يعجبهم شيء ، فسمع جحا ذلك فقال : الحالة كما تقول ولكن هل سمعت احدا يشكو من الربيع ! .

* قيل لجحا : اذا طلب منك شخص شيئا فلماذا لا تعطيه اياه الا في اليوم التالي ؟ فأجابهم جحا : أفعل ذلك ليعرف قدر ما اعطيه .

* **وكان جحا مع الناس دائما يؤمن بسياسة الامر الواقع وضرورة مواجهته** فقد اراد الخير ذات مرة ، حينما كان عائدا من المسجد ومعه بعض تلاميذه بعد صلاة الظهر فدعاهم لتناول الغذاء ، فأخبرته زوجته أن لا طعام عندهم فطلب منها أن تصرف التلاميذ بالحسنى ، فقالت لهم : انصرفوا ان الشيخ خرج ، فأجاب أحدهم لقد دخل الدار امامنا ، وقال الثاني : لقد دعانا الى الغذاء ، وقال الثالث : اجبنا دعوة الشيخ تبركا بطعامه ، وطال الجدل ، فخرج جحا اليهم حاملا طبقا وقال لهم : هذا هو طبق الحساء ، ولو كان عندنا حساء لقدمناه اليكم ، أو تريد

(١) س من النوادر التي ترددت في كتب التراث ، ولكن بنهاية مختلفة ، اذ يقول صاحب الحمار للامير : « وأين لي بحمار يكون عقله مثل عقل الامير » انظر العقد الفريد ج ٦ ص ١٥٧ . ، والبيان والتبيين ج ٢ ص ٢٦١ .

ما بخلنا به عليكم ، أو اي طعام اخر لاحضرناه لكم ، ففي هذه المرة قدمنا اليكم الطبق ، وفي المرة المقبلة نقدم اليكم الطعام اذا رزقنا الله الطعام .

* اراد احد الحكام ان يوزع تسع وزات على عشرة من شرطته واحتار ماذا يفعل فنصحه بعض حاشيته أن يستشير جحا ، فجاء ووضع الاوز في صف والشرطة في صف مقابل وطلب منهم أن يأخذ كل واحد منهم وزة واحدة .. ففاز تسعة بطبيعة الحال ، وبقي العاشر ، فتقدم الى جحا يسأله نصيبه ، أين وزتي يا جحا ؟ فرد جحا على مهل : ـ الوزات كانت أمامك ، فلماذا لم تأخذ ؟

* * *

ويؤمن جحا جيدا بانه ليس في هذه الدنيا شيء ارخص من المجاملة ... أو المواساة الشكلية التي لا تتجاوز حدود اللسان ، وشتان بين أقوال الناس وفعالهم ويدين النموذج الجحوي هذا السلوك :

* كان مسافرا فلما أراد ان يستريح جلس الى جوار شجرة ، وسرعان ما لمح الى جوار جذعها شيخا يبكي بكاء شديدا ، والى جانبه كلب ممدد على الارض ، فأشفق جحا على الرجل وأقبل عليه يستطلع شأنه لعله يستطيع كعادته أن يقوم بشيء ينفعه ، وما كاد يسأله جحا حتى أجابه الرجل بصوت متهدج تخنقه العبرات : كلبي ، كلبي ، انه صاحبي الوفي اذا ما غدر الاصحاب ، اني لا أطيق أن اراه في هذه الحال الشنيعة . فقال جحا : وما بال كلبك يا سيدي ؟ قال الرجل : مسكين انه يجود بأنفاسه الاخيرة ، انه يموت من شدة الجوع ، ولم يكن مع جحا من الزاد شيء يقدمه للكلب ، فراح يواسي الرجل ، ولكنه سرعان ما لمح الى جوار الرجل جرابا منفوخا فسأله : ما هذا الذي في الجراب يا أخي ؟ فقال الرجل : ارغفة احملها لزادي

فقال جحا : الويل لك . كل هذه الارغفة ولا تقدم منها ما ينقذ حياة كلبك الوفي العزيز ؟ فحملق فيه الرجل ثم قال : حقا يا سيدي !نه وفى عزيز ، ولكن الصلة الوثيقة بيننا لم تصل الى باب هذا الجراب !

* كان احد الوجهاء يظهر لجحا تعظيما ظاهريا ويكثر من المجاملة والتكلف له عند لقائه فأراد جحا أن يزوره ، وعندما وصل الى بيته كان الرجل ينظر من النافذة ، فلما راى جحا مقبلا انسحب الى الداخل فدق جحا الباب وقال : اذا لم يكن لدى الاستاذ مانع فاني جئت لزيارته ، فقالوا له : ان الاستاذ قد خرج منذ برهة ، وسيأسف كثيرا حينما يعلم بتشريفك في غيابه ، فلما سمع جحا هذا الرد قال بصوت عال : حسن جدا ، ولكن قولوا للاستاذ اذا خرج من الدار مرة اخرى ان لا يبقي راسه في النافذة ، لئلا يظنه الناس في البيت ويتهموه بسوء السلوك !

* وخرج ايضا ذات مرة ساعيا في طلب الرزق حتى نزل بلدة يبدو على اهلها انهم قد اخذوا للصلاح كل مظاهره فخطب فيهم جحا ، وما كاد ينتهي من خطبته حتى كانوا جميعا ينشجون بالبكاء ، ويشدون لحاهم نادمين . فلما نزل ليحظى بالاكرام كما كان يتوقع ، وحدث أن تفقد مصحفه فلم يجده فتملكه العجب من بكاء القوم الصالحين النادمين فقال : يا قوم حسبتكم كلكم تبكون ، اذن فمن سرق المصحف .. ؟

* * *

وكذلك كان جحا يرى أن الحق اذا ضاع بين قوم فان الاقامة بينهم وفيك بقية من عقل ضرب من العبث ... وليس لك الا ان تلتمس أقرب طريق للسلامة ، والا فلا بد انك هالك :ـ

* لقد قصد السوق واشترى ما يحتاج اليه ، ثم نادى على حمال ليحملَ عنه ما اشتراه من متاع وأعطاه أجرته مقدما

زيادة في اكرامه ، ولكن الحمال الخبيث غافله وهرب ؛ وانطلق جحا يسأل الناس عنه فما كان منهم الا ان سخروا منه ، واتهموه بالغفلة والغباوة ، وابدو اعجابهم بما فعل معه الحمال الخبيث ، وما وجد منهم احدا يلوم الحمال ، او يساعده في البحث عنه ، وبعد عشرة أيام جذبه أحد اصحابه ، وارشده الى ذلك الحمال ، فأسرع جحا بالهروب فسأله اصحابه مستهزئين به : ما هذا أيها الشيخ أتترك لصا يسرق متاعك ؟ فقال جحا : يا قوم حسبكم ، لقد غاب الرجل عشرة أيام واخشى أن يدعي عليّ بأجرة هذه الايام العشرة ... وهو اذا صنعها بينكم وفي بلدكم ، فوالله لن تكونوا له جميعا الا مصدقين !



وكان جحا يعرف كم هي تعاسة العقلاء بين قوم اغبياء :

* حدث انه كان مدينا ذات مرة ، فرفع أمره الى الحاكم ـ وكان يحمل لجحا كل بغض وسوء لانه كان دائما يكشف للناس قبائحه ، ويفضح مظالمه ، ويحرضهم عليه ـ فانتهزها الحاكم الاحمق وأراد أن يشفي غليله من جحا منتهزا عدم وجود مال عنده ، فحكم بأن يحمل على بغلة ، وان يطاف به في شوارع البلدة ، ومن ورائه الصبيان يصيحون : هذا هو الذي ماطل الدائنين ولم يدفع حقوق الناس . وخرج لتنفيذ الحكم ، واخر النهار انتهى الى داره فنزل وانفض الصبيان والناس لشأنهم ، ثم تقدم اليه المكارى صاحب البغلة يقول لجحا : ـ

ـ اين اجر البغلة يا سيدنا الشيخ ؟

فقال جحا : اجر البغلة .. ؟ الا يا تعس الاغبياء ، ويا لتعس العقلاء أيضا ، وفيم اذن أيها الاحمق كنا نصيح طوال اليوم .. ؟ ولماذا كان هذا الموكب العظيم ؟ !

وتقضي الحكمة احيانا ان نخاطب الناس على قدر عقولهم..
فقد حدث أن : ـ

خطف مجنون غلاما وصعد فوق مئذنة عالية ، فجرى الناس خلفه ، وهموا بالصعود وراءه ـ ليخلصوا الغلام منه ، فهددهم المجنون بأنه سيلقي به لو تبعوه ، فحاروا في الامر ووقفوا حول المئذنة ، واقبل جحا وعلم بالامر ، فأمسك بمنشار في يده وصاح بالمجنون : اذا لم تترك الغلام ينزل في سلام فسأنشر المئذنة بالمنشار ، فصدقه المجنون وخاف من وقوع المئذنة ، فترك الولد ينزل في سلام .

وتدين النادرة الجحوية كذلك السلوك المتميز بالفردية والانانية والسلبية معا في نادرة من اقذع والذع ما أثر عن النموذج الجحوي والمأثور الجحوي بعامة : ـ

*	قالوا لجحا	: ان الرجس في بلدكم يا جحا .
	قال	: اليس بعيدا عن حارتنا ... ؟
	قالوا	: بلى ، هو في حارتكم .
	قال	: ولكنه بعيد عن دارنا .
	قالوا	: بل في داركم .
	قال	: ما دام بعيدا عني فلا شيء هناك . (١)

ومن خير ما نختتم به هذه المواقف الجحوية التي تكشف طباع الناس وتقف من قيمهم ومعاييرهم موقف الناقد الاجتماعي ـ نادرتان تعبران عن مقولة اجتماعية ونفسية **وهي انعدام الجانب الموضوعي في تفكير الناس واحكامهم ، حين يخضع هذا التفكير وهذه الاحكام للاهواء والمصلحة الشخصية** قبل كل اعتبار ، وهي نقيصة لا شك لا تفوت على لنادرة الجحوية .

---

(١) تروى هذه النادرة بطريقة اخرى ، وبالفاظ فاحشة جدا ، ولكن المضمون واحد .

* اخذ من جاره « حلة » كبيرة ، وطبخ فيها ، ثم وضع داخلها « حلة » صغيرة واعطاه اياها ، فقال له : ما هذا يا جحا ..؟ قال : هي بنت « حلتك » ولدتها عندي ، ثم طلبها مرة ثانية وخباها فقال له جاره : اين « الحلة » قال : ماتت وهي تلد فقال له : هل تموت « الحلة » فقال جحا : وهل تلد « الحلة » ؟ الذي يأخذ المكسب يتحمل الخسارة يا صديقي !

* اتفق أصدقاء جحا على انه لو استطاع أن يقضي ليلة في العراء في احدى ليالي الشتاء ، فانهم يقيمون له مأدبة ، على ان لا يتدفأ بنار ، فان لم يستطع لزمه أن يقيم لهم مأدبة ، فوافق جحا وسهر الليلة في العراء . وهو ينقل بعض الاحجار من موضع الى موضع ليدفىء نفسه، وفي الصباح اقبل عليه اصدقاؤه وسألوه :كيف استطعت ان تتحمل البرد ؟ فقال مازحا كعادته : اني رأيت شعاعا من الضوء على بعد ميل فاستدفأت به ، فصاحوا جميعا ، بخبث ، في نفس واحد : لقد نقضت الشرط ياجحا ووجب عليك أن تقيم المأدبة ، وعبثا حاول أن يقنعهم فلم يصدقوه واتفقوا على أن تقام بعد ثلاثة ايام ، وفي اليوم المحدد حضروا وانتظروا الغذاء ، ومضى الظهر ، وجاء العصر ، ولم يقدم لهم الطعام ، فقالوا له : لماذا تأخرت بالغذاء ؟ فقال تعالوا لاريكم أنه لم ينضج بعد ، فقاموا معه الى ساحة البيت ، فرأوه قد علق قدرا في أعلى النخلة ووضع على الارض مصباحا صغيرا ، فصاحوا به : هل يعقل ان يغلى هذا القدر بهذا المصباح الصغير من هذهالمسافة بينهما ..؟ فقال جحا لهم: ما اسرع نسيانكم منذ ثلاثة ايامزعمتم اني تدفأت بشعاع على مسافة ميل ، واليوم تنكرون أن يغلى القدر على مسافة اذرع من شعاع المصباح ... (1) .

---

(1) تروي هذه النادرة بطريقة اخرى ، ذلك ان عنصري التحدي هذه المرة هما جحا والملك لا الاصدقاء ... اذ تحدى الملك جحا ان ينام فوق قصره في ليلة شديدة المطر قارسة البرد ... ولكن حاشية الملك وشت به ، لانه كان دائما يكشف أكاذيبها للناس وقالت :ـ لقد كان هناك لمبة على مسافة ميل ، فلا شك أن جحا استدفأ بها ، فخسر جحا الرهان ، ولكنه شاء أن ينتقم

كما اثر عن النموذج الجحوي العربي مجموعة من النوادر التي تهكم فيها بسلوك بعض العناصر الدخيلة على المجتمع ، كالاتراك واليونان ، واليهود ، وهي في مجملها تحمل وجهة نظر الشعب تجاه هذه الفئات وتسخر من طباعها وعاداتها وخصالها :ـ

* وقف جحا (الشحاذ) بباب تركي غني ، عنده خدم كثيرون ، وطلب منه احسانا ، وكان التركي جالسا في شرفة منزله الكبير ، فقال التركي :ـ

يا مرجان ، قل لفيروز ، ان يقول لياقوت ، كي يقول لهذا الشحاذ : الله يرزقك من غيرنا . فاغتاظ جحا ، ورفع يديه الى أعلى وقال . . :ـ

يارب قل لاسرافيل ، أن يقول لميكائيل ، كي يقول لعزرائيل اقبض روح هذا التركي البخيل !.

* مرت به جنازة فقال : بارك الله لنا في الموت وفيما بعد الموت ، فقيل له انها جنازة يهودي . فقال : اذن لا بارك الله لنا في الموت ولا فيما بعد الموت ! .

* كان جحا في كل صباح يقف في حوش منزله ويرفع يديه الى السماء ويقول : اللهم ارزقني الف دينار فان نقص المبلغ فلا اقبله . فسمعه جاره اليهودي ، فعجب من تغفيله ، واراد ان

لنفسه فطلب من الملك ان يدعو أصدقاءه من الملوك والامراء والجند في مملكته على وليمة يقوم جحا على طهيها بنفسه .... ثم تتفق بقية اجزاء النادرة بعد ذلك مع النادرة التي جاءت في المتن ثم تزيد عليها بعد ذلك : ادرك الملك خدعة جحا فأمر بطرده من البلد ، ونادى في الناس بذلك فارسل جحا امه الى قصر الملك لتعلن أنه مات غما ، فأمر لها الملك بعشر جنيهات ، وبينما كانت الجنازة تمر من امام القصر قال الملك لمن حوله : مسكين لقد سامحته ، ثم صاح مخاطبا النعش : لقد سامحتك ياجحا ، فاسرع جحا بالقيام من النعش وقال « أشهدوا يا أهل البلد ، ان الملك رجع في كلامه » .

وغني عن البيان هنا زيادة عدد الموتيفات او الجزئيات الاولية التي تكونت منها الحكاية فضلا عن تغيير موتيفة الصراع التي اصبحت بين جحا والملك . (المغزى السياسي) .

يختبره ، فأخذ تسعمائة وتسعة وتسعين دينارا ،ووضعها في صرة ، ورماها امام جحا من النافذة ، ففرح جحا وقال : ان ربي قد اعطاني ما طلبت ، واخذ الصرة وعد ما فيها فوجدها ناقصة دينارا ، فقال : ان الذي أعطاني الكثير لا يبخل علي بدينار واحد ، ثم وضعها في صندوق له ، وهو مسرور ، وكان اليهودي يطل عليه من الشباك ، فاغتاظ ، وذهب الى بيت جحا ، ودق الباب بشدة ، ففتح له جحا وقال : ماذا تريد ياخواجه كوهين ، فقال اليهودي : هات الصرة التي أخذتها ، فقال له جحا : ان ربي اعطاني شيئا وتريد انت ان تأخذه مني ؟ فقال له كوهين : انا الذي رميت الصرة لاختبرك : هل تقبلها ناقصة أو لا تقبلها ، فتشاجرا ، وقال اليهودي : لا اتركك حتى تذهب معي الى القاضي فوافق جحا ولكنه قال : انا مريض ، ولا أستطيع المشي واخاف من البرد ، وليست عنـدي ملابس ثقيـلة أو حذاء البســه فأعطني حمـارك اركبه ، وملابس ثقيـلة جديدة وحذاء جديدا وانا اذهب معك الى القاضي ، فأعطاه كوهين ما أراد ، وذهبا الى القاضي . فادعى اليهودي أن جحا أخذ منه صرة نقود فيها ألف دينار الا دينارا ليختبره فسأله القاضي : هل هذا حقيقة يا جحا ...؟ فقال جحا بمكر : وهل هذا كلام معقول ياحضرة القاضي ..؟ هل يعقل أن اليهودي المشهور بالبخل يرمي ٩٩٩ ـ دينارا ؟ انها نقودي اكتسبتها من عملي ، و (كوهين) هذا يدعي على الناس بالباطل دائما ، وهو مشهور بذلك ، وله حوادث كثيرة مع الجيران ، وانا أخشى ان يدعي ايضا امامك ان هذه الجبة التي البسها وحذائي الجديد وحماري القوي الذي جئت به ملك له ، فصاح اليهودي : والله ياسيدي القاضي أن الحمار والجبة والحذاء ملكي ، فقال جحا وهو يبتسم : الم أقل لك ياحضرة القاضي انه مشهور بالاحتيال على الناس والادعاء عليهم بالباطل ، فقال القاضي ،

لليهودي : حقا انك مدع وكذاب . اخرج والا عاقبتك ، فخرج متحسرا نادما ، وربح جحا نقوده وجبته وحماره (١) .

العناصر المحورية للتهكم الاجتماعي في النادرة الجحوية ..:ـ

لعل من أيسر الامور ـ بعد ان استعرضنا معا هذا الكم المختار (من النوادر الجحوية) المرتبطة بحياة الناس ... بالحياة وبالاحياء ان نحدد العناصر المحورية التي ارتكزت عليها النادرة ـ الجحوية في « النقد الاجتماعي » الذي أثر عن النمط الجحوي في مصر ، فقد ارتكزت أساسا على المواقف السلبية للناس ، سجلتها وادانتها في اسلوب متميز يجمع بين الفكاهة والسخرية والحكمة في آن واحد . ومن ثم القت الضوء على كثير من العيوب الاجتماعية والنفسية والخلقية ، كما كشفت في سخرية مرة وتهكم لاذع الكثير من طباع الناس وتفكيرهم فجسدت وسخرت من ادعاءاتهم الكاذبة ـ وعاداتهم الجامدة وحماقاتهم وغرورهم . وغبائهم ، كما سخرت من غريزة القطيع . ومن صفاتهم التي تتنافى والمثل الاعلى كالسلبية واللامبالاه والفردية والجبن والخوف والبخل والطمع والجشع والكذب واهتماماتهم بالشكل دون الجوهر ، وعدم موضوعيتهم في التفكير واصدار الاحكام ، وايمانهم بالشعوذة والدجل والخرافات فضلا عن موقفه من الاجانب والدخلاء والمحتلين الى غير ذلك مما لا يتفق أبدا والقيم والمثل والمعايير التي ارتضاها الناس ، وتعارف عليها المجتمع كما يجب ان يكون ... ويمكن ان نقول ان الفلسفة الاجتماعية للنمط الجحوي العربي ركزت على

---

(١) نوادر جحا ـ مجموعة حسن حسني ص ٧٠ نادرة رقم (٦٤) . وهذه النادرة تختلف عن النادرة المنسوبة الى الاصل التركي (نوادر جحا ـ ترجمة حكمت شريف ص ٢٩) . اذ أضافت النادرة التركية بعد ذلك ان جحا (ارسل في طلب اليهودي الذي جاء الى بيته مستغيثا باكيا ، فقال له جحا : اياك بعد اليوم ان تدخل بين الخالق والمخلوق ، وان تزعج عباد الله ، فكان الدرس العملي اعظم واعظ لليهودي لانه كان يظن جحا مغفلا وما كان ينتظر منه هذه الاريحية الغريبة بعد ذلك العذاب الطويل ، فتاب على يدي الشيخ وطلب ان يهديه الى الاسلام ، وهكذا اسلم اليهودي على يدي جحا) .

جانبين اساسيين من عيوبنا هما العيوب الاجتماعية للانماط اللااجتماعية والعيوب الاخلاقية للانماط اللااخلاقية وذلك بطبيعة الحال بغية الوصول الى الكمال الممكن او المقبول من السلوك الاجتماعي الناضج والسلوك الاخلاقي السوي ، مما يؤكد للجماعة ذاتها ، ويحفظ عليها وحدتها وصحتها النفسية .

٢ ـ جحا والاسرة

ممالاشك فيه ان للاسرة مكانا بارزا في المأثورات الشعبية عامة ، والنوادر الجحوية خاصة . ولقد راينا من قبل كيف أن الامة العربية لم تشأ ان تجعل من جحاها شخصية سلبية أو منعزلة ، فجاءت هذه الشخصية التي ابدعتها بعبقريتها شخصية رجل عادي من الناس ، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم ، كذلك نراها أيضا ، قد نفرت من تصوير جحاها في صورة الانسان المنفرد بنفسه ، فجعلته رب أسرة ، له زوجة ، بينه وبينها مايكون بين الرجل وصاحبته من الاحداث والمواقف والتجارب ، وله معها نوادر تجسم فلسفته الخاصة في الحياة ، بل تجسم ما يريده الشعب العربي من ترسيب التجربة ، والنزوع الى السمر ، ونقد الحياة الاجتماعية . ثم اتصلت حياته ، فكان له بنوه ينشئهم بحكمته ، ويحاورهم بفكاهاته وسخرياته ، وكانما اراد ان تمتد حياته وفلسفته اجيالا متعاقبة ومن ثم فلا ينبغي أن تؤخذ نوادره وأقواله مع أمرأته وولده مأخذ الفكاهة فحسب ، « ذلك لانها تنطوي على حكمة عملية ، ورمز فني ونقد اجتماعي » (١) .

« اولا جحا وزوجته » :

لقد فازت المراة أو الزوجة بالنصيب الاوفى من المأثور الجحوي ـ سواء في جانبه الاجتماعي او الفكاهي . . . وبالرغم من أن النادرة الجحوية هنا قد وقفت عند ابراز الجانب السلبي للمراة

(١) الدكتور عبد الحميد يونس ـ دفاع عن الفولكلور ص ٢٠٣ .

عامة والزوجة خاصة (١) ، الا ان الرمز الجحوي لم يكن يضمر كراهية للمراة ، وان ركز في تناوله لها على ابراز جوانبها السلبية فحسب ، وبخاصة اذا كانت زوجة له : فهي حمقاء ، غبية ، جاهلة لا خلاق لها ، خائنة لمـال زوجها وعرضه وشرفه ، قادرة على الكيد له ، مستهترة لا تأبه به ، خبيثة لئيمة ، ماكرة ، لعوب لا شرف لها ، باردة الحس . والشعور ، لها من فساد العقل ، وسوء الطباع ما كان مصدر تنغيص في حياة زوجها سليطة اليد واللسان كذلك ... لا تتورع عن ايذائه باللكم والضرب والرفس .. بينما جحا يقابل هذا كله ـ زوجا كادحا مخلصا حليما صبورا .. حتىأصبح لدينا نمطا فنيا هو **الزوجة الجحوية**التي تعد مثلا مجسما للمراة الجافية العنيفة ، غليظة الطباع ، فظة القول ، لا تعرف لزوجها وحكمته قدرا ولا قيمة ، وتقابل وداعته وحلمه ببذاءة اللسان وخشونة المعاملة ...

فاسقة خائنـة : ـ

وهـي ـ أكثـر ما تكـون ـ خائنـة فاسقة اذ كان لهـا من غفلـة زوجهـا وسذاجته ـ كمـا تخيلته ـ ما يجعلهـا تدور على حل « شعرها » ـ على حد التعبير الشعبي ـ ولهذا كثرت خيانة الزوجة الجحوية لزوجها ، واستغل الابداع الشعبي جانب الغفلة والحمق في النموذج الجحوي ليدينه حين تهاون في شرفه ـ ولتجسيد ظاهرة الخيانة الزوجية ، ومن ثم ساد طابع الحمق على النمط الجحوي هنا اكثر من طابع الذكاء والحكمة ، وما عرف عنه من قدرة على الانتقام ، حتى يتهيأ الجانب الفكاهي الساخر من الزوج والزوجة الجحويين معا ولسوف نجتزىء هنا من النوادر ما يؤكد ما نذهب اليه :

* خرجت زوجته في نصف الليل ، فلقيها واحد وقال لها : أتخرجين وحدك في هذا الوقت .. ؟ فاجابته : انا ما ابالي ، ان لقيني انسان فانا في طلبه ، وان لقيني شيطان فانا في طاعته ...!

---

(١) انظر للكاتب : المراة في الملاحم الشعبية العربية ، بحث منشور في مجلة عالم الفكر م ٧ ع ١ ابريل ١٩٧٦ م . عن الدور البطولي والقيم الاجتماعية الايجابية للمراة العربية في الادب الشعبي العربي .

* كانت له زوجة فاسدة فنزل به ضيف ، فأعطاها دراهم وقال لها : اشتري لنا رؤوسا نتغذى بها ، فخرجت المراة ، ولقيها حريف ـ أحد الفاسدين ـ فأدخلها الى منزله ، فأحس بهما الجيران ، ورفعوهما الى الوالي ، وضربت المراة ، واركبت ثورا ليطاف بها في البلد ، فلما أبطأت على جحا خرج في طلبها فرآها على تلك الحال فقال لها : ما هذا .. ؟ ويلك ، قالت : لا شيء ، انصرف أنت الى البيت ، فانما بقي صفان ، صف العطارين ، وصف الصيادلة ، ثم أشتري الرؤوس واجيئك .

* كان رجل يحب زوجة جحا ، وكان له غلام امرد جميل ، فقال له : رح اليها وقل لها تستعد لقدومي ، فذهب الغلام فما كان منها الا أن اعتنقته وضمته .. وبقي عندها ، فاستبطأه سيده وذهب وراءه ، ودخل البيت ، فلما أحست به ادخلت الغلام تحت السرير واستقبلته كالعادة .. واذا بجحا يدق الباب ، فقالت لرفيقها : قم واخرج الى الحوش وانت شاهر سيفك واشتمني ، فقام وفعل ذلك ، فلما دخل جحا قال: ما بال هذا الرجل .. ؟ فقالت هذا جارنا هرب مملوكه والتجأ الينا ، فهجم عليه واراد أن يقتله ، فأخفيته تحت السرير خوفا عليه ، فقال جحا للولد : اخرج يا ولدي وادع لسيدة الحرائر لحسن صنيعها معك ، جازاها الله خيرا !! .

* قيل لجحا يوما : ان امراتك تدور كثيرا ، فقال : لو كان ذلك صحيحا لحضرت الى بيتنا !!

كيد المراة الجحوية :

* كانت امراته تغافله في الليالي ، وتذهب الى عشيقها ، فنبهه الجيران الى ذلك ، فسهر لها حتى خرجت ، فقام واقفل الباب وجلس وراءه ، فلما رجعت وجدت الباب مقفلا ، فأخذت تسترحمه وهو يزجرها ، فلما يئست منه قالت له : ان لم تفتح فسأرمي نفسي في البئر ، واخذت حجرا كبيرا ورمته في البئر ،

فندم وخرج لينظر ، فما كان منها ، الا أن دخلت الدار واقفلت عليه الباب : فأخذ يترضاها ، وهي لا تزداد الا سخطا وتقول بصوت عال : هذا شغلك معي كل ليلة ، تذهب الى النسوان وتتركني ، حتى فضحته بين الجيران !

* اتفق اصحاب جحا أن يحضر كل منهم عشيقته ، وكان احدهم عشيقا لزوجة جحا وهو لا يدري انها زوجته ، وحضروا وحضرت العشيقات ، ومنهن زوجة جحا ، ولكنها لم تخف ، بل تقدمت اليه ، وخلعت خفها وصارت تضربه وتقول : يا منحوس انت كل يوم على هذه الحال ، تحضر مع هؤلاء الرجال وتتركني في البيت وحدي . . . وطلبت من احد الحاضرين أن يذهب ليحضر لها رسولا من عند القاضي ، فقام الحاضرون وجعلوا يسترضونها وهي تتمنع وتقول : انتم افسدتم علي زوجي ، انا لا اصلح معه حتى يحلف بالطلاق ثلاثا انه ما عاد يرجع الى هذا الموضوع مرة اخرى ، فحلف لها جحا ثم قال لها : اذهبي الى البيت . . . فقالت له : الله الله ، أنا لن أدخل البيت في ذلك اليوم ، أنا ذاهبة الى بيت أختي ، وخذ انت مفتاح البيت واخرج أمامي ورح الى البيت الى ان يذهب الشر الذي بيننا ، وان جئت ورائي أو ارسلت خلفي احدا فسأذهب الى القاضي واشكوك ولا ترى وجهي بعد ذلك . فقال الحاضرون : دعها تذهب الى بيت أختها حتى تصفو نفسها . فقام الى بيته ، وخرجت خلفه ، فلما تحققت من ذهابه عادت الى عشيقها ، وانغمست في مجونها المنكر !

* اشتهى أن يأكل لحما فعملته زوجته ، واكلته هي وعشيقها ، ووضعت في الحلة خيارا ، ولما جاء جحا واكله قال : هذا خيار . فقالت : انه لحم ، ثم فاجأها يوما جالسة مع عشيقها فامسك به ووضعه في صندوق كبير واقفل عليه ، وخرج الى اهلها ليدعوهم ويريهم ما تفعله ابنتهم ، وقامت هي بعد خروجه ، وفتحت الصندوق واخرجته ، ووضعت في الصندوق جحشا صغيرا لجارهم واقفلت عليه ، واقبل جحا مع ابيها وامها واخوتها

وفتح الصندوق فرأوا جحشا صغيرا . فقالوا : يـا جحـا أنت مجنون . فخجل ونظر الى زوجته وقال : يا فاعلة . ان التي تجعل اللحم خيارا ، تستطيع أن تجعل ابن آدم حمارا !

* دخل جحا بيته . فوجد امراته ومعها عشيق لها . فوقف العشيق ساكتا كالتمثال . فقال لها جحا : ما هذا .. ؟ فقالت الزوجة : هذا تمثال ، انظر اليه ، انه لا يتحرك ، اتظنه عشيقي ؟ فقال جحا : ما ابدع هذا التمثال ، تبارك الخلاق فيما خلق . ومن أي شيء صنع يا ترى .. ؟ فقالت الزوجة : انه مصنوع من النحاس المجوف ، فصفعه جحا على خده صفعة اطارت الشرر من عينيه ، فلم يتحرك ، ولكنه أراد أن يثبت لجحا انه تمثال فقال : « رن ن ن ن ن ن » فقال جحا : حقيقي انه تمثال من النحاس المجوف اسمعي الى رنينه !!

خائنة لماله وطعامه :

زوجة جحا تلتهم طعامه على قلته مع عشيقها .. دونه ، فهي دائما تقاسم عشيقها طعام زوجها وتتركه جائعا ، ... وجحا أمام هذا الموقف اما أن تجوز عليه الحيلة (لغفلته وسذاجته) مما ينم عن خبثها ، أو يعرف كيف ينتقم (بتخابثه وذكائه) . ومن نوادر الموقف الاول ـ الذي تجوز فيه حيلة زوجته عليه : ـ

* جاء ضيف لجحا فاشترى دجاجتين . وقال لامراته : اطبخيهما لنا فطبختهما واكلتهما ، فلما جاء ميعاد الاكل قال لها : اغرفي ، فقالت له : هل تأكل من غير خبز ؟ . فخرج يشتري الخبز ، ودخلت هي عند الضيف وقالت له : هل تعلم السبب في أن زوجي دعاك .. ؟ قال : لا ، قالت : انه أصيب بالجنون ، ووصف له الاطباء ان يأكل اذن انسان ، فجاء بك هنا ليقطع أذنيك ويأكلهما ، وعلامة ذلك أنه يضرب على صدره ، ويحرك يده ، ثم رجع جحا وقال لها : اغرفي ، فقالت : انك لما خرجت قام الضيف واخذ الدجاجتين ، ووضعهما في منديله ، فبدت من جحا حركات

تشبه ما قالته زوجته للضيف ، فخرج الضيف يعدو خوفا من قطع اذنيه ، فأشارت امراة جحا اليه وقالت له انظر هذا هو الضيف خرج يجري خجلا منك ، فأسرع جحا وراءه وهو يصيح : خذ واحدة واعطني واحدة (يقصد جحا بذلك احدى الدجاجتين) فصاح الضيف وهو يزيد من سرعته : ـ ان أدركتني فخذ الاثنين (يعني اذنيه) ! وفازت هي وعشيقها بالدجاجتين بعد ذلك .

ومن نوادر الموقف الثاني : التي يلقن فيها جحا زوجته درسا لا تنساه حيث يظهر لها انه ليس بالساذج الغر ـ نادرتان نعتبرهما من أجمل النوادر التي قيلت في هذا المقام : ـ

* اشترى ثلاثة ارطال لحم وقال لزوجته : اطبخيها ، فطبختها ، واكلتها مع بعض اقاربها ، فجاء جحا وطلب اللحم ، فقالت له : ان القط اكله وانا مشتغلة بطبخ الطعام ، فامسك بالقط ووزنه فوجده ثلاثة ارطال . فالتفت اليها وقال : يا خبيثة ان كان هذا هو القط فأين اللحم ؟ . وان كان هذا هو اللحم فأين القط . (1)

وقد يلجأ جحا الى العقاب المادي حينما يطفح به الكيل : ـ

* خلع جحا قفطانه ، وعلقه على المشجب في منزله ، ونام ، وكان بالقفطان نقود فوضعت امرأته يدها في الجيب وسرقت بعض النقود ، وجحا نائم لم يشعر بها ، وفي الصباح عد جحا نقوده فوجدها ناقصة ، فعرف أن زوجته سرقت نقوده ، وفي اليوم التالي وضع جحا في جيب قفطانه عقربا ، وخلعه ، وعلقه على المشجب وتظاهر بالنوم ، وعينه الى القفطان ، فقامت زوجته باحتراس ، ووضعت يدها في جيب القفطان لتسرق النقود ، فلسعتها العقرب ، فصرخت وبكت ، فقام جحا من الفراش وقال

---

(1) عبد الستار فراج ـ اخبار جحا ـ رقم ٢٠٢ ـ ص ١٢٧ ـ وهناك نادرة شبيهة بهذه النادرة رقم ٣١٠ ـ ص ١٥٧ من كتاب اخبار جحا وهي التي خبأ فيها الفأس في الصندوق خوفا من هذا القط الذي يأكل طعامه ـ ويعني به عادة زوجته .

لها : أنا آسف يا زوجتي ، لقد نسيت اليوم ، ووضعت في الجيب عقربا بدل النقود !

وهي زوجة لا عقــل لها :

* قيل لجحا ان امراتك قد اضاعت عقلها ، ففكر قليلا ثم قال : أنا أعلم انه لا عقل لها ، فدعني أتذكر ، يا ترى مــا الذي اضاعته .

وهي زوجــة حمقــاء :

* اراد أن يبيع حماره فذهب الى السوق واعطاه للدلال ليبيعه ، فجعل الدلال يدور به وينادي ، هذا حمار سريع السير ، متين التركيب ، واسع الخطوة ، لا يشعر راكبه بأي تعب .. فجعل الناس يتزايدون عليه حبا في هذه المزايا الكثيرة ، وسمع جحا هذه الاوصاف ، ورأى الناس يتزايدون فقال في نفسه : لا بد أن الحمار به هذه الصفات وانا لا أدري ، وفي سرعة اندفع بين المتزايدين ، وجعل يبارى معهم في رفع ثمنه ، الى ان توقفوا ورسا البيع عليه هو ، فأخرج نقوده من كيسه وعد للدلال الثمن ، وأمسك الحمار وانصرف الى البيت مسرورا بحماره ، وفي المساء جلس مع امراته يقص عليها نبأ المزايدة .. فقالت له : وانا ساحدثك بأمر أعجب من هذا ، فقد مر امام دارنا بائع القشدة (القيمر) فناديته ، وجعل يزن لي ، فغافلته ووضعت أساوري الذهب في الكفة التي بها السنج ليرجح الميزان ، ثم اخذت الوعاء ودخلت ، وتركتها في الكفة حتى لا يشعر بأني غافلته ، فقال لها جحا : بارك الله فيك ، انا من الخارج وأنت من الداخل ، وبهذا يعمر البيت .

وليس من شك ان النادرة الجحوية تدين هذه الحماقة المتبادلة بين الزوجين في أكثر من نادرة ، نكتفي بواحدة منهــا تقــول : ـ

* تقابل جحا مع امـراة ، فسألته عن المكان الذي جاء منه فأجابها بأنه جاء من جهنم ، وفي الحال سألته عما اذا كان قد رأى ولدها المتوفي فأجابها بأنه رآه واقفا على أبواب الجنة ، ولم يسمح له بالدخول الا اذا دفع ما عليه من دين ، فأعطته الزوجة قيمة هذا الدين ، وذهبت الى بيتها ، واخذت تحكي لزوجها ما حدث ، فترك الرجل بيته راكبا جواده ليلحق باللص ولما رآه جحا أسرع ودخل طاحونة وأخبر الطحان أن هناك من يقتفي اثره واقترح عليه ـ كي ينقذ نفسه ـ أن يتبادلا ملابسهما ، ثم يتسلق الشجرة ويختفي بين فروعها . ففعل الطحان كما نصحه جحا ، فلما وصل الزوج ودخل الطاحونة ليسأل عن السارق ، اشار جحا الى الرجل الذي تسلق الشجرة . وفي الحال خلع الرجل رداءه وترك حصانه وتسلق الشجرة وراء اللص ، عندئذ اخذ جحا الرداء والحصان وهرب . ثم عاد الزوج الى بيته ، واخبر زوجته بأنه قد تأكد أن الرجل قد هبط من السماء ، وسيعود اليها ، ولذلك فقد سلمه الرداء والحصان ليوصلهما الى ابنها مع النقود ! (١)

وهي زوجة ماكرة لئيمة ... وكان هو ايضا ماكرا لئيما : ـ

* جلس جحا مع زوجته ليتعشى ، وكان من بين الاكل حساء ساخن جدا . فشربت زوجته قليلا منه ، فأحرق فمها ، ودمعت عيناها . فسألها جحا عن سبب ذلك . فقالت له : تذكرت المرحومة أمي فبكيت ، فتناول جحا قليلا من الحساء ، فأحرق فمه ، وادمعت عيناه . فسألته زوجته : وانت لماذا تدمع عيناك الان : أبكي على المرحومة امك التي ولدت لئيمة مثلك ، وتركتها لشقائي .

---

(١) هذه النادرة من النوادر العالمية ، وقد نسبت كذلك لجحا الاتراك كما انها مرددة في الريف المصري غير منسوبة الى النموذج الجحوي في مصر ـ ويلاحظ أن النادرة المصرية ـ وهي على الارجح مأخوذة من نوادر جحا الاتراك ـ تعد أكثر الروايات اكتمالا من ناحيتي المعنى والمبنى وأكثر تعقيدا من سائر الروايات . انظر : دراسة مقارنة لهذه الحكاية الشعبية العالمية بعنوان : (الرجل الذي هبط من السماء) للدكتورة نبيلة ابراهيم في مجلة الفنون الشعبية العدد ١١ ـ ديسمبر ١٩٦٩ م . القاهرة ص ٦ وما بعدها .

* بعد أن ماتت زوجة جحا ، تزوج امراة اخرى مات عنها زوجها ، فكانت كثيرا ما تذكر محاسن زوجها المتوفي ، وكان هو يقابلها بالمثل ، فيذكر محاسن زوجته المتوفاه (ليغيظها) ولكنه ضاق ذرعا بذلك . وفي احدى الليالي وهي نائمة دفعها برجله فسقطت على الارض فغضبت وشكته لابيها ، فقال له جحا : أرجو ان تنصفني ، فنحن اربعة اشخاص ننام على سرير واحد . أنا والمرحومة زوجتي ، وابنتك والمرحوم زوجها ، والسرير لا يسع اربعة أشخاص ، لذلك تدحرجت ابنتك من فوقه ، فمـا ذنبي انـا ؟ !

ويمكن ان تشير هذه النادرة الى مغزى أعمـق من مجرد التندر ، حينما يفسد الماضي ، ماضي الرجل والمرأة قبل الزواج حياتهما بعده . ومن روائع مايحفظ لنا المأثور الشعبي من نوادر الزوجة الجحوية تلك النادرة : ــ

* كان جحا ينظر من نافذة داره فرأى رجلا له عليه دين ، فلم يشك في أنه آت لمطالبته ، فقال لزوجته قومي الى الباب ، وقولي له ما يخطر ببالك وادفعيه عنا ، فنزلت الى الباب وتبعها ليسمع ما يدور بينهما . ودق الرجل باب البيت ، ففتحته قليلا وقالت له : من انت ؟ فقال : اظنك تعلمين من أنا عند سماع صوتي ، فأنا صاحب الدين ، وجئتكم عشرات المرات في طلبه ، فقالت : خذ مني وعدا جازما بأننا سنوفيك دينك ، لاننا اكتشفنا وسيلة جديدة للرزق . فقال : وهل تطول المدة .. ؟ فقالت : كلا ، فان قطعان الغنم بدات تمر من أمام بيتنا ، وبمرورها يقع صوف كثير . فنجمعه ونغزله ونجعله خيوطا ونبيعها ، ونسدد لك دينك ، ولا ناكل حقوق الناس . فقهقه الرجل ضاحكا بعد أن كان عابسا ، وسمع جحا قهقهته فمد عنقه من الباب ، وقال له : آه منك ايها المهذار ، اضحك الان ، فقد ضمنت قضاء حقوقك !

* تزوج جحا ، وبعد ثلاثة اشهر أعلمته زوجته انها ستلد ، وطلبت أن يأتيها بقابلة ، فقال لها : نحن نعرف أن النساء يلدن

بعد تسعة اشهر فما هذا .. ؟ فغضبت وقالت له : ان هـذا عجيب ، يا رجل كم مضى على زواجنا .. ؟ الم يمض ثـلاثة اشهر .. ؟ فقال : بلى ، فقالت وكم مضى عليك متزوجا بي ؟ ثلاثة اشهر ، فصاروا ستة ، اليس كذلك .. ؟ فقال بلى ، فقالت : وكم مضى على الجنين في بطني ؟ اليس ثلاثة اشهر ، فهذه تتمة التسعة ، ففكر جحا مليا ثم قال : الحق معك ، فأنا لم افقه هذا الحساب الدقيق ، فعفوا لقد اخطأت .

وبمناسبة النادرة السابقة فان الزوجة الجحوية غالبا تلد في غير أوان ... وتلد بعد زواجها بثلاثة اشهر فقط ، وربما كان هذا الموقف الشاذ وتصرف جحـا ازاءهما مبعث الضحك المقصود هنا : ـ

* تزوج امراة فولدت بعد ثلاثة اشهر ، فاجتمعت النساء لاجل تسمية المولود ، فقالت كل واحدة اسما ، وكان جحا واقفا فقال : الافضل تسميته « سابقا » (١) فقلن لماذا يا جحا .. ؟ فقال : لانه قطع مسافة تسعة أشهر في ثلاثة فقط .

* تزوج امراة : فلما كان اليوم الخامس من زفافها ولدت ابنا ، فقام جحا وصار الى السوق واشترى لوحا ودواة ، فقالوا له : ما هذا ..؟ قال : من يولد في خمسة أيام يذهب الى الكُتّاب في ثلاثة أيـام .

وهي قبيحة الهيئة والشكل :

* خطبت له احدى الخاطبات امراة قبيحة المنظر ، ولم يرها الا ليلة الزفاف وفي الصبـاح تقدمت اليـه العروس عـلى استحياء ، وفي دلال ، قالت له : ارجو أن تخبرني عن أقربائك الرجال ، أيهم أظهر أمامه ، وأيهم أختفي منه .. ؟ فقال لها : اظهري نفسك لكل الناس ، واختفي مني انـا !

---

(١) سمي في الرواية التركية : ساعيا ، كما سمي في الرواية المصرية (ابـو سريع) .

* تزوج جحا امراة قبيحة الوجه ، وكلما نظر اليها اغتم وخيل اليه أنها رجل ، فيخفي وجهه بيديه ، وفي ذات يوم اطلت زوجته من الشباك ، فوجدت فتاة جميلة تسير في الشارع ، فنادت جحا ، وقالت له : تعال يا جحا وانظر الى هذه الفتاة الجميلة ، فنظر جحا اليها وتحسر على حظه وقال : آه ، عندي فكرة عظيمة . فقالت زوجته : وما هي .. ؟ فقال جحا : ما رأيك أن نتزوجها معـا .

* تزوج امراة حولاء ترى الشيء شيئين : فلما اراد الغداء اتي برغيفين فرأتهما اربعة .. ثم أتى بالاناء ، فوضعه امامها فقالت له : ما نصنع بانائين ـ واربعة أرغفة ، يكفي اناء واحد ورغيفان .. ففرح جحا وقال يا لها من نعمة . وجلس يأكل معها ، وفجأة رمته بالاناء بما فيه من الطعام وقالت له : هل انا فاجرة حتى تأتي برجل اخر معك لينظر الي .. ؟ فقال جحا : يا حبيبتي ابصري كل شيء اثنين الا زوجك !

ويا لخراب البيت اذا لم يكن ثمة تعاون بين الزوجين : ـ

* شب حريق يوما في دار جحا ، فجاء أحد جيرانه ، وقال له : اسرع فان داركم تحترق ، وقد طرقت الباب كثيرا ولم يرد احد ، فأجاب جحا ببرود : يا أخي انني قسمت الامور بيني وبين زوجتي قسمين ، أنا علي أن أجتهد في الخارج ، وهي عليها أن تدبر شئون البيت ، فاذهب اليها واخبرها بالحريق لانها هي المختصة بالشئون الداخلية .

وربما كانت بلادتها وعدم غيرتها على زوجها مثار تندر : ـ

* راى في منامه ان بعض جاراته ، يحتلن عليه ليقترن بفتاة جميلة ، فهب من نومه مذعورا وجعل يوقظ زوجته ويقول لها : قومي يا قليلة الغيرة ، ما أشد كسلك . ان النسـاء يحتلن علي لاتزوج وآتيك بضرة ، مع انك بجواري لا تشعرين بشيء ، هيـا

اطرديهن من المنزل ، والا فأنت الجانية على نفسك ، فلا تقولي : اني لم اخبرك بخبرهن .

ولعل السلوك الشاذ بينهما اغرى كذلك بالتندر : ـ

* ذهب يوما الى المحكمة واخبر القاضي أنه عازم على طلاق امراته ، فقال القاضي منذ كم سنة تزوجتها ، قال : منذ بضع سنين ، ولكني لم أحدثها ولم تكن بيننا صداقة . فاسألها عن اسمها واسم أبيهــا .

* غضبت زوجة جحا في يوم ، فقالت له : ابتعد عني ، فلبس حذاءه وخرج من البيت ومشى مسافة طويلة حتى وصل الى نهاية البلدة . فقابله جار له على حمار ، فقال له جحا : اذا وصلت بسلامة الله الى البيت فقل لزوجتي : هل تريدين ان يبتعد زوجك عنك أكثر مما ابتعد .

* تزوج جحا امراة سمينة جدا ، وكان يخافها لانها كانت تؤذيه ، وفي مرة جرت وراءه بالعصا ، فهرب منها تحت السرير ، فلم تستطع أن تدخل وراءه لانها سمينة جدا ، فلما تيقن جحا أنها لا تصل اليه . قال وهو تحت السرير : اذا كنت رجلا فادخلي هنا !

* قال له احد جيرانه : لقد سمعت في داركم ضوضاء وجلبة، وخيل اليّ انه حدثت مشاجرة وصوت شيء يتدحرج على السلالم ، فقال جحا : لقد وقع بيني وبين امراتي نزاع وخصام ، فلطمت جبتي فوقعت الجبة على الارض ، وتدحرجت على السلم ، فأحدثت جلبة وضوضاء ، فقال جاره : ولكن هل تحدث الجبة كل هذه الضوضاء .. ؟ فقال جحا : يا اخي لا تتشدد في الامر ، فقد كنت أنا داخل الجبــة .

* قال جحــا لامرأته ، وهو مريض مرضا شديدا : البسي أحسن ثيابك وتزيني بأنواع الزينة ، وتعالي أمامي ، فقالت له : كيف أدع خدمتك في مثل هذه الساعة وانت في مرض الموت ، فهل

تظنني ضعيفة النفس جاحدة المعروف .. ؟ فقال : كلا يا عزيزتي ، فان ما خطر لي هو غير ما تظنين ، فاني أرى ملك الموت يحوم حولي ، ولعله اذا رآك بتلك الثياب الفاخرة ، والهيئة الحسنة يتركني ويأخذك .

وقد شاء الوجدان الشعبي **ان يكون لجحا زوجتان** ، وان يكون موضع اختبار منهما : ـ

* كان له زوجتان : فأهدى كل زوجة منهما عقدا ـ على انفراد ـ وامرها ألا تخبر ضرتها ، وفي يوم اجتمعتا عليه وقالتا في الحاح : من هي التي تحبها أكثر من الاخرى ؟ فقال : التي أهديتها العقد هي أحب الي ، فسرت كل منهما واعتقدت انها هي المحبوبة .

* كان لجحا امراتان ، وفي يوم جاءتا اليه ، وقالت احداهما : اتحبني انا اكثر أم تلك ؟ وقالت الثانية مثل ذلك ، وتعلقا به ، فحار بينهما جحا ، وأجاب بأجوبة مبهمة كقوله : احبكما سواء ، ولكنهما لم تقتنعا ، وضايقتاه ، حتى ان الصغرى منهما قالت له : لو غرقنا ونحن نسبح في بحيرة ، وكنت على البر فأية واحدة تنقذ منا أولا .. ؟ فاضطرب جحا ـ حاسبا هذا القول حقيقيا ـ فضاع صوابه ثم التفت الى امراته القديمة ، وقال لها : اظنك تعرفين السباحة قليلا . اليس كذلك يا عزيزتي ؟

ولا يقف النموذج الجحوي الى جانب الزوجة الجديدة بالضرورة ـ بل قد يعرف فضل الزوجة الاولى فيقف الى جانبها ، وينصفها من غرور الزوجة الجديدة وغطرستها وله في ذلك بعض النوادر .

ومن المرجح ان هذه الصورة التي رسمتها النادرة الجحوية لزوجته هي التي ادت في النهاية الى هذه النادرة التي تقترب من القول المأثور ، فقد نسب الى جحا انه قال : لعن الله من تزوج

قبلي ، ومن تزوج بعدي ـ فسألوه عن السبب قال : لان من تزوج قبلي لم ينصحني ، ومن تزوج بعدي لم يستشرني .

وقد يشبه هذا الراي ما نسب الى الفيلسوف اليوناني « سقراط » وقد مني بزوجة كزوجة جحا ، مثلا مجسما للمراة المتمردة الجافية العنيفة التي كانت تقابل وداعته وحلمه ببذاءة اللسان وغلظة الطبع وجفاء المعاملة ، بل كانت لا تتورع عن ايذائه باللكم والضرب ، فقد قال سقراط وقد جاءه احد تلاميذه يستشيره : أيتزوج ام لا ؟ ، فأجابه : افعل يا بني فأنت في كلتا الحالتين نادم .

ومن طريف نوادره أيضا :

* سألني احد اصدقائي : هل لك أن تتزوج يا جحا ؟ قلت : لو استطعت لطلقت نفسي !

* اراد جحا أن يبني دارا ، فطلب من النجار أن يجعل خشب الارضية في السقف ، وخشب السقف في الارضية ، وسأله النجار عن سبب ذلك فقال جحا : الناس يقولون : ان الانسان اذا تزوج انقلب عالي البيت سافله . وأنا سأتزوج قريبا ، وبهذا يعود كل شيء الى مكانه الطبيعي .

* * *

ولم تفت النادرة الجحوية أن تسجل بعض طباع المراة عموما . .

* جاءه رجل في ارتباك عظيم ، وقال له : لقد تشاجرت امرأتي وأختها وكادتا أن تخنق كل منهما الاخرى ، فأرجو أن تحضر لعلك تتخذ وسيلة لاصلاح ذات بينهما ، فأجابه جحا : هل تشاجرتا من أجل العمر . . ؟ فقال الرجل : كلا يا سيدي لم تبحثا عن الاعمار . . فقال له : اذهب الى البيت اذن فلا لزوم للارتباك فربما تكونان قد تصالحتا .

* كان جحا قاضيا ، فحضرت امامه امراة عجوز شاهدة في قضية فأمرها جحا أن تقسم اليمين ، فقالت العجوز : « والله العظيم اقول الحق » فسألها جحا : كم عمرك .. ؟ فقالت العجوز : اذا كنت ستسألني عن عمري ، فلم تأمرني ان اقسم بالله العظيم .

وظاهرة **خوف** بعض الرجال من المراة لم تغب من النادرة الجحوية ـ وان كانت تدين أساسا الرجل .. .كما تدين العلاقة القائمة بين الرجل والمراة على أساس من الخوف لا من الحب والاحترام :

*قال السلطان لجحا يوما : وقد اراد أن ينعم عليه : تمن علي يا جحا وانا أحقق امنيتك ، فقال جحا : لا اطلب يا مولانا السلطان غير شيء واحد ، وهو أن تصدر أمرا بأن آخذ حمارا من كل رجل يخاف امراة . فأصدر السلطان أمرا بذلك ، وبعد أيام رأى السلطان جحا ماشيا يسوق أمامه حميرا كثيرة والغبار يملأ البلد من كثرتها فأمر باحضاره ، وسأله عن حاله ، فقال جحا : اني كلما رايت رجلا يخاف امراته اخذت منه حمارا كأمرك . فهش السلطان وتعجب لان أكثر الناس يخافون زوجاتهم ، ثم قال جحا : واني رأيت في احدى البلاد المجاورة لنا فتاة جميلة كأنها القمر في ليلة التمام ، ولها قامة كأنها غصن بان ، شعرها ذهبي وعيناها زرقاوان ساحرتان ناعستان ، وخد نضر ، وشفتان كورقتي ورد ، وأسنانها كاللؤلؤ المنثور ، وعنقها كابريق الفضة أو البللور .. الخ .

فقاطعه السلطان قائلا : اخفض صوتك يا جحا لئلا تسمعك زوجتي فانها شديدة الغيرة ، قاسية علي ، وهي على مقربة من هذه الحجرة ، واخشى ان تسمعك .. فهب جحا ضاحكا وقال : اذا كان لي أن آخذ حمارا من كل رجل من الشعب يخاف امراته ، فهات انت حمارين .

ويعترف جحا بأن مقاومة الرجل لاغراء المرأة أمر عسير : ـ

* كان أمير بلدة مغرما بحب النساء ، فنهاه جحا عن ذلك فلم يقدر على ترك حبهن ، وانشغل فكره ، وتغير حاله ، فرأته احدى جواريه متغيرا فسألته : ما سبب تغيرك ؟ فاخبرها أن جحا نهاه عن حب النساء فقالت له : هبني له وأنا أريك ما أفعل به ، فزوجها جحا ، فلما خلا بها تمنعت عليه حتى تمكنت من اثارته فلما رأت منه ذلك قالت له : لا امكنك مني حتى اضع السرج على ظهرك واللجام في فمك واركب على ظهرك ، فرضي بذلك ، وكانت قد ارسلت الى الامير خفية ، فجاء ورأى جحا على هذا الحال فقال له : ما هذا يا جحا ؟ فقال له : أيها الامير ، هذا الذي كنت أخاف عليك منه بأن تجعلك حمارا مثلي . (١)

وبهذا تحتل المرأة عموما مكانا بارزا في النادرة الجحوية ، قد شاء لها الابداع الشعبي ، كما شاء للزوجة الجحوية من قبل أن تلعب أدوارها المختلفة بمهارة واتقان ، وهي أدوار مستمدة من تجارب الواقع اليومي : استطاع النموذج الجحوي من خلاله ان يعري بعض الجوانب الاجتماعية في حياتنا الشعبية ، وأن يشجب كثيرا من سلوك الازواج ـ من خلال سلوكه مع زوجته او زوجته معه ـ في اطار من السخرية اللاذعة ـ وبأسلوب فاحش بذيء أحيانا أخرى (٢) .

---

(١) عبد الستار فراج ـ اخبار جحا ص ١٢٧ ، ولها نظير تركي وان اختلف المضمون ، فجحا التركي ينهى السلطان عن هيامه الشديد بزوجته وعن تسليمه قياده وقياد امته الى امراة حرصا على سلامة الاحكام وشئون الدولة بطريق مباشر واقرب الى الوعظ . انظر : نوادر جحا الكبرى . حكمت شريف ص ١٦٨ نادرة رقم ٢٤٩

(١) اضطررت الى حذف عشرات النوادر التي لعبت الزوجة الجحوية بطولتها بسبب لفظها الخادش للحياء العام ، وان كانت تشير الى واقع ملموس في حياتنا الاجتماعية ، على الرغم من ان بعض كتب التراث دونت مثل هذه النوادر دون حرج .

ثانيا : جحـا وابنـاؤه

من الدواعي الانسانية والاجتماعية عند الشعب العربي ان تكون لجحا أسرة ... تخيلها الوجدان الشعبي .. وعبر عنها الابداع الشعبي في النادرة الجحوية ، فكان له ابن ، وابنة ، كما كان له اب وأم وحماة ... واذا كان الوجدان الشعبي قد ربط جحا بهؤلاء جميعا ، فهو في ذلك ـ كما سبق ـ انما يصله بأسباب الحياة ونموها من ناحية ، كما يمد ـ من ناحية اخرى ـ فلسفة النموذج الجحوي اجيالا متعاقبة من بعده ، فجحـا يحاورهم بفكاهته وسخرياته ، وما ينطوي عليه ذلك ـ بطبيعة الحال ـ من حكمة عملية يعمل على ترسيبها ، ونقد اجتماعي يهدف اليه .

والابن الجحوي ـ كالزوجةالجحوية ـ يجمع بين المتناقضات، فهو أحمق أبله ساذج تارة ، وماكر عنيد خبيث ذكي متحامق تارة أخرى .

وكما سبق لا يجب ان تؤخذ نوادر جحا مع ابنـه ماخذ الفكاهة او من جانبها المرح فحسب برغم طغيان هذا الجانب عليها ، او هكذا يبدو للوهلة الاولى ـ فجحا مع ابنه انما يحاول ان ينقل اليه تجربته وفلسفته في محاورات طريفـة سجلتها النـوادر الاتية : ـ

* لعل نادرة « جحا وابنه وحماره » من اشهر ما أثر عن النموذج الجحوي من دروس في تنشئته لابنه : ـ

« ركب جحا مرة ومشى ابنه خلفه ، ومرا أمام جمـاعة فقالوا : انظروا الى هذا الرجل الذي خلا قلبه من الشفقة ، يركب هو ويترك ابنه يمشي ، فنزل جحا ومشى وأركب ابنه ، ومرا على جماعة فقالوا : انظروا الى هذا الغلام المجرد من الادب ، يركب الحمار ، ويترك أباه يمشي . فركب جحا هو وابنه على ظهر الحمار وسارا ، فمرا بجماعة ، فقالوا : انظروا الى هذا الرجل القاسي ،

يركب هو وابنه ولا يرفقان بالحمار ، فنزل جحا وابنه وساقا الحمار ومشيا خلفه ، فمرا بجماعة فقالوا : انظروا الى هذين المغفلين يتعبان من المشي وامامهما الحمار لا يركبانه ، وبعد أن جاوزاهم حمل جحا هو وابنه الحمار وسارا به فمرا بجماعة فضحكوا منهما وقالوا : انظروا الى هذين المجنونين يحملان الحمار بدلا من أن يحملهما . وحينئذ أنزلاه ، وقال جحا لابنه : اسمع يا بني ، انك لا تستطيع أن تظفر برضا الناس جميعا » (١) .

فكان ذلك اول درس علمه جحا لابنه ، فرضاء جميع الناس حقا غاية لا تنال . وعلى الانسان أن يفعل ما يعلم انه الحق والواجب ولا يبالي بسخرية الساخرين أو هزء الهازئين ، هكذا يقول جحا معقبا على تلك التجربة .

ولعل اغلب الصفات التي أشتهر بها « الابن الجحوي » هي الحماقة :

وقد ادى ذلك ـ تبادل خلة الحماقة بين الابن وابيه ـ الى اختلاف في رواية نوادر الابن الجحوي ، فتارة تتحدث النادرة عن جحا وابنه ، وتارة أخرى عن جحا وابيه وهو بدوره اشد حماقة من جحا ، و « من شابه اباه فما ظلم » وهذه طائفة من النوادر تؤكد هذه المقولة : ـ

---

(١) اخبار جحا ص ١٤٥ وقد اخترت هذه الرواية لشهرتها برغم انها وردت في مجموعة حسن حسني (نوادر جحا) مكتبة صبيح سنة ١٩٥٠ ص ٢٥ بطريقة اخرى ، اذ حددت نوعية الناس المعترضين فالاول شرطي والثاني تاجر والثالث أم ، والرابع ولد صغير ، والخامس فلاح ، كما أضافت رواية حسن حسني عنصرا جزئيا اخر « فقال ابن جحا لابيه : يجب يا ابي أن نرمي الحمار في البحر ، حتى نستريح من لوم الناس ، فقال جحا : ولو فعلنا ذلك لاتهمنا الناس ايضا بالجنون ، فأنت لن تسلم من لوم الناس على اي حال .. ولا تستطيع أن ترضيهم جميعا ، مهما فعلت يا بني لان لكل منهم رأيا خاصا ينبع من هـواه .... » .

* سئل ابن جحا : ما هو الباذنجان ؟ فقال : هو ولد الجاموسة الذي لم يفتح عينيه بعد ، فصاح أبوه متعجبا : انه ابني حقا ، والله ما علمه أحد هذا الجواب السديد .

* اجتمع على باب والد جحا تراب كثير من هدم وغيره ، فقال أبوه : الان يلزمني الجيران برمي هذا التراب : واحتاج الى مئونة ، وما هو بالذي يصلح لضرب اللبن ، فما ادرى ما أعمل به ؟ فقال له جحا : اذا ذهب عنك هذا المقدار فليت شعري اي شيء تحسن . . ؟ فقال أبوه : فعلمنا أنت ما نصنع به ، فقال جحا : نحفر له آبارا ونكبسه فيها .

* كان جحا وهو طفل يعمل بعكس ما يقوله له والده ، فعلم ابوه ذلك ، فصار اذا أراد أن يطلب منه شيئا يعكس الموضوع ليعمل جحا الصحيح وفي يوم كانا عائدين من الطاحون وعلى الحمار جوالق دقيق ، ومرا بمجرى ماء وكان الحمار لا يستطيع صعود الجسر بحمله ، فصعد أبوه الجسر ، وذهب ابنه ليجر الحمار ليجتاز به المجرى من مخاضة فيه ، وفي وسط المجرى مال جوالق الدقيق الى جانب ، ورآه أبوه فصاح به : الجوالق لم يمل ، ولن يقع في النهر ، فلا تعدله ، فالتفت جحا الى ابيه وقال : يا ابي طالما عملت بعكس ما تريد ، فالان سأقوم بما تأمرني به حرفيا ، وترك الجوالق لم يمسه فوقع في المجرى .

والحق أن نوادر حمق الابن الجحوي كثيرة وطريفة ، ونكتفي بما سقناه من نوادر .

وبرغم ذلك فالابن الجحوي لا يخلو من دعابة او مكر أو خبث وذكاء وتحامق . . او سلاطة لسان : ـ

* كنا نتناول الغذاء في دارنا ، فسألني ابني : اانت اكبر يا ابي أم امي ؟ قلت : لا تشعل النار في البيت يا خبيث ، ودعنا نسعد بغذائنا ، لقد انجبتك امك وكانت لا تزال طفلة .

* جلس جحا يوما على كرسي في احد المساجد ليعظ الناس ، واجتمع حوله خلق كثير ، وانتظروا ما يقول ، فجلس ولم يفتح الله عليه بكلمة واصابه العي والحصر ، وتضايق الناس ، واخيرا التفت اليهم وقال : أيها الناس تعلمون اني غير عاجز عن الكلام ، وقد اردت أن أحدثكم ولكن لم يخطر ببالي شيء ، وكان ابنه جالسا بجوار الكرسي ، فنهض وقال : يا أبي اذا لم يخطر ببالك الكلام افلم يخطر ببالك النزول عن الكرسي .

* مرت بجحا ــ يوما ــ جنازة ومعه ابنه ، وفي الجنازة امراة تبكي وتقول مخاطبة زوجها الميت : الان يذهبون بك الى بيت لا فراش فيه ، ولا غطاء ولا وطاء ولا خبز ولا ماء ، فقال ابنه : يا ابي الى بيتنا والله يذهبون .

* بعث جحا ابنه يشتري له عنبا فابطأ عليه حتى عيل صبره ثم جاءه بالعنب فضربه وقال له : اين التين ؟ فقال له : لم تطلب مني تينا . فقال اذا ارسلتك في حاجة فلا بد أن تقضي حاجتين مرة واحدة ، فمرض جحا فأمر ابنه أن يأتي له بطبيب ، فجاء بطبيب ومعه رجل اخر فسأله من هذا ؟ فقال : اما قلت لي أن اقضي حاجتين في حاجة واحدة ، فجئتك بالطبيب فان شفاك كان خيرا ، والا فهذا الحفار يحفر لك القبر !

أما (حماة جحا) فهي ايضا كابنتها ذات طبع مخالف ، مشاكس عنيد : ــ

* ذهبت حماته تغسل ثيابها في النهر ، فزلقت رجلها وغرقت ، واسرع الناس يبحثون عنها فلم يعثروا على جثتها ، وذهبوا فاخبروا جحا ، فجاء الى النهر ونزل يبحث عنها في الجهة التي ينحدر منها الماء ، فقالوا له : ان الجثة تتجه في الماء نزولا لا صعودا ، فهز راسه وقال : انتم لا تعرفون طباعها المخالفة ، فاتركوني فقد تعلمت طريقتها .

ثالثا : جحـا وحمـاره

وما دمنا قد تحدثنا عن افراد الاسرة الجحوية باعتبارها نماذج مساعدة للنموذج الرئيسي لجحا فانه من الضروري ان نقف هنا أيضا عند « فرد » اخر ارتبط ايضا بالنموذج الجحوي وشاركه كثيرا من نوادره ، ولم يكن دوره فيها بأقل مـن الادوار المكملة الاخرى لافراد الاسرة الجحوية ... واعني به حمار جحا اذ لا يذكر جحا في اي ادب ، ولا في اية بيئة الا وتذكر معه ثلاث شخصيات متممة له أو ملازمة ، وهي زوجته وابنه وحماره ، لكل منها صفاته المميزة وخصائصه على نحو ما راينا مع امراته وولده .

واذا كانت الملاحم الشعبية قد اكدت التعاطف بين الفارس والفرس ، فان هذه الشخصية الساخرة « جحا » تؤكد بدورها وحدة الحياة ، فلم تقتصر مواقف جحا على علاقته بالناس ، وخير ما يصور ارتباط جحا بالاحياء تعاطفه مع حماره الذي لم يكن يعامله معاملة الانسان للحيوان الاعجم بل ارتقى به حتى جعل منه صديقا أو شبه صديق ، يتحدث اليه ، ويصب في أذنيه سخرياته اللاذعة من الحيـاة والاحياء ، « ولم يكـن في صنيعه شذوذ او انحراف لان ارتباط العاملين في معاشهم على هذه الانعام جعلهم يقدرون حياتها ، ويتعاطفون معها ، ويعرفون لها مكانها ، وهي علاقة تدل في ذاتها علىاكبار الشعب العربي للحياة والاحياء » (١) .

والحق أن حمار جحا ـ برغم ما عرف عنه من بلادة ـ كان اليفا ، وديعا صبورا ، وقد اقتناه جحا ليقضي بـه مصالحه ، وليحقق لنفسه شيئا من زينة الحياة ، فضلا عن اقتدائه بالانبياء والصالحين في ركوب الحمير ومما هو جدير بالذكر أن حمار جحا كان من ناحية أخرى مشجبا يعلن بواسطته ويخلع عليه كثيرا من

(١) دفاع عن الفولكلور ص ٢٠٣ .

حماقات الناس وعيوبهم ... لكن قبل ان نستطرد في سرد هذه النوادر نرى أن نشير الى حقيقتين : ـ

الاولى فنية : ـ « وهي أن الحمار الجحوي لم يكن مقصورا لذاته في النادرة والا كان بابها الطبيعي هو حكايات الحيوان ، وانما اقتصر دوره في نوادره على ابراز تلك المفارقة الطريفة بين الانسان العاقل والحيوان الاعجم الذي يتهم عادة بالغباء والبلادة ، ومن ثم لم يخلق الحمار هنا الموقف الضاحك اساسا ، وانما يسر لنا قاعدة عريضة يقوم عليها الموقف المرح في النادرة الجحوية ، فالموقف الضاحك هنا لا يكون من الحمار ذاته ، وانما من حماقات الناس وغبائهم ، وبذلك تدخل نوادره مع حماره في باب (الحكايات المرحة) .

الثانية : موضوعية : ـ وهي أن اكثر نوادر جحا مع حماره تردد في الريف بشكل أوسع مما تتردد في المدينة ، ولم يشأ الابداع الشعبي أن يوفر لجحا حماره بسهولة ، بل جعل ذلك بعد عدة محاولات لا تخلو من طرافة ودعابة وسخرية تصورها النوادر الاتية بايجاز : ـ

النادرة الاولى : ـ وجد فردة « حدوة »مما يستعمل في نعال الحمير ، فاستبد به الفرح والسرور ، وقد منى نفسه بالعثور على ثلاث اخر ، وبعدها قال : الله كريم ، فقد هان الحصول على الحمار حينئذ .

والنادرة الثانية : حينما باع خلخال زوجته ، وذهب يشترى به حمارا ، فقابله رجل نحس ساله عن سبب ذهابه الى السوق ، فقال لاشتري حمارا ، فقال الرجل : قل ان شاء الله يا جحا ، برغم انه يعرف أن جحا رجل صالح يؤمن بمشيئة الله وقدرته ، لكن سماجته اغاظت جحا فقال : ولماذا تشترط علي هذا الشرط والنقود في جيبي والحمير في السوق ، ومضى جحا الى السوق ، فسرقت نقوده ، وفي عودته مر في الطريق على ذلك الرجل النحس الذي ابتدره قائلا : من اين انت قادم يا جحا ؟

فأجابه مغضبا : من السوق ان شاء الله ، وسرقت النقود ان شاء الله ، ولعن الله أباك وأمك أن شاء الله .

* **والنادرة الثالثة** : تقول ان جحا دبر مبلغا اخر وذهب به الى السوق ليشتري حمارا ، وهو شديد الحذر على النقود هذه المرة ، فلما اشتراه ، امسك بمقبضه وجره خلفه وبينما هو في الطريق يحدث نفسه بما سيكون من شأنه مع الحمار غافله بعض اللصوص فسرقوه ووضعوا في المقود رجلا بدلا من الحمار ثم اكتشف جحا الامر بعد ذلك على النحو الذي رأينا به هذه النادرة من قبل ... واخيرا يحصل جحا على حمار ولكن بطريقة « مصائب قوم عند قوم فوائد » . حينما مات امام المسجد في قريته ، فحل محله ، وورث حماره اذ لم يكن للامام وريث ينتفع بـه .

والان ما شأن جحا مع حماره بعد أن حصل عليه ..؟

ليس من شك في أن جحا قد خلع على حماره كثيرا من آرائه وفلسفته في الحياة والاحياء معا .. كما كان يرى أن الناس قد عاشت على طول الزمن وهم يضربون بالحمار المثل في الغباء والبلادة و (الحمق) واحتمال الذل والهوان ، بينما الحمار في راي جحا اذكى من كثير من الناس ، واحكم واكرم من كثير من النفوس ، ولهذا لا ينبغي أن تؤخذ نوادره مع حماره مأخذ الفكاهة فحسب بل بمغزاها البعيد ، والعميق والظريف كما يبدو في النوادر التالية :

* جاء احد الثقلاء يطلب من جحا أن يعيره حماره لقضاء بعض مصالحه ، وحمار جحا عزيز على نفسه ، ويعلم أن هذا الثقيل سينهال حتما على الحمار وصاحبه سبا ولعنا وشتما وضربا اذا ما ناء بحمله أو توقف خطوة على الطريق ، فاعتذر جحا بأن أحد الاصحاب قد سبقه فاستعار الحمار لبعض مصالحه ، ولم يجد الرجل مفرا من قبول العذر ، وقبيل انصرافه نهق الحمار داخل

الدار ، فغضب الرجل وقال لجحا في لهجة ساخرة : كيف تقول يا جحا ان الحمار غير موجود وهو ينهق داخل الدار ؟ فرأى جحا أن ينصف نفسه من سماجة هذا الرجل بحجة أوقح من وجهه ، فقال : مهلا يا صاحبي لقد قلت قولا ، وقال الحمار قولا ، فمن العيب أن تصدق الحمار وتكذب هذه اللحية المملوءة بالشيب !

* وما كاد ينصرف الرجل السابق حتى جاءه رجل اخر يسأله أن يعيره حماره وتملك جحا الغيظ وخشى ان يتعلل بالحجة السابقة خشية ان يفضحه الحمار مرة أخرى ، فأمهل جحا الرجل قليلا ودخل الدار وخرج ثم قال له : آسف يا صديقي ، فقد شاورت الحمار في الامر ، ولكنه أبى أن يذهب معك وقال : اني اخدم الناس ، واحمل لهم أثقالهم ، ثم لا اجد منهم الا الضرب واللعن . فتعجب الرجل مما يقول جحا : ثم قال : ومتى كانت الحمير تتكلم يا جحا ؟ ومتى كان لهم راي ؟ فأسرع جحا بالرد : هو ما ترى وما تسمع ، فكم من حمير تتكلم ، ولها مشورة ورأي ..؟ .

* ونسوق نادرة اخرى ـ من هذا القبيل ـ وكان جحا يكره حاكم بلده وحاشيته لنفاقهم فاتصل بأعدائه .. وعرف الحاكم ذلك فوجدها فرصة للانتقام من جحا وأرسل في طلبه ، فأنكر ما نسب اليه ، وكان أحد أفراد الحاشية ـ ممن يحقدون على جحا ـ جالسا بالمجلس ، فقال : خذوا حمار جحا الى أول الطريق واطلقوه ، فاذا سار الى هناك (حيث مقر الاعداء) ، ثبتت التهمة ، وكان الحمار خير الشاهدين ، فليس أعرف بالطريق من الحمير ، وراقت الفكرة للحاكم فنفذها في الحال ، وخذل الحمار جحا ، ووصل الى مقر اعداء الحاكم ، فتثبت التهمة على جحا الذي يعرف أن عقابها قطع رقبته فأسرع قائلا : هب يا مولانا انك قتلتني ، ولكن هل تدري ماذا يقول الناس عنك ؟ قال الحاكم باستهتار : وماذا يقولون .. ؟ قلت : سيقولون : لقد قتل رجلا بريئا بشهادة حمار ، وليس يعوّل على شهادة الحمير الا الحمير .

* دفع جحا اللجام ذات مرة من فك حماره فجمح به ولم يستطع أن يمسك زمامه فانطلق على غير هدى ، فاستسلم جحا الذي لم يكن له هم الا المحافظة على حياته من الخطر .. فرآه أحد أصحابه على هذه الحال فصاح به : الى أين يا جحا .. ؟ فقال جحا : الى حيث يريد الحمار يا سيدى ما دمنا قد رضينا أن نعيش بعقل الحمير .

ومن أكثر نوادر جحا وحماره طرافة نوادره التي يتبادل فيها مع حماره خلة الحماقة ، ولا تدري حينئذ أيهما أحمق من الاخر ـ في اطار من المحاورات التي ـ تنطوي على كثير من المفارقات بين الانسان والحمار ، ولهذا لا ينبغي أن ننظر الى الامثلة الاتية على انها مما تدخل جحا في اعداد الحمقى والمغفلين بل هي « تدينهم » أساسا وتجسم لنا خلة الحماقة والبلاهة والغفلة وتحذر منها .

* كان جحا يوما راكبا حماره ، فنزل في مكان خال ليقضي حاجته ، ووضع جبته على ظهر الحمار ، ومر احد اللصوص فسرقها ، ولما عاد جحا لم يجد الجبة فجعل يضرب الحمار ويسأله : اين الجبة .. ؟ واخيرا اخذ بردعة حماره ووضعها على ظهر نفسه وجره ، وقال له : هات لي جبتي وانا اعطيك بردعتك .

* ذهب يوما الى السوق ومعه حماره ، ثم اشترى بعض الخضر ووضعها في خرج ، ولكنه لم يضعه فوق الحمار ، بل حمله على كتف نفسه ، وسار راكبا الحمار ، فلقيه أحد أصحابه في الطريق فسأله : لماذا لا تضع الخرج على ظهر الحمار وتخفف عن نفسك حمله .. ؟ فقال جحا : اتق الله يا راجل الا يكفي أن أركب هذا الحمار المسكين .. ؟ افتريد ايضا ان احمل عليه الخرج فازيده تعبا على تعبه .

* أراد أن يبيع حماره فتوجه الى السوق ، وفي اثناء الطريق وصل الى موضع وحل ، فتلوث ذيل الحمار بالطين ، فظن أنه لا يشتريه أحد بالذيل الملوث ، فقطع ذيله ووضعه في الخرج ، فلما وصل السوق اجتمع عليه الناس وقالوا : ان الحمار طيب ولكن يا خسارة ليس له ذيل ، فقال : نتفق على السعر أولا ، والذيل ما هو ببعيد .. انه في الخرج ، اعطيه لمن يشتريه .

* * *

وكم كان الشبه قويا بين « حمار جحا » وبين « الزوجة الجحوية » والابن الجحوي في أغلب الخلال ، فقد كان الحمار بدوره مشاكسا عنيدا مزعجا :ـ

* اخذ حماره الى السوق ، فجاء احد المشترين ومد يده الى فم الحمار ليعرف عمره ، فعضه الحمار عضة بالغة ، فجعل الرجل يسب ويشتم وذهب ، ثم جاء مشتر اخر ، وطاف حول الحمار ، وأراد أن يمسك ذيله ، فرفسه الحمار رفسة قوية طرحته على الارض ، فقام يسب ويلعن ، وذهب ، فجاء الدلال الى جحا وقال له : ان هذا الحمار لا يشتريه أحد ، فهو يعض ويرفس، فقال جحا : لم أحضره للبيع ، وانما جئت به ليرى المسلمون مقدار ما يصيبني من أذاه .

وهناك مقارنة طريفة بين « حمار جحا وزوجته » في نادرة طريفة لها أكثر من مغزى :ـ

* ماتت زوجة جحا فلم يذرف عليها دمعة ، ثم مات حماره ، فاخذ يبكي عليه بكاء متواصلا ، واقبل الناس على جحا يسألونه وهم في عجب من شأنه : ما هذا يا جحا الذي انت فيه ؟؟ ماتت زوجتك فما بكيت عليها قط ، ومات حمارك فانت في بكاء دائم عليه . قال : وما ذنبي أيها الناس لما ماتت زوجتي اقبل هذا يقول : ان أختي يمكن أن تكون خير زوجة لك ، واقبل ذاك يقول : ان ابنتي خير عوض عن زوجتك واني ازفها اليك دون

مقابل . ثم مات حماري فلم اجد احدا من الناس يقول لي سأعوضك عنه بشيء . فهذه حجة الواقع يسوقها جحا من مفارقات في طبائع الناس ـ من خلال حزنه على حماره وما يجده من البون الشاسع بين أقوال الناس وتصرفاتهم .

ومجمل القول ان جحا لا يذكر في اي ادب ولا في اية بيئة اسلامية (عربية ، فارسية ، تركية) الا وتذكر معه ثلاث شخصيات رئيسية متممة لشخصيته الفنية ، وهي زوجته وولده وحماره ، فلم ينفرد بها النموذج العربي .. وكل من هذه الشخصيات الثلاث نمط او نموذج فني متمايز بكثير من الخصائص والمفارقات ، بحيث تعد « شخصيات نمطية جاهزة » عرف كيف يستفيد منها بعض أدبائنا ـ بالفعل ـ في أعمالهم الفنية المعاصرة على نحو ما سوف نرى في خاتمة هذا الكتاب .

ومما هو جدير بالذكر أن أغلب هذا النوع من النوادر الاجتماعية لا تزال تتردد اكثر من نوادره السياسية بصورة لافتة للنظر اذ لا تزال الالسنة تتناقلها ، وتتمثلها وخصوصا تلك التي تدور حول العلاقات الزوجية غير المتكافئة ، وسلوك الازواج ، وزوجة الاب ومناكفات الضرة في صورة « حواديت » اكثر الحديث فيها يدور « مكشوفا » وبطريقة تخدش الحياء ما في ذلك شك ، ولهذا لا نعجب اذ يختلط الامر كثيرا بين جحا وبين أبي نواس الشاعر الاباحي المعروف . وكذلك نوادر النموذج الجحوي مع حماره مما تشيع بكثرة ايضا في الريف وتكشف عن جوانب الغفلة في الناس بوجه خاص ، كما يؤكد أيضا اكبار الناس هناك لهذا الحيوان الوثيق الصلة بمصالحهم وحياتهم .

واذا كان المأثور الجحوي قد نجح في تنميط الزوجة الجحوية تنميطا فنيا مميزا ، جعل منها مثلا للزوجة الحمقاء الغبية الجاهلة اللئيمة التي لا تهتم الا باشباع رغباتها الشخصية ، دون أن تفقه شيئا من حكمة زوجها وعلمه أو فلسفته ، ودون أن تقدر فيه حلمه

وعفوه وتسامحه .. فان هذا المأثور نفسه لم يعف ـ في الوقت ذاته ـ هذا النمط من الازواج ، في تخاذله وسلبيته ـ حين لا يكون ثمة مجال للتخاذل أو السلبية وذلك في ضوء الواقع الاجتماعي الذي عكسته نوادر جحا مع زوجته بخاصة .

كما أن من اطرف نوادر هذا الموضوع ـ التي لم نستطع تسجيلها هنا تلك النوادر التي صورت « كيد المرأة الجحوية » وتفننت في ابراز هذا الجانب من جوانب الزوجة الجحوية وهي تشير الى ان المرأة اذا كادت لم تقف في كيدها عند حد أو رادع ..

وقد يكيد لها الزوج ، ومن خلال نوادر المكايدات التي لا تنقطع تتجلى أروع المفارقات الاجتماعية والاخلاقية والنفسية ، وان كانت تتدرج ـ أي النوادر ـ في اغلبها ـ من حيث الموضوع ـ تحت ما يمكن ان نسميه **بالحكاية المرحة الفاحشة** .

اما ابن جحا ، فقد كان ايضا شخصية فذة بين الابناء ، في حمقه وفضوله ، وثرثرته وفي تدخله فيما لا يعنيه ، وفي خبثه وعناده ومكره ثم في ترسمه خطى والده فيما يقول ويفعل فمن شابه أباه فما ظلم ، والولد سر ابيه كما يقولون ...

ومن المؤكد انه سينشأ لجحا بعد ابنه احفاد وابناء احفاد ، ولا نظنهم جميعا قالوا ـ بعد ـ كلمتهم الاخيرة في ابداعنا الشعبي ...

اما حمار جحا ـ وهو اشبه بحمار السخرة ـ فهو مثال الحمار البليد العنيد ما في ذلك شك .. لكنه ايضا صبور ، وما يدور بين جحا وحماره في هذا الفصل من محاورات تؤكد تماما انه يريد ان يقول للناس : ان الحمار الذي نضرب به المثل في البلادة والغباء ربما كان اذكى من كثير من الناس .

ولهذا لم يكن من قبيل الصدفة ذلك (التعاطف) وذلك « الاكبار » الواضحين من جحا نحو حماره ، كما استطاع جحا ان يجعل من حماره « مشجبا » يعلق أو يخلع عليه كثيرا من آرائه في الحياة والاحياء كما راينا ...

اما سائر افراد الاسرة الجحوية فأغلب ما يميزها هو الحمق، والسلوك غير المعتاد . ولهذا نؤكد أن في الاسرة الجحوية عموما ـ مادة درامية حية وخصبة في مجال الابداع الفني الحديث ، ندعو ادباءنا وفنانينا الى استلهامها في اعمالهم .

ثالثا ـ جحا والحمق والتحامق

ان النمط الجحوي ـ في المأثور الادبي العالمي ـ هو بطل كثير من نوادر الغباء والذكاء عند كل الشعوب ، وكذلك النموذج الجحوي العربي ، حيث يتجاذب شخصيته عنصران محوران رئيسان ـ من حيث التعبير ـ هما الحمق والتحامق ـ (البله والتباله ، الغفلة والتغافل) ، فهي وسائله المميزة في التعبير عن نفسه ، وتتشكل في ضوئها رؤيته وفلسفته ـ بابعادها الانسانية والاجتماعية والسياسية ـ في قالب يتسم بالبساطة والصدق والعمق والسخر في آن .

من أجل هذا افردت هذا الفصل ، لبيان أبعاد الحمق والتحامق عند النموذج الجحوي العربي ، بعد الحديث عن فلسفته وحكمته الشعبية ، في الفصول السابقة ، حتى تستبين رؤية القارىء ـ لهذا النموذج الفريد ، في أدبنا العربي .

ومما هو جدير بالذكر ان نوادر الحمق والتحامق (الغباء والذكاء) في التراث الادبي من الكثرة بمكان ، بحيث وجد من يعني بها من العلماء والادباء والكتاب ، منذ بدأ عصر التدوين ، فأفردوا لها ـ جمعا وتصنيفا ـ عشرات من الكتب التي احتفلت بالنوادر عموما ، ونوادر الحمقى والمغفلين والمتحامقين والاذكياء خصوصا .

وليس من شك ،في أن جحا العربي ، قد فاز من بين هذا الكم الهائل بنصيب كبير ، عندما رددت هذه النوادر منسوبة اليه ، عبر رحلتها التاريخية الموصولة .

* * *

وقبل ان نشرع في سرد نماذج من نوادره فثمة ملاحظتان ، احداهما تتعلق بتعريف القدماء للحمق والتحامق . والاخرى تتعلق بالنوادر التي انتخبناها في هذا الموضوع :

فأما الحمق والغفلة ، في راي القدماء ، فضرب من البلادة او الغباء ونقص في الذكاء ، والجهل بصواب الاحكام ، وسلامة التعبير . « وذو الغفلـة لا يشعر بغفلته ، بل لعله يظـن في نفسه البصيرة والالمعية والذكاء ، ويحسب الضاحكين منه هم المغفلين او الاغفال ، وجهل ذى الغفلة هو الذي يضاعف ضحك الناس منه لانهم يعرفون ما به ، ولا يعرف هو ما بنفسه » (١) .

فكأنه كما يقول برجسون « يستخدم طاقية الاخفاء بطريقـة معكوسة ، فاذا هو يحتجب عن نفسه ويبين لكافة الناس » (٢) .

ومن هنا كانت الغفلة من بواعث الضحك ، لان المغفل يفاجىء الناس بغير ما يتوقعون ، فهو يرى ما ليس موجودا ويسمع ما ليس ملفوظا ، وينطق بما لا يوافق المقام ، لانه في واد والناس في واد ، هو فيَ عالم الوهم والخيال والناس في عالم الحقيقة والواقع ، يقال له حسن ، فيسمعه عليا ، ويكتبه زيدا ويقراه عمرا ، وينطقه ابا داود !

---

(١) د. احمد الحوفي الفكاهة في الادب ـ دار نهضة مصر القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ٣٥ .

(٢) برجسون الضحك ، ترجمة سامي الدروبي دار المعارف ص ٢٢ .

وأعظم ما يضحك الناس من ذوى الغفلة أن تشتهر عنهم وتسايرهم طيلة حياتهم فيقترن الضحك هنا بالارتباط أو الاقتران الشرطي كهذا الذي يقترن بالشخصية الجحوية واشباهها .

والحماقة لغة ماخوذة من حمقت السوق اذا كسدت ـ كما قال ابن الاعرابي فكأنه كاسد العقل والراي فلا يشاور ولا يلتفت اليه في أمر (١) . هذا فيما يتعلق باللغة في هذا الاسم ، « ولا يظهر المقصود الا بكشف المعنى فنقول : معنى الحمق والتغفيل هو الغلط في الوسيلة والطريق الى المطلوب مع صحة المقصود بخلاف الجنون فانه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعا ... فالاحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد ... فمن ذلك أن طائرا طار من أمير فامر أن يغلق باب المدينة فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر » (٢) .

ومن طريف ما يذكر أن ابن الجوزى ذكر في الباب الرابع من كتابه أخبار الحمقى والمغفلين تسعة واربعين اسما تطلق على « الاحمق » من الرجال والنساء (٣) ، كما ذكر في موضع لاحق صفات الاحمق من حيث الصورة او الهيئة والشكل اهمها طول اللحية ، ومن حيث الخصال والافعال ننقل بعضا منها : من ذلك ترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه ولا يخبره ، ومنها أنه لا مودة له ، ومنها العجب وكثرة الكلام » (٤) و « من خصال الاحمق فرحه بالكذب من مدحه ، وتأثره بتعظيمه وان كان غير مستحق لذلك » (٥) و « قال بعض الحكماء : من اخلاق الحمق : العجلة والخفة ، والجفاء ، والغرر ، والفجور ، والجهل ، والتواني ، والخيانة والظلم ، والضياع ، والتفريط ، والغفلة ،

---

(١) اخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى ص ٨ .
(٢) نفسه ص ٨ ـ ٩ .
(٣) نفسه ص ١١ ، ١٢ .
(٤) نفسه ص ١٦ .
(٥) نفسه ص ١٧ .

والسرور ، والخيلاء ، والفخر ، والمكر ، ان استغنى بطر وان افتقر قنط ، وان فرح أشر ، وان قال فحش وان سئل بخل ، وان سال الح ، وان قال لم يحسن وان قيل لم يفهم وان ضحك نهق ، وان بكى خار (١) .

اما التغافل او التحامق ، فهو تصنع الغفلة أو الحماقة ، فلقد يكون الشخص عاقلا اريبا ذكيا كيسا ، لكنه يتغافل أو يتحامق ، فيخال الناس انه احمق ذو غفلة .

وللتغافل ــ وبخاصة في عصور ازدهار النمط الجحوي ــ اسباب شتى ، وتحتاج الى دراسة خاصـــة ــ أهمهـــا الاسباب السياسية والعقائدية والدينيـــة ، وســـوء الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، ولا سيما في عصور البطش والانتقـــال والتحول التاريخية ، فيلجأ الناس ــ ولا سيما المعارضـــين أو الرافضين ــ الى التقية ، وستر ما بالنفس ، فرارا من العقاب أو الاضطهاد او التهمة ، ومنها السخرية بالناس اذ لا يروقهم العقل وصواب الرأي ، فيكافئهم العاقل بمجازاتهم على نقص عقولهم فيتغافل ، ومنها سوء ظن الناس بالرجل العاقل فينسبون اليه الغفلة ، ومنها رغبة الشخص العاقل في أن يفكه الناس ، أو يتقرب اليهم وينال عونهم وعطاءهم ، لهذا رد الحمدوني الشاعر على من لاموه في حمقه بقوله اللاذع : ــ « حماقة تعولني خـــير من عقل اعوله « وأنشد (٢) .

عذلوني على الحماقـــة جهـــلا	وهي من عقـــلهم الذ وأحـــلى
حمقـــى اليوم قائـــم بعيـــالي	ويموتـــون ان تعاقـــلت ذلا

---

(١) نفسه ص ١٨ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبين ــ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ج ١ ص ٢٤٥ .

وكثيرا ما سخط العقلاء حظهم ، وتبرم الادباء بنصيبهم من الحياة ، فمدحوا التغافل والتحامق ودعوا اليه ، ولا تملك إلا الاعجاب بوجهة نظرهم ، قال شاعر : ـ (١) .

تحامق مع الحمقى اذا ما لقيتهم ولاقهم بالنوك فعل اخي الجهل
وخلط اذا لاقيت يوما مخلطـا يخلط في قول صحيح وفي هزل
فاني رايت المرء يشقى بعقـله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

واما الملاحظة الاخرى ، فتلك التي تتعلـق بالنوادر مـن ناحيتين ..

الاولى : ـ تشير الى ما يمكن ان تتركه مثل هذه النوادر في نفوسنا من آثار نفسية واجتماعية وموضوعية .. (الوظيفة والغاية) .

والاخرى تتعلق ببواعث الضحك ـ من الناحية الفنية ـ في نوادر الحمقى والمغفلين ، والمتحامقين والاذكياء في المأثور الجحوي خاصة وضروب الفكاهة عامة .. والحق اننا لم نشأ ان نقف عند هذه البواعث فهذا امر قد يخرج بنا عن الحجم المقرر لهذا الكتاب فضلا عن أن كثيرا من الدراسات المعاصرة ـ بله كتب التراث ـ قد تناولته بما فيه الكفاية ، غير انه يهمني أن اشير في هذا المقام الى ان النادرة الجحوية ، بعامة ، قد استوعبت جميع البواعث الفنية للضحك (٢) ولسوف يلمس القاريء ذلك بنفسه دائما . الامر الذي يفرض علينا من ناحية أخرى عند سرد نوادره أن نتركها دون تعليق من جانبنا حتى لا يفتر ما تتركه فينا من اثر اذا شئنا التحليل أو بيان البواعث الفنية الكامنة وراء ما تنطوي عليه من فكاهة أو دعابة أو سخر .

---

(١) نفسه ، والنوك : الحمق .

(٢) ونعني بذلك : ما احصاه دارسو الفكاهة المعاصرون من اساليب التعبير الفكاهي مثل اسلوب القلب ، والعكس وتكرار الكلمة في مواضعها والنسيان المعهود في العلماء والعباقرة ومن على شاكلتهم ، والعثرة القلمية ، أو

وبالرغم أن الغفلة او الحمق ، نقيض التغافل او التحامق ، فان آثارهما من الناحية النفسية واحدة ، كما ان الغرض الواحد ، ويقول ابن الجوزى في اسباب جمعه لاخبار ونوادر الحمقى والمغفلين :

وبعد فاني لما شرعت في جمع اخبار الاذكياء ، وذكرت بعض المنقول عنهم ليكون مثالا يحتذى ، لان اخبار الشجعان تعلم الشجاعة ، آثرت ان اجمع أخبار الحمقى والمغفلين لثلاثة أشياء :

الاول : ان العاقل اذا سمع اخبارهم عرف قدر ما وهب له مما حرموه ، فحثه ذلك على الشكر ، **والثاني** : ان ذكر المغفلين يحث المتيقظ على اتقاء أسباب الغفلة .. **الثالث** : أن يروح الانسان عن قلبه (١) ولهذا ينبغي أن ننظر الى النوادر الجحوية وبخاصة نوادر الحمق والتحامق « لا على انها سخف أو هذر ولكنها تنطوي على دلالة بارعة رائعة ، تستهدف أول ما تستهدف

اللسانية أو الطبيعية ، والغلطة مع حسن النية ، وما يتبعها من حسن تخلص فكه ، وخيبة الحيلة وارتدادها على صاحبها ، او ظهور الخديعة عند من يفرط في الذكاء فلا يلبث أن يبدو لنفسه ولغيره كأنه مفرط في الغباء ، كما يتأتى الضحك من تناقض المعاني والمفارقة وتناقض الالفاظ ، والصور الهزلية ، وسرعة الجواب مع المغالطة و « القالب » والسخرية والتهكم والمحاكاة ، ومنها النصائح المطردة مع القياس الظاهر ، ثم يتبين استحالتها بعد التأمل اليسير ، ومنها فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » ومدارها المقابلة من مثل قولهم : ـ قبل الزواج تقبل الفتاة الفتى لتربطه ، وبعد ذلك تربطه لتقبله » وكذلك المزاح والدعابة والحذلقة والرد بالمثل واغلب هذه الضروب وبواعثها معروفة للقارىء العربي الذي الم بعلوم البلاغة العربية كالتورية والمقابلة ، والمشاكلة ، والهزل يراد به الجد ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف والاضمار في مقام الاظهار ، واخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر والتشبيه الملفوف والمفروق والفصل والوصل ، والقلب والالتفاف والتغليب والكناية ، والتحريف ، والتصحيف .... الخ . انظر على سبيل المثال في انواع الفكاهة وبواعث الاضحاك فيها فنيا : سيكلوجية الفكاهة والضحك للدكتور زكريا ابراهيم . والفكاهة في الادب اصولها وانواعها للدكتور احمد محمد الحوفي . وجحا الضاحك المضحك للاستاذ عباس محمود العقاد .

(١) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى ص ٢ ، ٣ .

ابراز الغفلة التي تنطبع في بعض الطبائع البشرية ، وفتح الاذهان المغلقة عن هذه الحياة في حقيقتها وفي قيمتها وهي بهذا مذهب من مذاهب الفلسفة في الحياة ، وان ظهرت في هـذا الاسلوب الضاحك » (١) .

اولا : **جحـا الاحمـق** :

* مر به يوما عيسى بن موسى الهاشمي ، وهو يحفر بظهر الكوفة موضعا فقال له : مـا بالك يا ابا الغصن ..؟ لاي شيء تحفر ؟ فقال : اني دفنت في هذه الصحراء دراهم ، ولسـت اهتدى الى مكانها . فقال له عيسى : كان ينبغي أن تجعل عليها علامة ، قال جحا : لقد فعلت ، قال : ماذا ؟ قال : سحابة في السماء كانت تظلها ولست أدري موضع العلامة الان .

* قيل لجحا : لو انك حفظت الحديث كحفظك هذه النوادر لكان أولى بك . فقال قد فعلت قالوا له : فماذا حفظت مـن الحديث ؟ قال حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصا مخلصا . قالوا : ان هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟ قال : نسى نافع واحدة ، ونسيت انا الاخرى .

* كان احمقان يمشيان في الطريق ، فقال احدهما للآخر : تعال نتمنى ، فقال أحدهما : أتمنى أن يكون لي قطيع من الغنم عدده ألف ، وقال الاخر : أتمنى أن يكون لي قطيع من الذئاب عدده الف ليأكل غنمك ، فغضب متمني الغنم وشتمه ، فشتمه الآخر ، ثم تضاربا فمر بهما جحا وسألهما : ما بالكما ؟ فحكيا له القصة ، وكان جحا محملا حماره قدرين مملوءين عسلا فأنزل القدرين وكبهما وقال : الله يهرق دمي مثل هذا العسل ان لم تكـونا أحمقين .

---

(١) محمد فهمي عبد اللطيف .مذكرات،جحا ص ٣ .

* دخل احد قصور الرؤساء مع الكبراء ، وكانوا يتباحثون في امور كثيرة مهمة ،وجلس جحا ساكتا مشغول الفكر ، فأثار انتباههم ، فقالوا له : فيم تفكر ... ؟ قال : اني أعجب لهذه المنضدة الكبيرة ، كيف دخلت من هذا الباب الصغير .. ؟ . (١)

* ورث نصف دار ابيه فقا ل: اريد أن أبيع حصتي من الدار واشترى الباقي فتصير الدار كلها لي .

* ذهبت امه الى عرس وتركته في البيت وقالت له : احفظ الباب فجلس الى الظهر فلما ابطأت عليه قام فقلع الباب وحمله على عاتقه وذهب به اليها ، فلما رآته قالت له : ما هذا .. ؟ فقال لها : قد قلت احفظ الباب وها هو ذا معي وانا احفظه جيدا !

* ضاع حماره ، فجعل يبحث عنه ويقول : الحمد لله ، فسألوه : ولماذا تقول ذلك ؟ فقال : أحمد الله لاني لم اكن راكبا الحمار والا لكنت ضعت معه !

* مر بقوم وفي كمه خوخ فقال لهم : من اخبرني بما في كمي فله اكبر خوخة منه ؟ قالوا : خوخ ، فقال : ما قال لكم الا من أمه فاعلة !

* اشترى جحا حمامتين بأحد عشر قرشا ومشى في الطريق الى بيته ، فقابله صديق له ، فسأله عن ثمنهما فلم يرد عليه جحا بل فرق أصابع كفيه وأخرج لسانه اشارة الى انثمن الحمامتين أحد عشر قرشا فطارت الحمامتان من يده !

---

(١) قد تصرف المصريون في هذه النادرة فنسبوها الى أحد النواب في البرلمان ، فبينما كان الاعضاء يناقشون احدى قضايا البلد المصرية ، وجدوا هذا النائب لا يشاركهم النقاش مهموما مشغولا ، تبدو على وجهه علامات الدهشة والعجب بين لحظة واخرى ، فتصوروا أنه اوشك أن يصل الى قرار بصدد ما يناقشون ، فسألوه رايه ، فكان أن اجابهم على النحو الذي أجاب به جحا في النادرة .

* سافر جحا سفرا طويلا فعلق على جسمه يقطينة وقال : اعلقها حتى لا أضيع وسار فحط في بعض المنازل ولما نام جاء رجل واخذ تلك اليقطينة وعلقها على نفسه فلما استيقظ جحا ورای الرجل قال عجبا هذا الرجل أنا ، فمن أنا .. ؟ !

* ذهب الى البئر ورای خيال القمر فيه ، فظن ان القمر وقع فيه ، ففكر وقال : لا بد أن أخلص هذا المسكين ، فأحضر حبلا وخطافا والقاه في البئر فاشتبك بحجر كبير ، فشد شدا قويا حتى انقطع الحبل ، ووقع جحا على ظهره ، فرأى القمر في السماء ، فقال لنفسه ولو أني تعذبت كثيرا لكني خلصت هذا المسكين من الغرق .

* ضاع من جحا خاتم ذهب في الطريق وكان الظلام شديدا في الشارع ، فلم يستطع ان يبحث عنه ، فلما حضر الى بيته أخذ يلف ويدور في الحجرات ويبحث عن الخاتم ، فقالت له زوجته : عن اي شيء تبحث يا جحا ؟ فقال : ابحث عن الخاتم ، فقالت وهل ضاع منك هنا ؟ فقال : لا بل في الشارع ، فقالت : اذا كان الخاتم قد ضاع منك في الشارع ، فكيف تبحث عنه هنا ، فقال جحا : الشارع مظلم ولكن البيت فيه نور (١) .

* انطفأ السراج في احدى الليالي ، فقالت له زوجته : هات الكبريت الى جانبك الايمن ، فقال لها جحا : يا امراة هل أنت مجنونة ، كيف أعرف يميني من شمالي في ظلام الليل !

* سألني أهل بلدتنا عن الشمس والقمر وأيهما اكثر فائدة للناس من الاخر ؟ فقلت : ان الشمس تطلع في النهار ولا حاجة للناس الى النور في النهار ثم هي لا تفيد في ظلام الليل : اما القمر فيبزغ في الليل ، وينير في الظلام ، ولهذا كان أعظم فائدة من الشمس !

---

(١) من النوادر العالمية .

* سئل جحا يوما عن دواء العين المريضة ، فقال : آلمني ضرسي ذات يوم ، فلم أجد وسيلة تريحني من المه الا خلعه !

* كان جحا جنديا في الجيش ، وقد لاحظ عليه الضابط انه ابله لا يعرف شماله من يمينه ، ولا امامه من خلفه . فقال له الضابط ، انتبه جيدا يا جحا وفكر بعقلك ، والا فلماذا خلق الله دماغك ، فقال جحا : لالبس فوقه الطربوش يا افندم !

* احست امراة جحا ببعض الالم فأشارت عليه أن يدعو الطبيب فنزل لاحضاره ، وحينما خرج من البيت أطلت عليه من النافذة وقالت له : الحمد لله ، لقد زال الالم فلا لزوم للطبيب ، لكنه أسرع الى الطبيب وقال له : ان زوجتي كانت قد أحست بألم وكلفتني أن أدعوك لزيارتها لكنها أطلت علي من النافذة واخبرتني أن قد زال المها فلا لزوم للطبيب ، ولذلك قد جئت ابلغك حتى لا تتحمل مشقة الحضور !

* نظر يوما الى السماء ، فقال :، ما اخلقها بالمطر لو كانت متغيمة !

* سمع قائلا يقول : ما أحسن القمر ، فقال جحا : اي والله ، خاصة بالليل !

ولهذه النوادر أشباه ونظائر ـ التقينا ببعضها عند الحديث عن فلسفة النموذج الجحوي . ولعل خير ما نختتم به حمق جحا تلك النادرة التي اشتهرت عنه في مصر : ـ

* ذهب جحا الى بقال ، واشترى بعشرة قروش زيتا ، وكانت معه غضارة (أي وعاء له قاعدة خاصة) فامتلأت الغضارة فقال البقال : قد بقي لك بعض الزيت ففي اي شيء تاخذه ؟ فقلب الغضارة وقال : في هذه ، واشار الى كعبها ، فصب البقال في ذلك الكعب ، فأخذه جحا ومضى ، فلقيه رجل فقال : بكم اشتريت هذا الزيت .. ؟ فقال : بعشرة قروش فقال الرجل : أهذا القدر فقط ؟ فقلبها جحا وقال : وهذا أيضا ...!!

ثانيا ـ جحا المتحامق :

اذا استثنينا ما نسب الى جحا من نوادر في الحمق ، فاننا نجد ان معظم نوادر الرمز الجحوي تنتمي الى هذا النوع ، اعني الى التحامق ، اسلوبا ووظيفة ، تعبيرا وفلسفة ، ولكننا نذكر تحت العنوان السابق ، بعض نوادره التي نستبين منها بعض اسلوبه في التعبير وهي نوادر تتوسط بين الحكمة البينة ، والسذاجة البينة ... يجمع بينهما التحامق ـ الوجه الاخر للرمز الجحوي ـ بما وراءه من دوافع :، ـ

* دخل جحا يوما على احد الامراء ، فقال له الامير : كم ولدا لك .. ؟ فأجابه جحا : لي ثمانية أولاد ، فأمر له الامير بثمانية الاف درهم فأخذها وخرج مسرورا ، ولما بلغ الباب رجع الى الامير وقال له : يا سيدي نسيت واحدا من عيالي ، فقال له : من هو ؟ فقال جحا : هو انا ، فضحك الامير وأمر له أيضا بألف درهم !

* ذهب صباحا الى الطاحون فجعل يسرف من قفف الناس ، ويضع في قفته ، فقا لالطحان : ماذا تفعل يا جحا ؟ فقال له : انا احمق . فقال له : ولم لا تأخذ من قفتك وتضع في قفف الناس اذا كنت احمق ؟ فقال له : انا الان احمق واحد ، فاذ فعلت ذلك اصير احمقين !

* ارسل جحا ابنه الى السوق ليشترى له راسا مشويا فلما اشتراه اكل اذنيه وعينيه ولسانه ودماغه واتى الى ابيه ، فقال له اين عيناه ؟ قال له : كان اعمى قال فاين اذناه ؟ قال : كان اطرش . قال : فاين لسانه ؟ قال : كان اخرس . قال فاين دماغه ؟ قال كان معلم اطفال (صبيان) قال جحا : اذهب فرده . قال الابن : اني اشتريته على عيبه فلا يرده البائع !

* جاءت امراة الى جحا وقالت يا سيدي اقرا لي هذه الورقة فتناولها وقال وهو يتظاهر بقراءتها : حضرة الست المصونة ، والجوهرة المكنونة ، أدام الله بقاءها .. بعد مزيد السلام والتحية لرؤية طلعتكم البهية ، صانها رب البرية ، فقاطعته المراة قائلة : يا سيدي هذه ليست خطابا بل كمبيالة ، فقال : لماذا لا تقولي هذا من الاول ، كنت قرأتها لك قراءة كمبيالات !

* تزوج جحا فاعطى المأذون اجرة قليلة فقال له : هذا قليل يا جحا ، قال : خذها وساعوضها لك عند الطلاق ان شاء الله !

* كان ماشيا في الصحراء ، فرأى ثلاثة من قطاع الطريق على بعد ، فخاف وخلع ثيابه وأدخلها أحد القبور الخالية ، فلما وصلوا رأوه عريانا فقالوا له : من انت .. ؟ فقال : انا ميت من جملة الاموات في هذه القبور وقد خرجت الان للنزهة ، وشم الهواء ، فضحكوا منه وتركوه !

* دعا جماعة من أصحابه ليتغذوا عنده ، فلما حضروا اجلسهم وصعد الى زوجته وقال لها : ماذا اعددت لنا من اصناف الاكل فقالت له زوجته لا يوجد عندنا شيء نقدمه طعاما للضيوف فأطل جحا من النافذة وقال لاصحابه : ان جحا ترككم وخرج من الباب الثاني فلا تنتظروه !

* مر به رجل فرآه ياكل دجاجة ورغيفا ، فقال له : يا جحا : اعطني قطعة ، فقال له جحا : انها ليست لي وانما هي لامراتي ، اعطتني اياها لآكلها (لها) انا وحدي !

* وقف جحا على تاجر وساومه على قطعة من القماش ليعملها قفطانا ، على أن يكون ثمنها ثلاثين درهما ، ثم تذكر ان قفطانه جديد فقال للبائع : كنت اقصد عمل القفطان ولكني عدلت ، فأعطني بدله قطعة من القماش تصلح أن تكون جبة ، فقال البائع : حسنا ، وناوله قطعة للجبة فاخذها ومشى . فقال البائع : يا شيخ أنت لم تعطني ثمن الجبة ، فقال جحا : عجبا الم اترك لك

بدلا منها القفطان . فقال البائع : ولكنك لم تعطني ثمن القفطان فظهرت الدهشة على وجه جحا وقال : سبحان الله انا لم آخذ القفطان فكيف ادفع ثمنه !

* اعطى خادما له جرة ليملأها من النهر ، ثم صفعه على وجهه صفعة شديدة وقال له : اياك ان تكسر الجرة . فقيل له : لماذا تضربه قبل أن يكسرها ؟ فقال : اردت أن اريه جزاء كسرها حتى يحرص عليها !

* دخل عجل غيط جحا ، واخذ يأكل البرسيم ، فرآه جحا ، فهم بضربه ، فجرى منه العجل ، وذهب الى أمه البقرة ، ووقف بين أرجلها وهو خائف ، فجرى جحا وراء العجل ، فلما وصل الى البقرة أخذ يضربها بالعصا . فقال له صاحبها : ماذا فعلت البقرة حتى تضربها يا جحا ؟ فقال جحا : اني اضربها لانها لم تحسن تربية ابنهـا !

* اراد جحا أن يبيع دجاجات له في بلدة اخرى ، فوضعها في قفص وسار بها ففكر في أثناء الطريق أن القفص ربما كان ضيقا على الدجاج ولا بد له من الفسحة ففتح باب ذلك القفص فهربت الدجاجات ، وبحث عنها فلم يدرك الا الديك ، فصار يضربه ويقول له : يا ملعـون انت في الظلام تعرف طلوع الفجر ، وتصيح مثل الحمار وتقلق الجيران ، وطوال النهار تتباهى بريشك وعرفك ، ثم لا تعرف أين ذهبت دجاجاتك في وضح النهار . . ؟

* مر به رئيس الحرس في منتصف الليل ، وهو يدور في الشارع كمن يبحث عن شيء فسأله عم تبحث ؟ فقال جحا : هرب مني نومي ، وانا ابحث عنه !

* كان جحا في المسجد مع بعض صحابه يتحدثون في شيء من التباهي عن العبادة والتهجد في الليل فسألوه : هل تقوم الليل يا جحا ؟ قال : أجلّ أقوم الليل لابول ثم اعود الى فراشي !

* دخل جحا البيت ليلا واذا جارية ابيه نائمة ، فاتكأ عليها ، فانتبهت وقالت : من هذا ؟ قال : انا ابي !

* كانت له عمامة طويلة جدا واراد بيعها ، فصار ينادى من يشتري هذه العمامة بعيبها ؟ فقالوا له : وما هو عيبها ؟ قال : لها أول وليس لها اخر !

ولهذه النوادر أشباه ونظائر كثيرة اكتفينا منها بالنماذج السابقة ...

* * *

والتحامق الجحوي ـ في الوجدان الشعبي ـ ذكاء عملي ان صح التعبير ، واستطاع النموذج الجحوي بتحامقه أن يخلص نفسه من كثير من المواقف تخلصا فكها وقد راينا من قبل نماذج كثيرة لها ، وهذه مجموعة اخرى من النوادر تمثل هذه المواقف :

* اتفق جماعة من افراد الحاشية الملكية ان يأخذوا جحا الى قصر الملك ليضحكوا عليه الملك (وكان جحا نديما للملك) ، فأخذ كل منهم بيضة فلما صاروا امام الملك ، قالوا : تعالوا نبض ، ومن لم يبض فعليه اجرة الحمام ، فصار كل واحد منهم يصيح مثل الدجاجة ويخرج من تحته بيضة ، حتى جاء الدور على جحا ، فصاح ودار حولهم مثل الديك ، فقال له الملك : ما هذا يا جحا ؟ فأجابه : افلا يكون لجماعة الدجاج ديك واحد !

* نزل جحا ضيفا عند جماعة ببلدة قريبة من بلدته . فسرق اللصوص خرجه ، فلما بحث عنه لم يجده ، فصاح فيهم مهددا موعدا ، ابحثوا عن خرجي والا عرفت ماذا اصنع ؟ فبحث أهل البلدة عن خرجه ، وأخيرا وجدوه عند جماعة من اللصوص فأحضروه ثم سأله أحدهم : اذا لم نجد خرجك فماذا كنت تصنع ؟ فقال جحا : عندي بساط قديم ، اعمل منه خرجا !

* اهدى فلاح لجحا ارنبا صغيرا ، فأكرمه جحا وانصرف الفلاح شاكرا له اكرامه ، وفي اليوم التالي جاءه قرويان وانتظرا ضيافته ، فسألهما : من انتما ؟ فقالا اننا جاران لصاحب الارنب ، فأكرمهما وخرجا شاكرين ، وفي ثالث يوم جاءه جماعة من القرويين فسألهم عن شأنهم فقالوا : نحن جيران جيران صاحب الارنب ، فدخل الى بيته واخرج لهم ماء ساخنا وقدمه لهم ، فقالوا له : ما هذا ؟ فقال جحا : هذا مرق مرق الارنب يا جيران جيران صاحب الارنب !

* سأله احد جيرانه يوما : اعندك خل قديم له اربعون سنة ؟ فقال جحا : اجل عندي ، فقال الجار : ارجوك ان تعطني منه قليلا : فقال جحا : لا استطيع فقال الجار : ولماذا قال جحا : لو اجبتك الى طلبك واجبت غيرك وغيرك ، فهل يبقى خل قديم له اربعون سنة .. ؟

* * *

ويقودنا التحامق الجحوي ايضا الى موقف جحوي اخر يشكل جانبا كبيرا من نوادره « ذلك هو **الموقف او الفعل الساخر** بما ينطوي عليه من قول لاذع واذا كنا قد وقفنا في موضع اخر عند السخرية ووظائفها وبواعثها عند النموذج الجحوي ... فاننا نخص هذا الجزء لمادة اخرى من نوادر جحا (على هيئة اسئلة واجوبة) يجمعها **القول اللاذع والسلوك الساخر** ، جزاء وفاقا لبعض الفضوليين ، ذلك ان في بعض الناس مقدارا من الفضول لا يحتمل ، واسمج ما يكون هذا الفضول اذا كان فيما لا يغني ولا يفيد ، ولقد كان النموذج الجحوي هدفا لكثير من فضول العابثين والهازلين واهل الغباوة في كل عصر وفي كل بيئة ، فكانوا يقصدونه بالسؤال عن اشياء لا هي من العلم ولا هي من الجهل وكانهم بهذا انما يضعونه في موضع الاختبار ، فكان يجيبهم اجابة الساخر الذي يحرص على كشف نفسية السائل قبل الحرص على طلب الجواب الصحيح » .

ومثال ذلــك : ـ

* سأل احد المتحذلقين جحا : ايهما افضل يا جحا ، المشي خلف الجنازة أم امامها .. ؟ فقال جحا : لا تكن على النعش وامش حيث شئت !

* كان يسير على شاطىء البحيرة ، فسأله شيخ متعبد : اذا اردت الاستحمام فالى اي جهة اوجه نظري يا جحا ؟ وهل استقبل القبلة أو استدبرها . فقال جحا : وجه نظرك الى حيث خلعت ملابسك والا سرقها اللصوص !

* كان يتناول طعامه في شهية فاعترضه احدهم قائلا : لماذا تأكل بأصابعك الخمس هكذا فقــال جحا لانــه ليست لي ست اصابع يا هذا !

* سأله رجل معروف بالبخل الشديد : هل تحب المال يا جحا ؟ فقال جحا : نعم ، حتى استغني عن سؤال البخلاء !

* سئل ذات مرة : هل لك ان تفيدنا يا جحــا عــن طول الدنيا ؟ وكم يبلغ بالذراع ... ؟ وكان يمر في تلك اللحظة نعش امامه ، فأشار اليه جحا وقال : اسالوا هذا الميت ، فهو الذي ذرع الدنيا بالطول وبالعرض وتركها للآخرة !

* شكا اليه أحد الناس : ان داره لا تدخلها الشمس : فسأله جحا : وهل تدخل الشمس الى مزرعتك فقال نعم ، قال جحا : اذن فانقل دارك الى المزرعة .

* قابله أحد الثقلاء وسأله في سماجة ورقاعة : ماذا تتمنى الى الله يا جحا فقال : امنيتي الوحيدة الا ارى وجوه الثقلاء .

* كان يعظ في مسجد فسأله بعض الـناس : اذا اصبح الصباح رأينا الناس يخرجون من بيوتهم ، فهذا يذهب الى جهة وذاك الى جهة اخرى ، فلماذا لا يذهب الناس الى اتجاه واحد ؟

فاجابهم : تلك حكمة الله ، فلو ذهب الناس جميعا في اتجاه واحد لاختل توازن الارض وسقطت !

* قيل لجحا : متى تقوم القيامة ؟ قال : حينما اموت انـا !!!!

* لقي جحا رجلا كان صديقا لابيه ، فقال له الرجل : يا بني ، كان أبوك عظيم اللحية ، فما بالك اجرد ؟ فقال جحا : أنا خرجت لامي !

* نظر اليه رجل وهو يأكل تمرا ويبلع نواه ، فقال له : لم لا ترمي نواه ؟ قال : هكذا وزن علي !

* قيل لجحا هل يمكن ان يولد مولود لرجل عمره أكثر من مائة سنة اذا تزوج بشابة . . . ؟ فقال جحا : نعم اذا كان له جار في سن العشرين أو الثلاثين (١) !

* ذهب جحا يستحم في النهر ، فنزل وترك ملابسه على الشاطىء ، فسرقها اللصوص فعاد الى منزله عريانا وبعد أيام ذهب الى النهر ونزل يستحم بملابسه ، فرآه أصحابه فقالوا له : ما هذا يا جحا ؟ فقال : لان تبتل علي ثيابي خير من أن تكون جافة على غيري !

* سأله رجل : الى متى يلد الناس ويموتون ؟ فقال جحـا : الى أن تمتلىء جهنم !

* سئل جحا مرة عن رجل يقول لا اله الا الله فقط ، ولا يقول محمد رسول الله هل هو مسلم يدفن في مقابر المسلمين . . ؟ أو كافر يدفن في مقابر الكفار . فأجاب جحا : الرجل مذنب ، فأدفنوه بين قبور المسلمين وقبور الكفار !

---

(١) من النوادر العالمية .

وهذا لون اخر من الوان السخر الجحوي ، مبعث الضحك فيه أن المتكلم الاول قصد التندر والاستهزاء بجحا ، فاذا جحا يبغته برد أشد تندرا وأكثر استهزاء وادعى للضحك ، وهو في رده حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، ما هو في مراعاة النظير ، واختيار الردالمجانس للكلام الذي سمعه ، وهذه المفاجاة البارعة في الرد المجانس مثيرة للضحك وهذه مجموعة من الامثلة تجمعها وحدة « الرد بالمثل أو مراعاة النظير في الرد » .

* استأجر رجل جحا (وكان حمالا) ليحمل له قفصا فيه قوارير على أن يعلمه ثلاث خصال ينتفع بها ، فحمل جحا القفص ، فلما بلغ ثلث الطريق قال : هات الخصلة الاولى . فقال : من قال لك أن الجوع خير من الشبع فلا تصدقه ، فقال جحا : نعم ، فلما بلغ ثلثي الطريق قال هات الثانية ، فقال له : من قال لك : ان المشي خير من الركوب فلا تصدقه ، فقال : نعم . فلما انتهى الى باب الدار ، قال هات الثالثة ، فقال الرجل : من قال لك أنك ستأخذ أجرا على حملك القوارير فلا تصدقه . فرمى جحا القفص على الارض وقال له : مـن قال لك ان في هـذا القفص قارورة صحيحة فلا تصدقه .

* رأى رجل جحا وهو يبذر حبا فاراد ان يسخر به فقال يا جحا : انك تزرع وتحصد ونحن نأكل ثمرة تعبك ، فقال لـه جحا : صدقت فاني أبذر حب برسيم .

* جاء جحا الى حاكم البلدة وقال : اني نظمت قصيدة في مدح مولانا ، فاذا اراد القيتها بين يديه قال : قل . وبعدمـا قالها جحا لم يستحسنها الحاكم فاهداه بردعة حمار فوضعها جحا على كتفه وخرج ، فقابلته زوجة الملك وسالته : ما هذا الذي تضعه على كتفك يا جحا ؟ قال يا مولاتي مدحت مولانا الحاكم بافخر اشعاري فاهداني افخر ملابسه .

* حضر جحا مائدة بعض الاغنياء ، فقدم له جديا مشويا فجعل جحا يسرع في الاكل منه ، فقال له صاحب الوليمة ــ وكان لئيما ــ اراك تأكل منه اكل انتقام وكأن امه نطحتك ، فقال جحا وأراك تشفق عليه وكأن امه ارضعتك .

* كان جحا ماشيا في احد الشوارع فراى دارا مرتفعة عظيمة فجعل يطيل النظر فيها ، فقال له البواب الواقف امامها : لماذا تنظر هكذا الى العمارة ؟ فقال جحا : اني افكر في هذا البناء العظيم ، ما هو ؟ فقال البواب مازحا ، وقد راى جحا في ثياب بالية : هذه طاحون ، فقال جحا : وهل حيوانات هذه الطاحون كبيرة بنسبتها .

* كان قاض وتاجر ماشيين معا في الطريق فرأيا جحا وأرادا ان يعبثا به ، فأوقفاه وقالا له : اخبرنا يا جحا : هل غلطت مرة في الوعظ ؟ فأجاب : غلطت مرتين : الاولى قلت في الوعظ : وقاض في النار بدلا من « وقاضيان في النار » والثانية قلت : « وان التجار لفي جحيم بدلا من وان الفجار » ، فخجلا (وقالا له : انت اما أن تكون حمارا ، واما أن تكون مزورا) ، فقال لهما : لا انا مزور ولا انا حمار بل بين الاثنين ــ يشير اليهما ــ فتركاه وذهبا .



الباب الثالث

الدِّراسَة الفَنيَّة للنوادر الجُحَويَّة

١

النَّادِرَةُ الجُحَوِيَّة

شكلها وأسلوبها وسماتها الفنية

١ ـ النوادر في الادب العربي : ـ

ليس من شك في أن كتب التراث العربي قد حفلت بالملح والفكاهات والنوادر المرحة كما حفلت بالاسباب والوظائف التي من أجلها كتب مؤلفوها مادتهم الفكاهية ، كما أن مقدمات كتبهم تشير الى بيان اهمية المزاح والفكاهة في الترويح عن النفس « فما زال العلماء والافاضل تعجبهم الملح ويهشون لها لانها تجم النفس ، وتريح القلب من كد الفكر (١) ، كما وضعوا ـ للفكاهة ـ أصولا وفصولا ، فقالوا : « ولاختيار المطايبات والمداعبات ، وما انخرط في سلكها من الملح والمزاح أصول لا يخرج فيها عنها ، وفصول لا يخرج بها فيها ، وقد يستندر الحار المنضج ، والبارد المثلج لان افراط البرد يعود به الى الضد » (٢) ، كما اهتموا وبينوا شروط المسامر والمنادر (٣) ، الى غير ذلك مما يتعلق بالملح والنوادر .. وليس هنا مقام الحديث عن النوادر العربية في الادب الرسمي فهذا حديث اخر ، وانما هو مخصوص بالنوادر المرحة فقط في الادب الشعبي وسماتها ووظائفها ، ولعله من المفيد أن نقف قليلا عند المعنى اللغوي لكلمة النادرة ، وما آلت اليه حتى اضحت مصطلحا أدبيا فاذا الشيء النادر هو القليل الوجود ، الشاذ عن غيره والظاهر بين غيره ونادرة الزمان وحيد العصر ، وندر الكلام ندارة فصح

---

(١) اخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوري ص ٤ .

(٢) ذيل زهر الاداب او جمع الجواهر في الملـح والنوادر للحصري المتوفي سنة ٤٥٣ هـ ص ٦ .

(٣) أنظر المصدر السابق ص ٧ .

وجاد ، ونوادر الكلام ما شذ وخرج من الجمهور (١) ؛ اي الخارج عن المعتاد ، وفلان يتنادر علينا اذا حدثنا بالنوادر ، ويبدو أن الذين اطلقوا النوادر على الفكاهات المروية عن جحا وأمثاله قصدوا انها انفصلت عن السلوك المعتاد ، ووجد الناس فيها بعد ذلك فكاهة ومزاحا فاقترنت النادرة في الاذهان بكل ما فيه من طرافة تبعث على الابتسام أو الضحك ، ولا جدال في أن الباعث على هذا العجب والاستطراف هو كل قول غريب أو سلوك يجرى على غير المتبع عند عامة الناس (٢) .

ولقد عرفت العصور جميعا ، وسائر المجتمعات البشرية انواعا من الناس يهيئون مادة للدعابة والهزء معا ، ويشتهرون بكل طريف نادر من هذا القبيل ، فيعجب بهم الناس ، ويتتبعون اخبارهم ويتوقون الى سماع ما قيل عنهم كما ينسبون اليهم ـ بعد ذلك ـ كل ما يسمعون من طرف وملح ونوادر ، هي بدورها سريعة الانتشار والحفظ لما فيها من مفارقات تثير الانتباه والضحك معا ، ثم تنفصل عن منشئها الاول ، وتطوف في الآفاق مرددة على الالسنة الى أن تجد من ينسبها ـ مرة أخرى ـ الى واحد ممن اشتهر بينهم بالملح والنوادر ، ربما لان اسمه كان اخف الاسماء على الشفاه ، وربما لاسباب أخرى ترتبط بالواقع التاريخي لتلك الشخصية التي وقع انتخابهم عليها ، رمزا لهذا اللون من الفكاهات ... الخ .

ولا شك في ان النادرة كانت ـ ولا تزال ـ اداة للتسلية والتسرية عن الناس سواء زحمتهم هموم الحياة وكربات العيش ، أو ضيقت عليهم حدود الاحكام وسدود القوانين ، وقد تجرى

---

(١) الفيروز اباري ـ القاموس المحيط ـ ط ٢ سنة ١٩٥٢ ج (٢) ص (١٤٥) ـ القاهرة ـ مكتبة الحلبي ـ مادة ندر ـ وكذلك المادة نفسها في لسان العرب لابن منظور .

(٢) عبد الستار فراج ـ اخبار جحا ـ ص ٦٢ .

النوادر وتصنع ، وتطلب ، حبا لها من غير ضيق بشيء ، بل رغبة في الجانب المشرق الباسم في مسرح الحياة ، باعتبارها رواية هزلية كبيرة كما يقولون . ولقد اعتاد العلماء المحدثون تصنيف النوادر الجادة بين الانماط الاجتماعية والانماط التي تدور حول العلاقات الانسانية وقسموها على أساس السلوك العاقل والسلوك المتهور والثواب والعقاب ، وانتهوا الى ان **النوادر المرحة** انما تنشأ من المفارقات والاخطاء والحماقات والاكاذيب والمبالغات والحيل وأسباب الخداع والعبث والمزاح والتصرفات الذكيــة والاقوال الدالة على سرعة الخاطر والاجوبة المسكتة أو اللاذعة . كما انتهى رأيهم كذلك على أن بعض النوادر الشعبية تتخذ أحيانا زي الحكاية ذات المغزى أو جوامع الكلم أو اللغز أو التورية وما الى هذا من المغالطات المنطقية أو الحيل البيانية .

ويغلب على كل عصر ـ اتجاهات معينة كما تشيع في كل بيئة ما يناسبها من الحكايات المرحة ، وأفاد الادب العربي من ظهور نزعات تتجاوز ما ينبغي للشخصية الانسانية السوية من توازن فظهرت على مدى الاجيال مجموعات كبيرة من النوادر ، تتردد بين المتعلمين وغير المتعلمين ، وأصبحت المنادمة حرفة تحتاج اليها الطبقات الحاكمة حاجة الطبقة المحكومة ، وكان النديم يتجاوز حفظ النادرة التي اشتهرت عن غيره الى القيام بحدث أو التلفظ بصيغة تثير الانتباه وتشيع الفكاهة . (مهرج الملك ـ نديم الخليفة ـ أو السلطان) .

وراجت نوادر الندماء كما شاعت نوادر الظرفــاء ودونت حكايات مرحة لا تعد ولا تحصى عن البخلاء والحمقى والمغفلين كما ترددت النكات الجارحة عن محتــرفي الدين وتأديب الصبيــان والمنحرفين في السلوك وتركزت بعض الصفات حول شخصيات مشهورة في التاريخ أو الادب أو الحياة . وهي تدور بطبيعة الحال حول الصفات المرفوضة أو المكروهة ، ويرى الدكتور عبد الحميد يونس فيما نسب الى تلك الشخصيات من نوادر دليلا على حكمة

عملية شعبية للشعب العربي « فنوادر الحمقى تؤكد فضيلة التعقل ، ونوادر البخلاء تستدعي فضيلة الكرم ، أما الخروج عن المألوف ، والاستجابة الشرطية للاحداث ، بتصرفات لا تصدر عن التعقل أو تخرج على حدود المألوف والمنطق ، فان اكثرها يدل على حكمة شعبية ، تؤثر التخلص من التوتر بما يشبه الرسم الكاريكاتوري » . (١)

والحق ان كتب النوادر العربية ، بالمعنى العام – وما اكثرها (٢) تؤكد بوضوح أن الشعب العربي قد أتقن فن الكاريكاتور مما أدرج الكثير منها عن جدارة في نطاق النقد السياسي والاجتماعي وبخاصة نقد الانماط اللااجتماعية ، الى جانب ما تحدثه من تسلية وتسرية ... ، مما حقق لها الشيوع والخلود ، وقد رأينا في الباب السابق كيف حفلت النادرة الجحوية بالنقد السياسي والاجتماعي الى جانب تنديدها بهذه الانماط اللااجتماعية كالبخيل – الطفيلي – – المدعي ، الفضولي ، المرائي ، الثقيل ، المغرور ... الخ .

كما تؤكد هذه المصادر بما حفلت به من نوادر ان الابداع الفني العربي – الرسمي والشعبي – لم يقف في تصوير الشخصية الكاريكاتورية عند حد الوصف الشكلي الثابت بل تخطاه بقدرة

---

(١) انظر للدكتور عبد الحميد يونس مقالا بعنوان : « ملامح البطل في الادب الشعبي » مجلة الهلال – القاهرة – ديسمبر ١٩٧١ ص ٢٤ .

(٢) وقد اشرت الى بعضها مما له صلة بالمأثور الجحوي ، ومنها كذلك على سبيل المثال « أخبار أبي نواس لابي هفان عبد الله بن احمد المهزمي » ، تحقيق عبد الستار فرآج . وأخبار الظرفاء والمتماجنين ، والاذكياء لابن الجوزي . وأساس البلاغة للزمخشري . والاغاني للاصفهاني والامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي . والبخلاء والبيان والتبيين للجاحظ . والتطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم للخطيب البغدادي وجمهرة الامثال لابي هلال العسكري . وذيل زهر الاداب للحصري . والعقد الفريد لابن عبد ربه . والعمدة لابن رشيق القيرواني . وعيون الاخبار لابن قتيبة . رسالة التربيع والتدوير للجاحظ . زهر الاداب للحصري – محاضرات الادباء للراغب الاصفهاني . والمستطرف للابشيهي ، ونهاية الارب (السفر الرابع) للنويري . وكتاب وفيات الوفيات لابن شاكر الكتبي وغيرها كثير جدا مما افرد للنوادر فصولا وابوابا .

« فعرف كاريكاتور الشخصية متلبسة بالفعل المضحك ذاته ، فانشأ بذلك فن كاريكاتور الافعال ، مثلما انشأ فن « كاريكاتور الصور » واقترب بذلك بل لامس فن الفكاهة الدرامية الحديثة التي تجمع بين عنصرين هامين : الطبع المعوج والسلوك المعوج فهما قوام الحدث الدرامي المضحك » الذي تحفل به النوادر العربية ، ويزخر الادب العربي بنماذج كثيرة منها على سبيل المثال : اشعب بن جبير (١) أمير الطفيليين (١٥٤ هـ) ومزبد المديني الذي كان الى جانب فكاهاته ومجونه يرمى بالبخل الشديد (٢) وابن الجصاص (الحسن بن عبد الله بن الحسين الجوهري) وكان من أعيان التجار ذوى الثروة الواسعة توفى سنة ٣٢١ هـ ، وتروى عنه نوادر كثيرة تدل على البله والغفلة ، ويقول عنه ابن شاكر الكتبي في كتابه (فوات الوفيات) انه كان يتظاهر بذلك ، ليرى الوزراء منه هذا التغفل فيأمنوه على انفسهم اذا خلا بالخلفاء ، وفي هذا جانب من الصحة اذا علمنا انه كان في عهد دسائس ومؤامرات .

ومنهم كذلك كانت نوادر جحا في الحمق ، ونوادر ابي نواس في المجون ، وكذلك كانت نوادر أبي دلامة والجماز وابي الحارث جميز وأبي الشبل ، ومحمد بن مكرم ، وابي العبر وبهلول وكذلك فكاهات الشعبي وأبي العيناء وأبي العنبس والغاضري والحمدوني ومن اليهم من أعلام الدعابة في التراث العربي ، وكذلك ممن عرفوا بالبخل مثل « مادر » وابي الاسود الدؤلي ، وسهل بن هارون وغيرهم من المحمقين والمغفلين والطفيلين من مثل ثمامة بن أشرس ، وهبنقة ، وكميش وبنان الموسوس ، وابي حية النميري ، والحموي ، وأبي الاعز وعروة بن مرشد ، وفند ، وطفيل بن دراج وباقل ، وابن الحجاج ، والاحنف العكبري ، ابن الشمقمق وابي فرعون وابي دلف الخزرجي ، واضرابهم كثير تحفل بهم كتب التراث ، وروى الرواة ـ كالاصمعي والجاحظ وغيرهم ـ نوادرهم .

---

(١) انظر ترجمته في الاغاني وتاريخ بغداد .

(٢) انظر ترجمته في الوفيات ، ونثر الدرر .

والظريف ان يستأثر جحا بنوادر هؤلاء جميعا حتى اختلطت فكاهاته ونوادره بنوادرهم فانطبق عليه قول القائل : ـ

« فتجمعت أشتاتهم في واحد الا يكنهم أمة فيكاد »

كما اضيفت نوادر المعلمين والولاة والقضاة والمحدثين والاعراب والمجانين والشحاذين والمخنثين والمتنبئين وغيرهم ممن تناثرت نوادرهم واخبارهم في الكتب أو عقدت لهم فصول خاصة .. والحق ان الادب العربي لا يزال يزخر بكنوز من هذه الشخصيات الفكاهية الحية ، وما ينسب اليها من نوادر وملح وطرائف ، ثرة المضمون بدلالاتها الاجتماعية والسياسية والانسانية .

٢ ـ النوادر المرحة في الابداع الشعبي :

النوادر هي حكايات شعبية مرحة كما يذكر الدكتور عبد الحميد يونس ويعرفها بانها ضرب من الحكايات الممعنة في القصر ، ويدور غالبا حول الحياة اليومية ، واذا كانت الشخصيات البارزة في هذه الحكايات تتسم ببطء الاستجابة الشرطية لوقع الحياة وتتخذ هيئة الحيوان وسلوكه حينا فهي انسانية الشخوص والاحداث في معظم الاحيان ، وتغلب على هذه الحكايات المفارقات التي يستحدثها الغباء او البلادة أو الخدعة ، وقد يكون موضوعها ماجنا ، وهي خالية من التعقيد ، ولها محور رئيسي واحد ، وقلما تتجه الى الخارق ، وهي تنزع الى التجمع حول شخصية واحدة أو مجموعة محددة من الناس ، وتعرف في الحياة العربية بالنوادر ، نوادر الظرفاء ، السكارى ، البخلاء ، المغفلين .. الخ كما تعرف النوادر ايضا في الحياة الشعبية ـ وبخاصة اذا كانت مفرقة ، وثمرة مواقف معينة ، او ظروف معينة ـ بالنكتة (اي الشيء الصغير جدا) ، وامثال هذه الحكايات سريعة الانتشار والحفظ ، لما فيها من مفارقة تثير الانتباه والضحك معا (١) . ومن

---

(١) الدكتور عبد الحميد يونس ـ الحكاية الشعبية ٧٤ ـ ٧٥ .

هذا النوع من النوادر ، نوادر جحا ، وحكاياته ونكته ، وهي معروفة بين عامة الناس بهذه الاسماء جميعا ، وكذلك نوادر أبي نواس ونظائرها .. وتضاف صفة « المضحكة » الى هذه المسميات جميعا .. وكثير من عامة الناس لا يفرقون بين جحا وأبي نواس عند سرد هذه النوادر والحكايات والنكات .. بل ان بعض الرواة الشفاهيين كانوا يحكون النادرة الواحدة مرة منسوبة الى جحا ، ومرة اخرى منسوبة الى ابي نواس ، وحاولت ان الفت انظارهم الى هذه الملاحظة فلم يأبهوا بها ، بل كان بعضهم يراهما « شخصا » واحدا صاحب نوادر وحكايات مضحكة .. عاش زمن الخليفة هارون الرشيد ... وهذه الاقوال على فطرتها وتلقائيتها لها ظلال موضوعية وفنية في مأثورنا الشعبي ... يقول الدكتور عبدالحميد يونس « ولقد اقترنت هاتان الشخصيتان ـ جحا وابو النواس ـ في وجدان الشعب حتى خلط بينهما لوجود عنصر مشترك في اتجاهها ، وهو محاولة التغلب على التقاليد المقيدة لارادة الانسان والمعوقة لتحول الحياة الاجتماعية » . (١)

فاذا ما وضعنا في اعتبارنا ان النوادر او الحكايات الشعبية المرحة تنزع الى التجمع حول شخصية أو نموذج معبر عن معنى من المعاني الشائعة في المجتمع ـ وتكون الشخصية في هذه الحالة لها نصيب من الواقع التاريخي في الاغلب وتشتهر عادة بين الناس بصفة من الصفات ـ فلا غرو أن يستغل الناس هذه الشهرة ويجعلون من الشخصية التي تتمثل فيها نمطا او **رمزا** محوريا ينسجون حوله ما شاءوا من الحكايات والمفارقات التي تعبر عن روح المجتمع وحقيقة رغباته وميوله المكبوتة . وفي الحكايات الشعبية عند جميع الشعوب ، شخصيات معروفة ومشهورة من هذا القبيل ، وفي الحكايات العربية المرحة عدد من هذه الشخصيات نالت شهرة واسعة على تعاقب الزمن حتى صار كل منها عنوانا

---

(١) الدكتور عبد الحميد يونس من مقال له بعنوان : « جحا شخصية عالمية » مجلة الفنون الشعبية ـ العدد ١١ ـ ديسمبر ١٩٦٩ م ص ٤ .

على عدد ضخم من الحكايات التي تحمل طابع هذه الشخصية « النمطية » ويبرز المعنى الذي يتمثل فيها ، فشخصية « قراقوش » جعلها الوجدان الشعبي علما لعدد كبير من الحكايات التي تعبر عن الكبت السياسي في المجتمع الذي يعيش تحت وطأة حكم جائر غاشم ـ لا يستند الى عقل أو عدل ، وشخصية « جحا » علم لعدد لا يحصى من الحكايات والمفارقات التي تبرز معاني الغفلة أو الحكمة أو العبرة في الامور الشائعة بين الناس وبعبارة اخرى تعبير عن الكبت الاجتماعي الذي تفرضه التقاليد والعادات الجامدة ، فضلا عن تعبيرها عن الكبت السياسي ، وكذلك شخصية « النواسي » الشاعر الاباحي الماجن اضحت في المجتمع الشعبي علما على مئات من الحكايات والنوادر المكشوفة ، والتي يغلب عليها طابع الاندفاع نحو المجون والخلاعة والسكر والجنس والعبث كنزعة من نزعات التمرد على الواقع والهرب منه بالاستعلاء عليه . وعلى هذا تبقى هذه الشخصيات ـ أو الانماط ـ موصولة الحياة وكلما امتد بها الزمن على هذا النحو كلما زادت شهرتها بزيادة المرويات عنها أو على لسانها من الحكايات والمفارقات .

ولما كانت النادرة الجحوية ـ في التراث العربي ـ تشمل او تجمع بين الحكاية المرحة بالمفهوم الفولكلوري الحديث والنكتة ، فانها تشترك معهما في الوظيفة التي لا تقتصر على « رصد طموح الشعب وآماله ورغباته في تغيير قيمه الاجتماعية والسلوكية والاخلاقية المرفوضة ، مثلما هي رصد لطموحاته السياسية والاستعلاء فوق دواعي القهر الاجتماعي او الكبت السياسي ... في فترات بعينها ، تزدهر أو تخبو خلالها ، وربما تعدلت وظائفها كذلك ... ولهذا يرى الكثير من الباحثين أن مثل هذا النوع من النوادر والحكايات المرحة ـ وهي فرع من فروع الحكايات الشعبية بعامة ـ يطلعنا في وضوح على موقف الشعب من أحواله السياسية والاجتماعية معا ، ذلك أن الشعب حينما أبدع حكاياته لم يبدعها للتسلية والترفيه فحسب ، أو لاداء وظيفة مبهجة في حياته اليومية

فقط ، بل أبدعها لينقل من خلالها ما يريد ان يقوله مباشرة او بطريق غير مباشرة ، وليصور فيها أخيلته ، وليقدم من خلال سرد احداثها وقائع الحياة والشخصيات كما يتخيلها ، أو كما هي بالفعل ، او كما ينبغي أن تكون » (١) . فالغرض منها تزجية الفراغ بالثرثرة من ناحية أو التندر أو النقد الفاضح من ناحية أخرى ، وهي بذلك تهدف الى التهذيب والتثقيف مثلما تهدف الى التسلية والترفيه . ولهذا كان من اللافت للنظر أن نرى المتذوقين للنوادر الشعبية والفصيحة يعتقدون بوقوعها أو بامكان حدوثها على أقل تقدير « بيد أن هذا الصدق أو الامكان لا يكسبها الصفة التاريخية ، وان جعلها في الوقت نفسه ذات مغزى » (٢) .

٣ ـ الاسلوب الجحوي في التعبير : ـ

في ضوء المفهوم السابق للنوادر المرحة . تشكلت رؤيتنا للمأثور الجحوي . . . من الناحية الفنية ،ذلك ان النمط الجحوي توسل بالحكاية المرحة في التعبير عن فلسفته . والنوادر الجحوية بهذا « المصطلح » تشمل او تجمع في أعطافها كل ضروب التعبير الشعبي الفكاهي بدءا بالنادرة ذاتها او الحكاية الشعبية المرحة ، فالنكتة ، فالسخرية ، فاللمز ، فالقفشة ، فالمفارقات فالكاريكاتير، فالالغاز فالامثال الشعبية المرحة . . . وليس من شك في ان هناك فروقا دقيقة بين كل نوع منها ـ وان كان مصدرها جميعا الشعب ـ لكنها جميعا مستوفية لعنصر المفاجأة الذي يؤدي الى الضحك ، كما أنها تشترك في الباعث الذي يدعو الى خلقها والمجال النفسي الذي تهدف اليه وتدور فيه من حيث انها لا تلغى الواقع الذي يعيشه الناس ، وانما تنكره أو تتجاهله وتسخر منه ؛ فعالمها جميعا واحد هو عالم المرح والسخرية وذلك في مقابل عالم الجد والعبوس ، وتجعل الانسان يقف خارج مأساته

---

(١) صفوت كمال ـ مدخل لدراسة علم الفولكلور ـ الكويت سنة ١٩٦٧ ص ١٣٧ .

(٢) الدكتور عبد الحميد يونس ـ الحكاية الشعبية ص ٧٦ .

بالاستعلاء عليها والتندر بها ، والسخرية منها ؛ ولعل النموذج الجحوي ـ باختياره هذا الاسلوب في التعبير والمواجهة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ هو الذي يسلكه مسلك الحكماء كما يقول استاذنا الدكتور عبد الحميد يونس : « فقد اكتشفت بعبقريته ـ أو بعبقرية الشعب العربي ـ أن المأساة يمكن أن تتحول الى ملهاة ، فان موقف الانسان من أعباء الحياة ليس هو الذي يحده الفرق بين البكاء والضحك ، ولكن الزاوية النفسية هي التي تحدد هذا الفرق ، فاندماج الانسان في الموقف يضنيه وخروجه منه ، وفرجته عليه يسري عنه ، وقد يضحكه ، وهكذا استطاع جحا ان يكابد الحياة ، ويضطرب فيها ، وان يخلق من نفسه شخصا اخر بعيدا عن الاول ، يتفرج عليه ويسخر منه . وهكذا تحولت المآسي عنده الى طرائف وملح تخفف عنه ، وتسرى من افراد الشعب العربي كله تأسيا به » (١) . ومن ثم كان الاسلوب الجحوي في التعبير ـ متوسلا بالنادرة ـ انما يهدف الى تأكيد وجود الانسان العربي وتحقيق ذاته العامة في هذا الوجود المليء بالعناصر المهددة لحياته .

وفي ضوء ما سبق يمكننا تعريف الحكايات أو النوادر الجحوية التي توسل بها النمط الجحوي أسلوبا له في التعبير عن فلسفته بأنها : ، « **اقصوصة مرحة » تتسم بالايجاز بل هي ممعنة في القصر ، تتوسل بالنثر ، يدور موضوعها حول الحياة اليومية وتياراتها العامة وتجاربها الانسانية ، كما تعكس في الوقت نفسه راي الجماعة في الهيئة الاجتماعية والهيئة السياسية ، وهي**

---

(١) دكتور عبد الحميد يونس « جحا شخصية عالمية » مقال بمجلة الفنون الشعبية ، ديسمبر ١٩٦٩ م ـ العدد ١١ ـ القاهرة ص (٥) .

انسانية الشخوص والاحداث ، قلما يظهر فيها العنصر الخارق (١)، **نمطية الابطال والشخوص خالية من التعقيد ، ولها محور رئيسي واحد ، تعمد الى الاخلال المقصود بين التوازن او التناسب الواجب للموقف او للصورة ، او للشخصية ، وتعتمد على المفارقات التي يستحدثها الغباء او البلادة او الخدعة او القول اللاذع او جوامع الكلم او اللغز او التورية وما الى هذا من المغالطات المنطقية او الحيل البيانية فتنتهي الى موقف مرح .**

وفي ضوء هذا التعريف يمكن ابراز بعض الخصائص التالية :

١ ــ **خصائص موضوعية** : ــ حيث عبرت النادرة الجحوية عن راي الجماعة التي انشأتها او رددتها في الحياة والاحياء كما عملت على ترسيب حكمتها العملية من ناحية والترويح عنها من وطاة الاحداث والوقائع العامة (الاجتماعية والسياسية) من ناحية أخرى ... كما رأينا عند حديثنا عن فلسفة النموذج الجحوي . لكن مما تجدر الاشارة اليه ، من حيث الموضوع كذلك ــ أن عددا كبيرا من النوادر التي نسبت الى جحا جاء ممعنا في الفحش والمجون ، وتردد باللفظ الصريح المكشوف الذي يخدش الحياء العام ... ولا يمكن ترديده الا في مجالس معينة . ولعل اغلبنا استمع الى هذا النوع من الحكايات والنكت الفاحشة ، ويعلم جيدا أن هذا النوع لا يمكن تدوينه أو تسجيله ، وانما يظل محلقا في الافاق ، يتردد على الشفاة كلما وجد الفرصة سانحة وان لم يتحرج القدماء ــ وهم علماء أفاضل ــ من تدوينه ، ربما

---

(١) وجدت نادرة واحدة من هذا القبيل ، وهي نادرة : البغل في الابريق » التي نسبت الى جحا المصري ، حين تمثل الشيطان لجحا ... وستأتي النادرة كاملة بعد ذلك ، وكانت وظيفة الشيطان اي العنصر الخارق في هذه النادرة هي خلق قاعدة يقوم عليها الموقف المرح لا خلق الموقف نفسه وحتى الحمار الجحوي ــ وهو العنصر الحيواني المشهور في النوادر الجحوية لم يلعب دورا رئيسيا في خلق الموقف المرح بل ساعد فقط على خلق قاعدة يمكن ان يقوم عليها الموقف الفكاهي ، وبذلك تخرج نوادر جحا مع حماره من نطاق حكاية الحيوان بسماتها وخصائصها ووظائفها المميزة .

للامانة العلمية وربما لاسباب حضارية ارتبطت بعصورهم ، مع ما في ذلك من دلالات لا تخفى ، مثلما فعل الآبي ، صاحب نثر الدرر ، ومثلما جاء في مخطوط مضحك العبوس ... وغيرهم .. الامر الذي عجز عن فعله المحدثون ، وكلهم اعترف بحذفه هذا النوع من النوادر ، عند التدوين ... وعلى كل حال ، فنوادر الرمز الجحوي تنقسم قسمين ، أحدهما هو النوادر الماجنة ، ولا مكان لها في هذا الكتاب ، أما الاخر ، فهو النوادر التي لا تخدش الحياء العام ، تلميحا أو تصريحا ، وهي التي آثرت تدوينها والاستشهاد بها في هذا الكتاب . وثمة ملاحظة اخرى من الناحية الموضوعية كذلك ، تتعلق بالوازع الاخلاقي ، الذي نراه واضحا في النادرة الجحوية ، فحينما يكون « الخصم الجحوي » نمطا عابثا شريرا صفيقا . فانها ـ أي النادرة الجحوية ـ لا تكتفي بالهزء منه والسخرية عليه ، بل ينبغي حينئذ أن ينال عقابا صارما ، حتى لو كان النمط الجحوي نفسه (جحا الزوج المخدوع ـ جحا الطماع ـ جحا البخيل ... الخ) وتفسير هذا ـ ميسور ، حين نعلم ـ أن الحكايات والنوادر المنسوبة اليه كانت أخلاقية على نحو من الانحاء .

ب ـ **خصائص نفسية** : ـ وهو الدور الذي يلعبه الموقف المرح عموما عندما يخلق جحا من نفسه ـ من خلال نوادره ـ شخصا اخر بعيدا عن الاول يتفرج عليه ويسخر منه ، فتحولت المآسي عنده الى طرائف وملح تخفف عنه وتسرى عن افراد الشعب كله تأسيا به . ولما كانت النادرة الجحوية تسعى الى أن تثير في نفوس قرائها او مستمعيها روح المرح فان مقياس نجاحها او فشلها مرهون بما تحققه من اشاعة المرح ، وليس معنى هذا ان عنصر الجدية قد أسقط على اطلاقه .

جـ ـ **خصائص فنية** : ـ وهي خصائص تتعلق بالبناء الفني والتشخيص في النادرة الجحوية : ـ

١ ـ لما كانت النادرة الجحوية ممعنة في الايجاز او القصر ، فقد قل ـ تبعا لذلك ـ عدد الاحداث والجزئيات أو العناصر أو الموتيفات الاولية التي تؤلفها حتى ليغلب عليها بالفعل انها تتألف او تتكون من جزئية واحدة أو عنصر واحد ، كما أن الحدث قد ينعدم انعداما تاما في بعض النوادر ، ومثال ذلك تلك النوادر التي تندرج تحت عنوان « أقوال جحوية لاذعة » حيث ينشأ المرح من الادلاء بالاجابة اللاذعة ذاتهـا .

وعلى الرغم من امعان النادرة في الايجاز الذي قد يصل الى سطر واحد فان هناك بعض النوادر القليلة قد تطول الى بضع صفحات ، وغني عن القول أن مثل هذه النوادر الطويلة تتكون من اكثر من عنصر اولي أو عدد من الجزئيات الاولية .

٢ ـ ويلاحظ أيضا على النادرة الجحوية أن المقولة الواحدة تتكرر في أكثر من نادرة ولكن بأحداث ووقائع او جزئيات وعناصر مختلفة ، ولكنها متماثلة في المقولة التي تهدف الى ترسيبها ، فمثلا مقولة : « رضاء الناس من المحال » التي رايناها في النادرة « جحا وابنه وحماره » تتكرر في نادرة أخرى ـ قياسا عليها ـ حينما يحاول جحا ان يبني دارا جديدة ، فيأخذ رأي الناس فيشير كل منهم برأي ، ويسعى جحا الى ان يطبق في بناء داره كل اقتراحات الناس عساها تعجبهم فيتحول البناء الى أي شيء الا أن يكون دارا ، ولا تعجب ـ بالطبع ـ احدا ممن اشاروا عليه ، فيعيد بناءها من جديد في ضوء ما يراه هو أنه الاصوب وكذلك المعتقد المعروف « التوكل على الله بعد توافر الاسباب » التي شاهدناها في نادرة بعنوان « ان شاء الله » حينما ذهب يشتري حمارا من السوق فاعترضه أحد الثقلاء وساله الى أين ، فقال جحا : الى السوق لاشتري حمارا فطلب اليه الرجل أن يقول : ان شاء الله ... حتى سرقت نقوده الى اخر النادرة نراها تتكرر في موقف مماثل مع زوجته حينما يعلمها أنه خارج من الغد للاحتطاب ، فتطلبت اليه أن يقول ان شاء الله ، فيصدف أن يلتقي بمجموعة من الفرسان ،

وتتأزم الامور بينه وبينهم فيأسرونه حتى يعـود اخر الليل الى بيته مريضا مجروحا مجهدا ويدق باب بيته فتسأل امرأته : من بالباب فيقول جحا انا يا عزيزتي ، افتحي الباب ان شاء الله . . .

ومثال ذلك أيضا : نادرة الشواء ورنين النقود ، فقد تكررت مقولتها خمس مرات في خمس نوادر ، لكل نادرة أحداثها الخاصة . . وان اتفق المضمون او المغزى بينها جميعا .. ويبقى هذا التكرار للمقولة الواحدة ظاهرة تلفت النظر ، ويبدو أن ذلـك بسبب الروايات المختلفة للنادرة الواحدة في أماكن مختلفة . ثم ان هناك نوعا اخر من التكرار ــ في النسخة الواحدة ــ سببه في رأينا ــ هو جامعو النوادر أو ناشروها انفسهم وهو تكرار المقولة الواحدة ــ بالقياس في أكثر من نادرة مع خلاف طفيف في العرض ويبرز هذا بوضوح في نوادر الحمق والتحامق . وربما كان هم الجامع أو الناشر هو جمع اكبر عدد من النوادر ، فهو تكرار في الشكل (١) ، مثلما هو تكرار في الموضوع نفسه .

٣ ــ وبرغم ان النادرة الجحوية تتوسل أساسا بالنثر فقد عثرت على مجموعة قليلة تتوسل بالنظم منسوبة الى جحا الاتراك ومترجمة الى العربية ومجموعة أخرى منسوبة الى جحا مصر وجدتها في الطبعات الشعبية لنوادر جحا ، وهي مجهولة الناظم ، ويلاحظ أن النظم هنا أقرب الى الزجل الذي يتعامل به الادباتية أو مؤدو المونولوج الاجتماعي الساخر (المونولوجست) .

٤ ــ وبرغم أن النمط الجحوي بعامة لا يمكن أن يكون هو قائل هذه النوادر جميعا الا أن هذا اللون من النوادر المرحة ــ متى انطبق عليه التعريف السابق ــ نراه دائما ينزع في النهـاية الى

---

(١) مثال ذلك : ان اللصوص تدهم بيته الخاوي ، فيختبيء جحا من اللصوص خجلا ، ووجه الخلاف بين النوادر انه مرة يختبيء تحت السلم ، ومرة يختبيء في احد الاركان ، ومرة في خزانة ملابسه ومرة أخرى وراء الباب وهكذا .

التجمع حول احدى الشخصيات النمطية المرحة التي يبتدعها أو ينتخبها الوجدان الشعبي ، مثل الشخصية الجحوية التي قدر لها أن تنمو وأن تتحول من واقع تاريخي الى رمز فني ، أطلقنا عليه النموذج الجحوي الذي نسبت اليه مثل هذه النوادر جميعا .

٥ ـ ويلاحظ أن أغلب الشخوص المساعدة في الحكاية الجحوية **شخوص نمطية** كذلك ووظيفتها أنها تساعد على خلق قاعدة الموقف المرح في النادرة ، كالزوجة والابن والحمار في النوادر المنسوبة الى جحا ، والجدير بالذكر أن هذه الشخوص جميعا بما فيها جحا شخوص عادية دارجة ، تواجه مشكلات عادية ملموسة في حياتنا اليومية ، كما تتعرض للنزوات المألوفة .

ولما كانت النادرة الجحوية بتكوينها القائم على العنصر الواحد او الجزئية الواحدة فقد حال ذلك دون أي « نمو » للشخصيات أو الانماط التي تزخر بها النوادر ، سواء أكانت من الشخوص الرئيسية أم من الشخوص الثانوية .

٦ ـ والنادرة الجحوية تتسم بالقدرة على التطور ، وتتصف بالمرونة اذ تتعدل أشكالها ومضامينها بما يطرأ على الحياة الاجتماعية من تطور ، بل أحيانا باختلاف الموقف نفسه الذي تلقى فيه النادرة ، والمغزى نفسه الذي تعنيه ، والمستوى الثقافي والفكري للراوي ، أو المستمع على السواء ، وقد ساعد على مرونتها وقدرتها على التطور ومسايرة الزمان والمكان انها ــ أي النادرة ــ من « النوع » أو **الجنس الادبي المحايد** الذي لا ينتمي الى زمن تاريخي محدد أو مكان جغرافي معلوم ، بل تنزع دائما في موضوعاتها نحو قضايا **ذات طابع انساني** عام ، وما أسماء الشخوص او الاماكن او الاحداث او غيرها مما يصادفنا في رواية النوادر الا اضافات أو تغييرات محلية من صنع الراوي في الاغلب . ومن هنا أيضا سهل انتقالها وشيوعها ، وقدر لها أن تتجاوز بيئاتها المحلية الى المجتمعات الاخرى .

٧ ـ ولما كانت النادرة الجحوية المرحة يغلب عليها « الطابع الواقعي » فمن اليسير أن تحدث الملائمة بين بعض العناصر الواقعية التفصيلية ، وبين الظروف المتجددة ، ولعل هذه الملاءمة أن تحدث على يد رواية فرد بغير تعمد (١) ، بل كان ذلك ميزة أخرى للنادرة الجحوية اذ هيأ لها القدرة على التكيف » أو « التأقلم بالزمان والمكان وطبيعة الموقف الذي تتردد فيه ، مثال ذلك النادرة المعروفة عند جحا الاتراك « الحمير ثمانية أو تسعة » لترى ان الاتراك قد « كيفوها او اقلموها » بما يناسبهم بينهم ، ويضفي عليها الصبغة المحلية : من عادة أهل الاناضول على الاكثر ان يتناوبوا الاشغال ، فمثلا لو اقتضى لجماعة منهم ان يطحنوا حبوبهم يذهب واحد منهم بطحنات رفاقه فبدلا من أن يذهب عشرة او خمسة عشر شخصا ، وينتظرون عدة أيام لتجيء نوبة طحنهم يسلمون احمال الحنطة مع الحيوانات الى من تكون نوبته ، فيأخذها ويطحنها ويعود ، ويذهب غيره في السفرة الثانية ، وهلم جرا ، لان الطاحون تبعد بضع ساعات عن القرية ، وجاءت نوبة جحا ، فاجتمعت حوله ثمانية حمير لاصحابه عليها ثمانية احمال حنطة ، وركب حماره ، وسار بها ، وخطر له في اثناء الطريق أن يعدها ، فعدها فكانت ثمانية فضاع صوابه خوفا على حماره لانه كان تاسعها . وصاح بالحمير كلها فوقفت ونزل جحا عن حماره ، ففتش وراء الشجرة وفي المنعطفات ورجع وعدها فوجدها تسعة فقال سبحان الله . وركب فعرضت له الشبهة أيضا ، فعدها فاذا بها ثمانية ، فحار في أمره وفكر طويلا ونزل فعدها فوجدها تسعة ، فكاد يجن ، وقد فكر في حكايات الجن والشياطين والاعيبهم ، فطاش فكره ، واخذ يتلو كثيرا من الدعوات ثم ركب حماره ، وعاد الشيطان فوسوس له أن يعدها فعدها ،واذا بها ثمانية ، فنزل واخذ يصرخ بكل

(١) مثال ذلك ما سمعته من تحوير للمثل الجحوي المعروف ـ (حمارتك العرجا يا جحا تغنيك عن سؤال اللئيم) ، في حديث عابر ، وكان موضوع الحديث عن السيارات القديمة والجديدة ، فقال احد الزملاء بطريقة عفوية « سيارتك العرجا يا جحا ...... » وهكذا .

قوته ويتلو الآيات ويستعيذ بالله . ومن شدة خوفه بدأ يسمع أصواتا غريبة فجعل يرتجف كالورقة في مهب الريح وحاول أن ينزل الاحمال فلم يستطع ، فانزوى تعبا . منتظرا أن يمر احد الناس فيأنس به ويطرد عنه وسواسه ، واذا برجل قد اقبل ورأى الشيخ على هذه الحالة ، ومن لا يعرف الشيخ واحواله ..؟ فسأله عما حدث فأخبره بقصته قائلا : كأنني لم يكفني حالي مع الناس حتى أن الغيلان والجن تريد أن تعبث بي . فقال له الرجل : لا تفتكر بذلك فما هو الا وهم طرأ عليك وهل رأيت شيئا ، فقال : كلا ، لم أسمع سوى أصوات مزعجة ، فأخذ يسليه . وبعد أن تناولا شيئا من الطعام اعتدل حال الشيخ وعاوده نشاطه فأخذ يقفز ويلعب ،وودع الرجل وركب حماره وساق الحمير أمامه ثم قال . في نفسه : لاعد الحمير الان مرة ثانية فوجدها ثمانية .. فنادى الرجل وقال بصوت يخنقه البكاء : انظر انها ما زالت ثمانية فما هذه الحال التي وقعت فيها .. ؟ ولكن الرجل لم يلبث أن قال له : هل عددت الحمار الذي انت راكبه ؟ فكل ما حصل لك هو انك لم تعد حمارك . فضرب جحا بيده على جبينه ضربة شديدة ونزل عن الحمار واخذ بيدي الرجل يقبلها ، وحار الرجل لاضطراب جحا فيما وقع له ، ولم يمكنه أن يمنع الشيخ من تقبيل يديه قائلا : الله يرضى عليك ، فقد أرشدتني واعدت الى حياتي وعقلي لاني كدت اجن مما جرى ، فكم من حادثة تلقي الانسان في مهد الحيرة ، وما كل المصائب البشرية الا من احتجاب الحقيقة عن العقلْ بحجاب الغفلة ومتى فتح سلطان الحقيقة ابوابها تتجلى ، ولو كشف الغطاء لتعانق الاعداء ، وذهب من بينهم العداوة والشحناء ، وكانوا في نعيم الحياة راتعين (١) .

وقد ذكرت هذه النادرة على سبيل المثال ـ وبصرف النظر عما تحفلُ به من مبالغة وتهويلْ وتكرار وسذاجة واطالة لا داعي لها ، فضلا عن سوء الترجمة من التركية الى العربية ـ فانها

(١) نوادر جحا الكبرى ـ ترجمة حكمت شريف رقم ٣٧٨ ـ ص ٢٤٥ .

تحفل بالعديد من الحقائق التي تتسم بها النادرة الجحوية المرحة التي تتميز بها ، ومنها : ـ ان نصف هذه النادرة ـ وهو عبارة عن تمهيد ـ قد تحدث عن أهـل الاناضول وعاداتهـم مما يوحي بأن النادرة تركية الاصل أو محلية ، مع انها مستقاة من رواية ابن الجوزي (١) لها (المتوفي سنة ٥٩٧ هـ أي قبل ظهور الرمز التركي) وكذلك رواية ابن حجة الحموي (٢) المتوفي سنة ٨٣٧ هـ (اي قبل شيوع نوادر الرمز التركي في البيئات العربية) مما يؤكد ما ذهبنا اليه من مرونة النادرة وقدرتها على التطور أو « التكيف » بوقائع وسمات البيئة التي تتردد في جنباتها .

ـ كما أن الطابع الواقعي للنادرة بما يستحدثه من ملاءمة بين العناصر الواقعية التفصيلية وبين الظروف المتجددة ـ يفسر لنا ما يطرأ غالبا على النادرة من تحوير أو تحريف ـ او حذف أو اضافة أو تأليف نوادر جديدة ـ بالقياس ـ ونسبتها الى الرمز الجحوي ، وقد أشرت الى امثلة كثيرة من هذا القبيل في ثنايا دراستنا للفلسفة الجحوية ، كما سجلنا كثيرا من مظاهر التغيير أو التحوير والحذف والاضافة والتطوير ، وما جد من نوادر .

كما يلاحظ على النادرة التركية السابقة ـ ومثلها كثير ـ انها تحفل بابراز الجانب « الوعظي » « للنادرة » على العكس من النادرة العربية التي تحفل بابراز الجانب الساخر ، فالرواية التركية تحاول تفسير المغزى الاخلاقي للنادرة ـ وهذا التفسير ربما يكون اضافة من عند راوي النادرة نفسه ـ وفي نبرة خطابية وعظيـة (مما يجعل عنصر الدعابة فاترا ، وقد يقضي عليه) . كما وجدنا في ختـام النادرة المذكورة حيث تغيرت نهايتها أو حرفت فبدلا من أن تكون

---

(١) اخبار الحمقى ص ١٢١ .

(٢) ثمرات الاوراق ص ١٧١ المطبوع على هامش الجزء الاول من كتاب المستطرف للابشيهي .

نهايتها الطبيعية هو الموقف الفكه نفسه تنتهي بخطبة منبرية فكم مـن حادثة تلقي الانسان في مهـد الحيرة ، ومـا كل المصائب البشرية الا من احتجاب الحقيقة عن العقل بحجاب الغفلة ... الخ كما في بقية النادرة ...

ومثل هذه النادرة لا تتفق وما يؤثره المزاج العربي من دعابة وميل الى السخـر ، فاننا نرى ان المزاج القومي لم يردد هـذه النادرة ـ لا بتفاصيلها المكررة الساذجة ولا بخاتمتها الوعظية ، وانما آثر في ترديده وتمثله لهذه النادرة كما ترددت في البيئات العربية ـ مصدرا اخر هو رواية ابن الجوزى ، وابن حجة الحموي ومضحك العبوس المخطوط ص (١٦) وهي وان كانت غير منسوبة الى جحا في هذه المصادر الثلاثـة فان المجتمـع الشعبي العربي نسبها الى جحاه بالصياغة العربية ايثارا على بقاء عنصر الدعابة والسخر حيا في النادرة واشتهرت بيننا على النحو التالي ... :ـ

* كان يسوق عشرة حمير ، فركب واحدا منها ، ثم خطر له ان يعدها في الطريق ، فوجدها تسعة ، فنزل يبحث عن الحمار ، ثم عدها فوجدها عشرة ، ففكر قليلا ثم قال : لان امشي واربح حمارا افضلُ من ان اركب واخسر حمارا . (١)

فالنادرة العربية آثرت الايجاز ، فذلك ابلـغ في الوصول الى المغزى في سرعة مقصوده ، دون اللجوء الى العنصر الخطـابي الوعظي وآثرت السخر الذي اعتمد على المقابلة اللاذعة في توفير عناصر الفكاهة اللازمة للدعابة والاضحاك .

والحق أن اغلب النوادر التي اثرت عن النموذج التركي وترجمت من أو الى العربية تحفلُ بجانب الوعظ بشكل واضح ،

---

(١) وقد أضافت رواية ابن حجة الحموي العبارة التالية : « تمشى خلف الحمير حتى كاد يهلك الى ان بلغ قريته » ولهذه العبارة دلالتها من حيث الوازع الاخلاقي الذي آثر ان يدفع الاحمق هنا ثمن حمقه وغبائه . أنظر : ثمرات الاوراق ص ١٧١ .

بينما النوادر التي أثرت عن النموذجين العربي والمصري تحفـل بجانب الدعابة والسخر اساسا ..

٨ ــ وعلى الرغم من أن النوادر الجحوية قد دونت ، وطبعت مرارا فان ذلك التدوين لم يشكل قيدا على قدرة النادرة على التطور والملائمة ... او المعاصرة ، فهي لا تزال تعيش حرة طليقة في وجدان الناس وتردد على السنتهم ، بل أن اغلب جامعي النوادر وناشريها قد اعترفوا صراحة بالدور الذي لعبوه في هذه النوادر عند جمعها من حذف أو اضافة أو تغيير .

٩ ــ أما ما يتعلق بالاسلوب او اللغة التي دونت بها النوادر الجحوية ، فهنا ينبغي أن ننتبه الى أن معظمها ، عند الترديد الشفاهي ، تتوسل باللهجات الدارجة لكل بيئة عربية . لكنها عندما تعرف طريقها الى التدوين ، فانها عادة ما تتفاصح فـي اسلوبها ، دون أن تفقد روحها المرحة في الحالين ، ومما هو جدير بالذكر أن أغلب جامعي الحكايات الجحوية ــ قديما وحديثا ــ قد دونوها باللغة الفصيحة ... وان ظلت الفروق الاسلوبية قائمة بينهم ، بحسب عصورهم ومستواهم الفكري ومحصولهم اللغوي.. وقد برر بعضهم طبيعة الاسلوب الذي اختاره لتدوين هذه النوادر، لكن لا ينبغي أن يغيب عن البال أن أغلب النوادر في التراث العربي مدونة بالفصحى .

وقد تختلط النادرة الجحوية احيانا بالحكايات الشـعبية الاجتماعية وهي حكايات جـادة) لكنها ــ اي النادرة الجحوية ــ تبقى نمطا أو شكلا من أشكال التعبير الادبي ، مستقلا ، قائما بذاته له مقوماته وأسبابه الفنية والموضوعية والنفسية . يعتمد على محور أسلوبي ، يقوم أو يتوسل بالمفارقات كما رأينا ...

وقد يكون من المفيد ان نذكر هنا بعض الملاحظات الشخصية عن (نوادر جحا) اثناء جمع المادة العلمية ... : ــ

* أن نوادر الحمق والغباء والغفلة والبلاهة والسذاجة ، والمجون ، والحيلة تتردد أكثر ما تتردد عند أهل البداوة أو أهل الريف ، وبين الطبقات الدنيا المحرومة من الثقافة المنهجية .

* بينما نوادر التحامق والتغافل واللمز والسخر والقول اللاذع المقتضب تتردد اكثر مما تتردد في المدينة ، وبين الطبقات المتوسطة او تلك التي اتيح لها نصيب من الثقافة المنهجية ، وان كان هذا لا يحول دون تجوال نوادر الحمق والتحامق معا بين المدينة والريف بطبيعة الحال .

* أما نوادر المجون والفحش ، كذلك النوادر التي ينتصف فيها جحا من كيد زوجته بكيد مماثل أو من حيث القضاة والسلاطين ، فكانت تتردد في البيئات البدوية والريفية والحضرية على السواء ... وبتعاطف واكبار شديدين .

* أن هناك بعض النوادر والنكات الجحوية كانت تؤلف من وحي اللحظة « اذ يكفي ان يروى الراوى أو يحكى المتحدث نادرة ذات طابع مرح ــ الا ونراه ينسبها الى جحا ، مهما كان الدور الذي يلعبه جحا في هذه النوادر ، فهو صالح لان يلبس لكل حالة لبوسها ، باعتراف بعض الرواه انفسهم بل أكثر من هذا يكفي أن يكون امام الراوي موقف فيه شذوذ أو عوج في السلوك أو القول الا الا وتراه يقول : « مثل جحا » و « على رأي جحا » ، « مرة جحا » قال جحا ، ويتم هذا ببساطة ، حتى غدا بالفعل في وجدانهم مشجبا أو رمزا لكل عجيب أو طريف او نادر أو شاذ من القول والسلوك . . ومن ثم لا نعجب من اضافة النوادر الحديثة او العصرية الى النموذج او المثال الجحوي واجازة الجامعين لانفسهم اضافة النوادر الحديثة ، ويشيرون الى ذلك ، اذ تصوروا أن ذلك يروج بيع كتبهم ، ويجعلها تتميز على ما سبق طبعه من نوادر .

* كما لاحظت ايضا ان كثيرا من نوادر جحا في الحمق او التحامق تتردد على السنة البعض دون نسبتها اليه ، وبخاصة في الاعمال الاذاعية السمعية والمرئية .

ومن خلال ما قدمت أو حددت من سمات للنادرة الجحوية يمكن القول بأن اغلب النوادر الجحوية تندرج أساسا بين أشكال التعبير في الادب الشعبي ـ تحت مصطلح « الحكايــة الشعبية المرحة » بكل سماتها وخصائصها ، كما يقترب بعضها جدا من شكل « النكتة الشعبية » بخصائصها واصولها النفسية وبواعثها ودوافعها ، وذلك ناشيء بطبيعة الحال عن طول النادرة أو قصرها .

كما ان هناك كما اخر من النوادر يمكن تصنيفه ودراسته ، تحت فنون قولية أخرى كالامثال الشعبية ، والالغاز الشعبية ، والنادرة الحكمية ... الامر الذي نقف عنده وشيكا لبيــان خصائصها ووظائفها ونماذج منها من الفصل التالي تحت عنوان « النادرة الجحوية » واشكال الابداع الشعبي الاخرى » .

٤ ـ حول انتقــال النــوادر وشيوعها .. :

ولعل هذا العدد الكبير للنوادر الجحوية ـ وهو عدد لا يمكن حصره ـ يقودنا الى قضية أخرى ، بل انه لمن الخير ، ونحن نشارف على الانتهاء من هذا الفصل ان نثير كذلك قضية انتشار الحكايات الجحوية وذيوعها وتقاسمها أو تبادلها او تداخلها أو تناقلها بين النماذج الجحوية الثلاثة ، العربي والتركي والمصري .. من ناحية ثم تنازعها لها فيما بينها جميعا وبين الانماط العالمية المختلفة من ناحية أخرى .

ولقد وضحت من قبل كيف تمت العلاقة بين النموذجين العربي والتركي وكيف ساعد على نمو هذه العلاقة بينهما أن النادرة المرحة عموما لا تلحق او لا ترتبط بمجتمع انساني محدد دون غيره ـ والفكاهة ـ كالموسيقى ـ لغة عالمية ومن هنا امتزج الجحوان

معا فكان التركي وقد اخذ نوادر سلفه جحا العربي ، الذي اخذ بدوره نوادر جحا التركي ، فكلاهما اخذ من الاخر بقدر ما اعطى له ـ ليكونا في النهاية نموذجا عاما ـ هو الذي سادت نـوادره وانتشرت في العالم العربي خاصة والاسلامي عامة (تركيا وايران) وهو نفسه النموذج الذي صار يعرف فيما بيننا باسم جحـا نصر الدين أو نصر الدين جحا مع لقب خوجة بالتركية او ملا بالفارسية ومعناه الشيخ او المعلم وعند بعض الخاصة يعرف باسم جحا الرومي عندما ينكرون جحا العربي أو يفرقون بينهما وهو أمر مرتبط بالنوادر اساسا ، من حيث هي فن عالمي ، ومن ثـم فالقضية المثارة هنا يمكن النظر اليها او معالجتها من خلال الجوانب او الحقائق التالية : ـ

الحقيقة الاولى :

ان جحا العربي ليس هو صاحب كل النوادر التي كان بطلا لها ونسبت اليه ، حتى من قبل ان يظهر التركي او يعرف في العالـم العربي ، والدليل على ذلك كتب التراث العربي التي تحفل بالنوادر قد وردت فيها النوادر الجحوية منسوبة الى غير جحا ، وان كان قد استأثر بها فيما بعد ، بقطع النظر عن كونه هو القائل الحقيقي . وبقطع النظر كذلك عن دلالتها ومضامينها بدليل أن القدماء قد صنفوا جحا بين الحمقى والمغفلين ، فانه بالرغم من ذلك قد نسـبوا اليه كثيرا من نوادر التحامق والذكاء والتطفيل والمجون والبخل والطمع ... الخ .

والمصادر العربية القديمة ـ التي تعود الى ما قبل ظهور الرمز التركي ـ تؤكد هذه الحقيقة وتبرزهـا في وضـوح ... واهمها : مخطوط نثر الدرر للآبي ، وأخبار الحمقى لابن الجوزي ، ومخطوط مضحك العبوس وهي المصادر التي عنيت به وذكرت ترجمته وأخباره ونوادره ، على الرغم من انها تؤكد ان « نوادره

كثيرة جدا » الا انها لم تذكر له سوى خمسين نادرة تقريبا ، يمكن اسنادها اليه دون أدنى شك ، بعبارة أخرى لم نجدها في أي مصدر اخر منسوبة لغير جحا ، مما يؤكد اصالة نسبتها اليه . .

وهذا يعني ان مئات النوادر التي نسبت اليه لم يكن هو قائلها ، وهذا صحيح ، بدليل أن الاستاذ عبد الستار فراج ، عند تحقيقه للنوادر الجحوية ، استطاع أن يعيد منها مائة وثماني وستين نادرة منسوبة له ولغيره في آن . . . . وأن يربطها بجذورها العربية في الوقت نفسه . (١) وفي مقدورنا ان نضاعف هذا العدد الا ان التحقيق هنا ليس من غايتنا ، ولا يفيدنا كثيرا من الناحية الفولكلورية . كما يذهب العقاد هذا المذهب الذي يؤكد ان جحا ليس صاحب كل النوادر التي نسبت اليه : « حيث يستحيل ان تصدر كل هذه النوادر من شخص واحد ، ومنها الزمن الذي تحتويه هذه النوادر ، ومنها تباعد البيئات التي تروى عنها سواء في الامكنة أو العادات أو الاخلاق ، ومنها اختلاف الشخصيات التي نصورها في مجموعها ، فمنها ما يكون التغفيل فيه من جحا ، ومنها ما يكون فيه جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذي يكشف عن الغفلة ، ويتندر على البلاهة » (٢) كما ان الناس خلعت لقبه على كل عجيب من القول وطريف من الحديث ولا سيما بعد ان اعجب الناس بأسلوبه السهل الممتنع في فهم الحياة ، فأسندوا اليه كل غريب من الملح وعجيب حتى صار لقبه يصبح ـ كما اصبح لقب خرافة ـ علما على فن بعينه من فنون القول بعد ان كان علما على شخص بعينه . كما أضيفت اليه بعد ذلك نوادر الرمز التركي نصر الدين خوجة .

ولعله من العوامل المساعدة على استقطاب النموذج الجحوي لكثير من النوادر ان بعض كتب التراث التي حفلت بالنوادر لم تنسبها ـ أول الامر ـ لشخص بعينه وانما اكتفت في تقديمها

---

(١) أخبار جحا القسم الاول (٦٣ ـ ١١٦) .

(٢) العقاد ـ جحا الضاحك المضحك ص ١٣٢ .

يقول : سئل احمق ، كان أحد المعلمين ، ادعى رجل ، حضر اعرابي ، قيل لاحد المغفلين . . . وهكذا ، فكان من الطبيعي كنادرة مرحة أن تنزع الى التجمع حول شخصية محورية ، فكان جحا . .
ولعل أوضح مثال لذلك هو العقد الفريد لابن عبد ربه الذي ذكر كثيرا من النوادر ولم ينسبها لجحا أو لغير جحا مع انها منسوبة الى جحا في مصادر أخرى معاصرة او سابقة له ، بل لم يذكر شيئا عن جحا بالمرة برغم كثرة النوادر التي يزخر بها ، وهذا أمر طبيعي فطالما أن النادرة تنسب لاكثر من واحد ، فأولى بها كذلك أن تروى دون أن تنسب لاحد ، ولعل السبب في ذلك يعود الى احتفاء الناس بالنادرة نفسها ـ اسلوبا وتعبيرا ـ في المقام الاول ، وسرعان ما تنفصل عن صاحبها الاصلي ، وتدور هائمة بلا صاحب حتى تلحق بعلم مشهور من اعلام الفكاهة . . .

الحقيقة الثانيــة :

وهي تتعلق بجحا الاتراك ، ذلك أيضا انه ليس بقائل كل ما نسب اليه من نوادر وانما اضيفت اليه من عدة مصادر أهمها الرمز العربي في المقام الاول . . . والدليل على ذلك يسير ، فما عليك الا أن تستعرض بعض النوادر التركية لترى اصلها العربي القديم يتبادر الى ذهنك مباشرة ، وقد حقق منها بالفعل الاستاذ عبد الستار فراج ١٦٨ نادرة منسوبة للرمز التركي فأعادها الـى أصولها ومصادرها العربية القديمة ، وغني عن البيان انها مصادر سابقة ـ تاريخيا ـ في تأليفها على وجود شخصية نصر الدين خوجة فضلا عن أن مترجم النوادر التركية الاستاذ حكمت شريف قد اعترف بدوره بأنه ألحق بنوادره المترجمة ما عثر عليه في كتب العرب من نوادر جحوية اذ يقول في مقدمة كتابه نوادر جحا الكبرى « فقـد وقع لي كتاب نوادر ضخم باللغة التركية يسمى : ـ لطائف خوجة نصر الدين ، وهو المشهور عندنا بنصر الدين جحا صاحب الاخبار المستغربة والنكات المستملحة ، ولما كان ما طبع في العربية من نوادر قليل جدا أقدمت على ترجمة هذا الكتاب عن اللغة التركية ،

والحقته بما عثرت عليه في غيره من كتب العرب والترك من اخبار هذا الرجل واطواره وقصصه ونوادره ، حتى اجتمع لدي هذا الكتاب (١) ، كما يشير في نهاية الكتاب الى النوادر المنقولة تحت عنوان ذيل النوادر ص ٢٦٣ ـ فيذكر نادرتين بلا مصدر ، واثنتين وعشرين يذكر صراحة انها نقلها من كتاب مضحك العبوس .. كما يلاحظ أن هناك أربعة نوادر في ذيل النوادر هذا مكررة مع النوادر المترجمة عن التركية مما يدل على أن النوادر التركية أساسا اخذت من النوادر العربية كما اثبت ذلك تحقيق الاستاذ عبد الستار فراج .

كما أن دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة نصر الدين ـ ذكرت هذه الحقيقة ايضا وقالت « ان جحا الترك قد أخذ من نوادر العرب الشيء الكثير ، كما انه كذلك قد أضيفت اليه نوادر قراقوش المتوفي سنة ١٢٠١ م ، وكذلك نقلت اليه بعض النوادر الهندية أو الفارسية الاصل » ، وقد وضحنا هذه النقطة تفصيلا من قبل في الفصل الثاني من الباب الاول .

كما أن هناك دليلا اخر هو ان النوادر الجحوية التركية قد زيدت عدة مئات فبينما نجد عددها في الطبعات الحديثة ، طبعة فيسيلسكي (Wasselski) يتراوح بين ٥١٥ : ٥٥٥ نجد ان اقدم المخطوطات في هذا الموضوع (Leyden No. 2715) والذي اصبح تحت تصرف الاوروبيين في سنة ١٦٢٥ م لم يحتو الا على ٧٦ (ست وسبعين فكاهة فقط) وقد احتوت الطبعة الاولى لكتاب (Chapbook on Nasreddin) الذي اصبح فيما بعد مرجعا واساسا لكثير من الطبعات الحديثة ، والتي ظهرت في سنة ١٨٣٧ م على ١٢٥ فكاهة فقط فمن أين جاءت هذه الزيادة وللاجابة عن هذا السؤال تقول دائرة المعارف الاسلامية في موضع اخر .. : ـ « وكثير من نوادر نصر الدين ترجع الى قرون عديدة سابقة مما يقطع بأنه لا

---

(١) حكمت شريف ـ نوادر جحا الكبرى ص ٣ .

يمكن أن يكون هو قائلها . وكون معظم النوادر غير تركي الاصل يبدو واضحا جليا بالرغم من كل التغييرات التي أحدثها فيها الاتراك (١) ثم جاء كاتب مادة نصر الدين ، فأثبت الاصول العربية ، لنوادر الرمز التركي ، على نحو ما أشرنا في ترجمة جحا التركي .

ويعلق العقاد كذلك على نسبة نوادر الرمز التركي فيقول :ـ وهي مما يمكن أن ينسب الى عشرة متباعدين في الزمان والمكان والعقل والمزاج، وبعض هذه الحكايات متأخر الى ما بعد اختراع الساعات التي تحمل في الجيب ، وبعضها متقدم الى أيام الصحابة والتابعين (٢) ، وكما يقول في موضع اخر « ومن الواجب أن نسلم بداءة بوضع العدد الاكبر من النوادر التركية او نقلها من رواة الامم الاخرى ، لان حصولها كلها من رجل واحد أمر لا يسيغه العقل ولا يروى له نظير في السوابق التاريخية فلو ان هذا الرجل عاش ليخلق تلك النوادر ، وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من أضاحيكه تلك المئات التي تملأ المجلدات ، ولا استطاع ان يأتي بما فيها من النقائض العقلية والخلقية فضلا عن نقائض الجغرافية والتاريخ . فوضع العدد الاكبر من النوادر أمر مفروغ منه لا يجوز أن يحتج به المحتج على بطلانها واختلافها من اصولها ، ولعل هذه النوادر الموضوعة أصح في الدلالة على ازمنتها وبيئتها من وقائع السجلات والارقام (٣) .

الحقيقة الثالثة :

وهي تتعلق بنوادر النموذج الجحوي في مصر التي عرفت وشاعت في البيئة المصرية والمجتمع المصري باسم نوادر جحا فهي ـ أساسا ـ مزيج او خليط منتخب من نوادر النموذجين السابقين العربي ، والتركي ، بعضها نقل كما هو ؛ وبعضها خضع لتغييرات محلية من تطور أو حذف أو اضافة اي أن الشعب

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة نصر الدين ص ٨٧٦ .
(٢) العقاد ـ جحا الضاحك المضحك ص ١٣٦ .
(٣) العقاد ـ جحا الضاحك المضحك ص ١٣٦ .

المصري قد وضع بصماته الاصلية عليها ثم اضاف الى ذلك كله ما جد من نوادر (مصرية التأليف) ، تعبر بدورها عن تجربة الحياة اليومية في المجتمع المصري ورؤيته وآماله وروحه التي تجنح الى الدعابة والسخر ، وقد اشرت الى بعض منها في موضعه من الباب الثاني ، كما اعترف الجامعون المصريون للنوادر بهذه الاضافات ، يقول احدهم : « على أني قد دونت ما سمعته من أفواه بعض الناس من نوادر منسوبة الى جحا (١) » وقد اشارت المجموعات الشعبية الى ذلك – وهي دون مؤلف – وانفردت بذكرها او تدوينها ولم نعثر عليها مدونة في اي مصدر من مصادر النوادر على كثرتها ، ثم جاء الاستاذ عبد الستار فراج فأقر هذه النسبة وضمنها كتابه ، (أخبار جحا – دراسة وتحقيق) فيقول : « وهناك نوادر وجدتها أسندت اليه في الكتب المطبوعة ، ويبدو عليها انها حديثة العهد » (٢) فأضافها .

وثمة ملاحظة حول النوادر المصرية المنقولة من نوادر النموذجين العربي والتركي انها بالرغم مما تم فيها من حذف او اضافة أو تحوير فقد احتفظت بأهم المعالم الاساسية للنادرة .. في بعض منها ، أما البعض الاخر فقد تبدلت او تطورت الموتيفة الاساسية فيه ، ويلاحظ على كلا النوعين – دون ادعاء – انها اكمل من حيث المبنى والمعنى من الناحية الفنية والموضوعية . والنوادر العربية بما خضعت له من تغيير في البيئة المصرية انما تدل على ان معايشة الشعب المصري لها كانت معايشة صادقة مما جعلها تكشف بوضوح عن ظروف الشعب نفسيا واجتماعيا واخلاقيا ومن ثم تشكلت الرواية المصرية وفقا لهذه الظروف .

الحقيقة الرابعة :

وهي خاصة بانتقال الرمز الجحوي – ونوادره – كما عرفناه في البيئة العربية عموما الى بيئات مجاورة غير عربية ، فهو قد

---

(١) نوادر جحا – مجموعة حسن حسني – مكتبة صبيح سنة ١٩٥٠ – ص ٧ .
(٢) عبد الستار فراج – أخبار جحا ص ٢٧ .

وصل بالفعل الى البربر تحت اسم (سي جحــا) وبالمثــل الى النوبيين (١) ، كما نطقــه المالطيون (جُهَــان) (٢) وهو تصحيف يسير بينه وبين (جحا) كتصحيف كثير من الاسماء العربية التي يسمى بها ابناء جزيرة مالطة ، كما يقول بعض المستشرقين أن جحا معروف في نيجيريا وبالاسم نفسه (٣) .

ومن جهة اخرى نجد ان تلك النوادر الجحوية وقد وجدت هوى في نفوس الغربيين وغيرهم من الشعوب الذين اقبلوا على نوادر جحا لانها وافقت عندهم نماذج من الشخصيات المضحكة يألفونها ويتناقلون حكاياتها الصحيحة أو الموضوعة وكانت نوادر جحا نفسه قد تسربت الى الغرب بالتنقل والرواية الشفوية والاطلاع على الكتب العربية أو ترجمتها (٤) ثم استشهد العقاد بأمثلة لذلك . كما أن دائرة المعارف الاسلامية تشير الى ان نسخة تركية للنوادر قد أصبحت تحت تصرف الاوروبيين بالفعل منذ نشر المخطوط الذي وجد في ليدن سنة ١٦٢٥ م (٥) ولهذا لاغرو أن نرى بعض النوادر الجحوية ـ التركية والعربية ـ قد انتقلت وانتشرت سواء احملت اسمه أم نسبت لغيره أو بدون اسم على الاطلاق ـ في بلدان كثيرة وبخاصة منطقة الكتلة الشرقية عن طريق النسخ التركيــة بخاصة ـ فعرفها الرومان والبلغاريون واليونانيون والالبانيــون واليوغوسلافيون ، وكذلك الارمن والروس والقوقاز واهل جورجيا

---

(١) ومما بلفت النظر ان هناك في بلاد النوبة عند نهاية حدود مصر الجنوبية تلالا او كيمانا (مفرد كوم) تسمى في الخرائط المساحية « كيمان جحا » وللنوبيين في تفسير ذلك ، أسطورة او حكاية خرافية ملخصها : ان تاجرا طماعا او حاكما متسلطا على أقوات الشعب ، اختزن تلالا من القمح كثيرة وراح يبيعها للناس بسـعر فاحش فدعا عليه جحا ، فسلط الله على هــذه التلال روحا شريرة فأحالتها الى كيمان من التراب والرمل والصخر ، وشكل هذه التلال اقرب الى شكل الاهرامات .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة نصر الدين .

(٣) الدكتور عبد الحميد يونس ـ الحكاية الشعبية ص ٧٨ .

(٤) العقاد ـ جحا الضاحك المضحك ص ١٨٢ .

(٥) دائره المعارف الاسلامية ـ مادة نصر الدين .

وصربيا واوكرانيا وتركستان .. الخ (١) ومن الطبيعي أن يلحق النوادر الجحوية الكثير من التغيير او التعديل بسبب هذه الجولات الطويلة والكثيرة بين البلدان ، بل اضيف اليها الكثير من النوادر التي تسير على منوالها .

الحقيقـة الخامسـة :

وهي مرتبطة بالحقيقة السابقة .. .اذ لا مفر أن نشير ـ ولو من بعيد ـ الى ظاهرة تشابه بعض النوادر في الاداب العالمية دون ان نجزم بأصلها ، هل تعود الى اصول شرقية أو غربية ، وتحقيق ذلك عسير ، ما لم تتوفر لدينا الادلة العلمية حول رحلتها الجغرافية والتاريخية ، ويزيد الامر صعوبة ان النوادر ما هي الا نوع من القصص الشعبي « الحيادي » أو الحكايات الشعبية التي توجد في كل بيئة ، ومن ثم فهي ظاهرة او خاصية مشتركة في ادب كثير من الشعوب . ولنأخذ أمثلة لذلك : ـ

الاول .. : ـ قصة مشتركة بين جحا أو ابي نواس من ناحية وبين رابليه الفرنسي (١٤٩٤ ـ ١٥٥٣ م) رواها العقاد : وملخصها أن تاجرا بخيلا راى طارقا فقيرا يبتلع الخبز القفار على رائحـة شوائه أو طبيخه فطالبه بثمن هذه الرائحة ، وحار الفقير في امره حتى انقذه (الرمز الجحوي) حلال المشكلات بحل من قبيل دعواه ، لانه رن أمامه قطعا من الدراهم وقال له خذ رنين هذه الدراهم ثمنا لرائحة شوائكَ (٢) .

الثاني .. : ـ هناك امثلة اخرى مشتركة في خرافات ايسوب (Aesop) ونوادر جحا ، منها تلك النادرة المشهورة « جحا وابنه وحماره » التي لم يفلح هو وابنه فيها بارضاء الناس ، حيث نراها عند ايسوب الحكيم اليونانـي القديـم في خرافاته منسوبـه اليه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة نصر الدين .

(٢) انظر : جحا الضاحك المضحك ص ١٣٧ وما بعدها .

بعنوان : ـ « الطحان وابنه وحماره » (١) والتي ذكر في مقدمة كتاب خرافات ايسوب انها مأخوذة بدورها من كتاب الحقائق لبوجيو برشيوليني سنة ١٤٧١ (٢) ومنها ايضا نادرة « جحا وابنتاه » الموجودة في خرافات ايسوب بعنوان « الاب وابنتاه » . (٣) .

كما وردت في حكايات الكاتب الايطالي بوكاشيو (ديكامرون) نوادر متشابهة مع نوادر جحا منها على سبيل المثال الحكاية الثامنة التي تروى حادثة خداع بهذا الاسلوب الفاحش الذي امتازت به النادرة الجحوية ومجمل نادرة « بوكاشيو » : أن سيدة كانت تعشق أحد الفرسان ، وكان لهذا الفارس تابع ، وذات مساء ، يشاء الفارس أن يزور صاحبته ، فيرسل اليها التابع قبله ، وتستميل السيدة هذا التابع ، وتغريه بنفسها فلما جاء الفارس استخدمت ذكاءها في اخفاء التابع فأنكرت انها راته ، واذا هي مع الفارس . . .ولا تزال ، يأتي زوجها ، فلا يرتج عليها ، بل تستخدم حضور بديهة فائقة ، فتأمر الفارس ان يندفع الى الخارج شاهرا سيفه وهو يلعن ويسب وينذر بأنها ستتحمل مسئولية ما يحدث ، فلما يسألها زوجها عن سبب هذا الذي يراه ، تجعل التابع يخرج من مخبأه وتقول لزوجها المخدوع انها أجارت هذا الخادم حين رأت سيده يطارده . وقد مرت هذه النادرة من قبل منسوبة الى جحا وكيد زوجته له ، وان كان العنصر الفكاهي قد بلغ مداه في النادرة العربية حينما يتمادى جحا في غبائه أو تغافله فيقول : اخرج يا ولدي وادع لسيدة الحرائر لحسن صنيعها معك ، جزاها الله خيرا ، وهي في الحالين تؤكد حدة ذكاء المراة في مثل هذه المواقف (٤) .

---

(١) خرافات ايسوب ـ ترجمة الاستاذين مصطفى السقا ، وسعيد جودة السحار ص ١٤٣ ، نادرة رقم ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٩ نادرة رقم ٨٦ .

(٤) انظر : علم الفولكلور ـ تاليف : ا.هـ. كراب ترجمة رشدي صالح ص ٩٥ـ٩٦ .

وهناك نوادر كثيرة من هذا القبيل اكتفينا بسرد بعضها على سبيل الاستشهاد ، فليس من اهدافنا الدراسة المقارنة للنوادر اساسا . وان كان كثير من الباحثين الغربيين والشرقيين على السواء يردون هذه الحكايات وبخاصة حكايات بوكاشيو الى قصص شعبي عربي كان متداولا في عصره .. ولكنه لم يدون على غرار أغلب الحكايات الشعبية . (١)

والحق أن كثيرا من النوادر المرحة بوجه عام طافت ولا تزال تطوف بين الشرق والغرب غير مقيدة بحد أو بقيد ، لا الحدود الجغرافية أو القيود الزمانية التي تعين على تتبع خطوات هذا الانتقال ومعرفة أطواره . فالفكاهات والنوادر ــ بحق ــ شيء خارج عن حساب الزمن ، وشائع في المجتمعات التي تنازعتها أو رددتها أو تبنتها ... وربما كان سبب انتشارها وشيوعها على هذا النحو أمورا كثيرة منها الرحالة والتجار والحجيج ، بعبارة اخرى عن طريق الهجرة البشرية او الثقافية أو الحضارية ، كما يعود ذلك أيضا الى طبيعة الحكاية المرحة ذاتها من ناحية اخرى وما تنطوي عليه من قلة الجزئيات الاولية او الموتيفات الاولية او العناصر الاولية فكلما أمعن عنصر اولي في السذاجة ــ كما يقول كراب (A. H. Krappe) ــ : رجحنا أنه ناشيء من معتقد عالمي شعبي ، أو أنه انبثق من ظن منتشر في انحاء العالم او انه يقوم على عادة ذائعة في سائر العالم ، او انه يعبر عن نظم اجتماعية عالمية ، او لعل هذا العنصر نشأ في أكثر من مرحلة زمنية واحدة ونشأ في أماكن متفرقة (٢) ، وبرغم أن كراب يؤيد نظرية العالم الالماني تيودور بنفي (Th. Benfey) في انتقال القصص الشعبي عن طريق انتقال القاص نفسه عبر الزمان والمكان أو اللغة أحيانا كثيرة الا أنه ــ في مجال الحكاية المرحة يؤيد نظرية النشوء من مصادر متنوعة التي نادى بها العالم الفرنسي ــ جوزيف بيديه

(١) فؤاد جميل في مقال بعنوان : مأثوراتنا الشعبية وآثارها في الحضارة الغربية ــ مجلة العربي ــ العدد ٦٩ ــ اغسطس ١٩٦٤ م ص ١١٥ ــ الكويت .

(٢) كراب ــ علم الفولكلور ــ ترجمة رشدي صالح ص ٩٤ ــ ٩٥ .

(Joseph Bédier) بل هي في رأي كراب أشد النظريات انطباقا وادعاها الى القبول (١) على هذا النوع من الحكايات المرحة او النوادر .

وخلاصة القول أن الحكاية الشعبية ـ بما فيها من نوادر وحكايات مرحة ـ تراث انساني اجتمع على تذوقها الصغار والكبار. اذ ليس هناك اثر ادبي التقت عليه الطبقات . ومراحل التطور والعمر كالحكاية الشعبية عامة والمرحة خاصة . ذلك لانها تمثل لقاء الماضي بالحاضر .. لقاء الكبار بالصغار ... لقاء الشرق بالغرب ، وهذه المزية هي التي دفعت المتخصصين في المأثورات الشعبية بصفة عامة وفي هذا الشكل بصفة خاصة الى محاولة الكشف عن أصولها ومواطنها وسياقها ومناهج انتشارها . ومهما اختلف هؤلاء العلماء حول الموطن والاصل فان الحكايات الشعبية بمضامينها ومحاورها حظ مشترك بين الشعوب على اختلاف لغاتها ومراحل حضاراتها . وهذه الحكايات الشعبية تناقض ما تصوره البعض من انحصارها في اقليم بعينه أو مرحلة تاريخيه بعينها ذلك لانها خضعت ـ كما لم يخضع شكل أدبي اخر للاخذ والعطاء بين الافراد والجماعات ولم تعترف بالحدود أو العصبيات أو حتى اختلاف اللغات . ومن اليسير أن يجد الباحث صورا تحكي أنماط الحياة في الماضي أو في الغابات أو على قمم الجبال ؛ وكثيرا ما يجد شخوصا باماراتها ، وبأسمائها ـ في بعض الاحيان ـ في تراث شعوب اختلفت بينها العصور أو الديار . والباعث على احتفاظها بهذه المزية هو التقاء الخيال بالواقع فيها الى جانب التقاء الحلم بالحقيقة (٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٢) انظر الدكتور عبد الحميد يونس ـ مجلة الفنون الشعبية ـ العدد الرابع عشر سبتمبر سنة ١٩٧٠ ـ ص ٨ .

٢
النَادرةالجُحَويَّـة
وانماط الابداع الشعبي الاخرى

١ ــ جحا والمثل الشعبي

ان العلاقة بين جحا والامثال الشعبية علاقة وثيقة .. فهو احـد الشخصيات أو النمـاذج الرئيسة في أمثالنا الشعبيـة ... ولعل ذلك يرجع الى أسباب ثلاثة ... : ــ

اولا : علاقة موضوعة ... :

حيث يرتبط المثل هنا بفلسفة النمط الجحوي اساسا بكل ما يعبر عنه من تناقضات مجتمعه الفكرية والاجتماعية والنفسية والثقافية والسياسية والسلوكية ... الخ .

ثانيا : علاقـة فنيـة ... :

فالقالب العام للمثل الشعبي يوافق القالب العـام للحكاية الشعبية والجحوية بخاصة (من حيث أن المثل الشعبي تشكل فني وبناء اجتماعي أيضا) ... وعلى اعتبار أن أغلب الامثال تحوى وراءها قصة او حكاية قصيرة اشبه بالنادرة ، ومن ثم كانت نوادره معينا خصبا لكثير من الامثال التي تجمع بين حكمة المثل العملية والاسلوب الجحوي الساخر في التعبير . وتم ذلك ، اي انتخاب الامثال الجحوية من واقع نوادره .. وهذا ما حدث بالفعل (نادرة جحوية تنتهي عادة بقول شائع او حكمة .. أو العكس ، حكمة وراءها حكاية مرحة من حكايات النمط الجحوي) وبذلك يكتمل « جسم » المثل الشعبي عند جحـا .

ثالثا : علاقــة شرطية :

ذلك أن جحا نمط شعبي أشهر من أن يعرف في المجتمعات الشعبية .. وبخاصة في جانبه الاحمق .. حتى ضرب بحمقــه المثل فقيل « أحمق من جحا » (١) وان كان بهذه الحماقة يعرى أو يكشف عيوب مجتمعه وتناقضاته ، وهل يقول الحقيقة او الحكمة الا احمق أو صبي .. ؟ تماما كما عبر عن ذلك كله من قبل ، في اطار الحكاية الشعبية المرحة ...

والتقدمة السابقة تبين لنا بوضوح كيف أتيح لجحا ان يكون رمــزا قادرا علىالتعبير عــن الكثير مــن المــواقف ، والتجاريب الانسانية ــ بكل تناقضاتها فيْ شكل اخر من أشكال التعبير الادبي هو **المثل الشعبي** .. ومن ثم كان من الطبيعي أن يستنطق الناس جحا بالمثل الشعبي ، وان كان يسوده فيْ أمثاله طابع الحكمة والتوجيه والنقد الاجتماعي أكثر مما يسوده طابع الدعابة هذه المرة، وان لم تخلُ منها فيْ الوقت نفســه .

والامثال عموما ــ باعتبارها شكلا من اشكال الابداع الادبي الشعبي ــ هي في كل قوم « خلاصة تجاريبهم ومحصول خبراتهم ، وهي أقوال تدل على المحز وتطبيق المفصل ، هذا من ناحية المعنى ، أما من ناحية المبنى فان المثل الشرود يتميز عن غيره من الكلام بالايجاز ولطف الكناية وجمال البلاغة . والامثال ضرب من التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية (٢) وقد يتهم هذا التعريف بالتعميم ، حيث يمكن تطبيقه على كثير من فنون التعبير الادبي كالنكتة وكثير من القول المأثور ، ولا يختلف **الاستاذ احمد امين** في تعريفه للامثال ــ عن التعريف السابق ــ لولا انه قد لاحظ بحسه الادبي واهتمامه الشخصي بالادب الشعبي ــ خاصية أخرى

---

(١) الميداني ــ مجمع الامثال ــ الجزء الاول ــ ص ١٩٧ .

(٢) محمد رضا الشبيبي ، من تقديمه لكتاب الامثال البغدادية للشيخ جلال الحنفي ص ٣ ــ بغداد ١٩٦٢ .

وهي أن «مزية الامثال تنبع من كل طبقات الشعب » (١) وان كان قد اغفل ذكر التجربة التي يعد المثل خلاصتها النظرية ان صح هذا التعبير ، ونتفق مع الاستاذة **الدكتورة نبيلة ابراهيم** (٢) في أن أكثر التعريفات شمولا هو **تعريف الاستاذ فريدريك زايلر** (F. Seiler) وذلك في مقدمة كتابه (علم الامثال الالمانية) ويعرف زايلر المثل الشعبي بأنه القول الجاري على السنة الشعب ، الذي يتميز بطابع تعليمي وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المالوفة برغم انه يعيش في افواه الشعب ، والمثل الشعبي من وجهة نظر « زايلر » لا بد أن يحتوى على فلسفة ليست بالعميقة مصوغة في اسلوب شعبي ، بحيث يدركها الشعب باسره ويرددها .

كما أورد ايضا الاستاذ رشدي صالح (٣) في كتابه « الفنون الشعبية » كثير من التعريفات لعل أجدرها بالتسجيل هنا **هو تعريف آرشر تيلور** من أن المثل اسلوب تعليمي ذائع الصيت بالطريقة التقليدية يوحي – في غالب الاحيان – بعمل من الاعمال ، او هو يصدر حكما في وضع من الاوضاع .

كما أن هناك ايضا **تعريف كراب** اذ يقول في تعريفه للمثل :– يعبر المثل ، في شكله الاساسي ، عن حقيقة مالوفة صيغت في اسلوب مختصر سهل ، حتى يتداوله جمهور واسع من الناس (٤) . كما يرى أن الخاصيتين الاساسيتين في المثل هما : – الطابع التعليمي من حيث الموضوع ، والاختصار والتركيز من حيث الاسلوب (٥) كما يرى **الاستاذ صفوت كمال** أن الامثال : تقدم معرفة وخبرة ما

---

(١) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ص ٦١ – القاهرة – لجنة التاليف والترجمة .

(٢) د. نبيلة ابراهيم ، اشكال التعبير في الادب الشعبي ، القاهرة – دار نهضة مصر ص ١٤٠ .

(٣) رشدي صالح – الفنون الشعبية – المكتبة الثقافية – العدد ٢٤ – القاهرة دار القلم سنة ١٩٦١ ص ٣٥ – وما بعدها .

(٤) علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ص ٣٥ ، دار الكاتب العربي القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٥) المصدر السابق ص ٢٣٥ .

كان للفرد أن يعيها دون معاناة لواقع الممارسة الفعلية لانماط الفعل الاجتماعي أو الطبيعي ، ومن الامثال ما يكون موعظة .. ونصيحة تحدد للانسان سلوكه الاجتماعي (١)

وفي ضوء التعريفات السابقة نستطيع ان نقول أن المثل الشعبي فضلا عن خصائصه الفنية من حيث الشكل ، فانه في اخر الامر **يوحي بعمل ما او يصدر حكما في وضع ما مستخلصا اساسا من واقع التجربة الانسانية وفي ضوء مواقف فردية في الاساس** باعتبار أن التراث الشعبي هو ابداع فردي أساسا تبنته الجماعة لحظة نشوئه .. وليس في وسعنا أن نعتبر المثل ـ كما لم نستطع اعتبار الحكاية انتاجا جماعيا ، بل صيغ كل مثل ذات مرة ، وفي مكان واحد ، وزمن محدد ، وصاغه عقل فرد ، مجبول على صياغة الحكم والامثال (٢) .

وعلى كل حال ففلسفة المثل هي فلسفة موقف ، وان المثل كتعبير يؤدي « وظيفة » دون حاجة الى كيان مادي فالعاقل من اتعظ بغيره ، وبرغم اختزان الامثال لتجارب ومواقف خاصة ـ في الاصل ـ الا أن حقائق هذه التجارب يكتسب في النهاية طابع التجريد لموقف مادي ، وتتحول الى مقولة اجتماعية أو أخلاقية أو ثقافية ... تفسر لنا موقفا واجهه انسان من قبل واستخلص نتائج تجربته في عبارة كلية ، وقد نشعر في النهاية بالرضا أو الارتياح لسماعها ، ان لم نعش التجربة ذاتها التي يلخصها المثل ، ومن هنا أيضا نرى في الامثال طابعا تعليميا يجمع بين النصح والتحذير من مغبة سلوك معين في موقف معين ، وذلك النصح أو التحذير يقدمه المثل الشعبي ـ كدليل ـ باعتباره تجربة مباشرة سابقة عاناها انسان من قبل ... كما انها أي الامثال تهدف من خلال

---

(١) صفوت كمال ، مدخل لدراسة علم الفولكلور الكويتي ـ مطبعة حكومة الكويت ، الكويت سنة ١٩٦٨ م ، الطبعة الاولى .

(٢) علم الفولكلور ـ تأليف كراب ـ ترجمة رشدي صالح ص ٢٣٦ .

تلخيصها للتجارب الفردية الى نقد الحياة ، وكثيرا ما يشعرنا المثل بنقص في عالم الاخلاق ، وليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبي من عيوب أخلاقية (١) .

ومن غير أن تستدرجنا التعريفات الكثيرة للمثل الشعبي ، علينا أن نبادر فنضع مفهوما محددا أو تعريفا مميزا للامثال الجحوية ـ موضوع دراستنا ـ وما يمكن أن تتسم به من سمات وملامح فنية تجعل منها في النهاية شكلا اخر من اشكال التعبير الجحوي ان صح التعبير . ولكن قبل أن نشير الى تلك السمات الخاصة بالمثل الجحوي ، فثمة ما يستوقفنا قبل ذكرها ... واعني بذلك انه لم يكن من المستطاع ـ ولا يجوز ـ أن نقوم بدراسة الامثال الجحوية كوسيلة تعبيرية شعبية منفصلة عن مجالات ثلاث هي ... : ـ

١ ـ **نوادر جحا وحكاياته الشعبية** : ـ « اسلوبا ، ومنهاجا ، وموقفا ، وفلسفة » .

٢ ـ **الامثال الشعبية العربية** : ـ باعتبارها البيئة المهد ، الطبيعية التي انتجت او أفرزت هذا اللون من التعبير ، وتعاملت به ومعه . سواء أكانت هذه الامثال جحوية أم غير جحوية ، وما الامثال الجحوية الا جزء يسير ومنتم لتراثنا الضخم في الامثال الشعبية .

٣ ـ **المزاج العربي** ... : ـ الذي يؤثر التهكم والسخرية اللاذعة .. ذلك أن المثل الذي ينسب للنموذج او المثال الجحوي ، تغلب عليه « المحلية » على العكس من نوادره ، وليس من شك أن البيئة المصرية كانت اكثر البيئات العربية احتفاء بالمثل الجحوي ، انشاء وابداعا وتذوقا ومعايشة .

---

(١) د. نبيله ابراهيم . اشكال التعبير في الادب الشعبي ص ١٤٤ .

وفي ضوء هذه المجالات الثلاث وفي ضوء التعريفات السابقة للمثل الشعبي عموما يمكننا تحديد بعض خصائص المثل الجحوي وسماته .... وعلى الرغم من ان المثل الجحوي لا يختلف عن التعريف العام للمثل الشعبي الذي يعبر في شكله الاساسي عن حقيقة مألوفة ، بالرغم بساطة تركيبها اللغوي وايجازها الشديد احيانا لكنها تخزن او تعبر عن بعض التجارب او المضامين الانسانية بوجهات نظر متعددة تجاه مواقف حياتية متعددة ، وربما كانت متناقضة ـ لاختلاف البيئات الاجتماعية التي افرزتها ، لا لتناقض في الامثال ذاتها ـ والخاصيتان الاساسيتان في المثل هنا الطابع التعليمي الاخلاقي من حيث الموضوع والاختصار والتركيز من حيث الاسلوب (١) ، فلسوف يبقى للمثل الجحوي بعض الخصائص التالية او الملامح الخاصة به وهي ... : ـ

اولا .. : ـ عادة ما يكون المثل نفسه نادرة من نوادره الموجزة او قولا من اقواله الشائعة .. :

* قالوا : يا جحا بقرة ابوك خدوها الحرامية .

قال : هي عند الحرامية زي عند أبويا (٢) .

* قالوا يا جحا : امتى تقوم القيامة ؟ قال لما اموت انا (٣) .

* قالوا يا جحا : ايه أحسن ايامك ،
قال : لما كنت أعبي التراب في الطاقية (٤) .

---

(١) الكزاندر هجرتي كراب ، علم الفولكلور . ترجمة رشدي صالح ، دار الكاتب العربي ، القاهرة سنة ٦٧ ص ٢٣٥ .

(٢) مذكرات جحا ، محمد فهمي عبد اللطيف ص ١٤ .

(٣) الامثال العامية ، احمد تيمور ص ٣٧٣ ، رقم المثل ٢١٩٣ . الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠ ـ لبنان .

(٤) الامثال العامية احمد تيمور ص ٣٧٣ رقم المثل ٢١٩٤ .

* قالوا : صباح الخير يا جحا ،
قال : دا أنا لسه سارح (١) .

* قالوا : يا جحا فين مراتك ؟
قال : بتطحن بالكرا .
قالوا : وطحينك ، قال : كريت عليه .
قالوا : كنت خلي مراتك تطحنه (٢) .

وقد يكون المثل الجحوي قولا سديدا أو لاذعا اختتم به جحا نادرة من نوادره ، مثال ذلك :ـ

* اذا كان هذا هو القط ، فأين اللحم ، واذا كان هذا اللحم فأين القط (٣) فأخوذ من النادرة التي تحمل هذا الاسم مع زوجته حينما حاولت استغفاله فأكلت اللحم مع عشيقها وادعت أن القط أكله ... وقد مرت بنا هذه النادرة من قبل ...

و قد يكون عنوانا لنادرة ، ومع ذلك يجرى مجرى المثل .. :ـ

كقولنا :

* مثل مسمار جحا .

* مثل بوابة جحا (وهي بوبة في صحراء تفضي الى فراغ مطلق)

* زي بيت جحا (٤) .

* يكفاه نعيرها (٥) .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٨ ، رقم المثل (٢١٦٩) .
(٢) المصدر السابق ص ٣٧٣ — رقم المثل (٢١٩٨) .
(٣) النادرة مأخوذة من أخبار جحا ، عبد الستار فراج ص ١٢٧ .
(٤) يقصدون بها ساقيته التي كان تفضي بمائها الى النهر ثانية وحسبه حينئذ من الفخر نعيرها .
(٥) الامثال العامية للعلامة احمد تيمور ص ٥٢٥ رقم المثل ٣١٧٣ .

* مثل حلة جحا (١) .

* الخناقة على اللحاف وانتهى الخلاف (٢) .

وقد يشيع العنوان ، وتطغى شهرته على النادرة ، فينسى الناس النادرة أو قصة هذا المثل ، أو بالاحرى النادرة التي اخذ منها هذا المثل .

ثانيا : ـ واذا كانت النادرة الجحوية تشكل في اغلبها مقولات تعليمية ثقافية واجتماعية واخلاقية فان بعض هذه النوادر **التي تحولت الى امثال سارية** هي تعبير عن هـذه المقولات وترديد لمضامينها ولهذا يبقى الارتباط بينهما من الناحية الفنية وثيـق الصلة ، **ومن هنا ايضا كان ارتباط المثل الجحوي بحكاية جحوية تفسره أو تفسر اصله ، وبعبارة اخرى فان كثيرا من النوادر الجحوية يمكن ان نسميها او نطلق عليها « حكايات الامثـال »** الجحوية أي تلك الحكايات التي تحكي حدثا ينتهي بعبارة مركزة موجزة ذات مغزى عميق يؤهلها لان تصبح فيما بعد مثلا ساريا يتداوله الناس .

ولهذا ترى أن أغلب الامثال الجحوية هي في الاصل عناوين لنوادر جحا وحكاياته وقد سارت سير الامثال فاذا ما واجه الانسان في حياته موقفا مماثلا اكتفى بايراد المثل الوارد .

ثالثا : والخصيصة الثالثة مرتبطة كذلك بالخصيصة السابقة، ذلك ان اغلب النوادر الجحوية تتسم بطابع الحكاية في اسلوبها ، متفقة في ذلك مع احدى الخصائص العامة لاسلوب المثل ، وهنا تبرز السمة المرتبطة بالحكاية وهي سمة الحوار في المثل الجحوي وعلى سبيل الحكاية ايضا . ولهذا كانت اغلب الامثـال الجحوية تجمع بين عبارتين تقليديتين من عبارات الحوار : قالوا يا جحا :

---

(١) أنظر النادرة ص ١٨٣ من هذا الكتاب .

(٢) أنظر النادرة ص ١٥٠ من هذا الكتاب .

فقال جحا .. سئل جحا ، اجاب جحا وربما اضفى طابع الحوار هنا عمقا دراميا من حيث كونه تقابلا في الآراء .. وربما كان ذلك امعانا في اكساب التجربة او الموقف الذي يعبر عنه عمقا انسانيا كذلك .

* **قالوا** يا جحا عد غنمك ، **قال** واحدة نايمة وواحدة قائمة (١) .

* **قالوا** يا جحا عد موج البحر **قال** : الجايات اكثر من الرايحات (٢) .

* **قالوا** يا جحا فين بلدك ، **قال** اللي مراتي فيها (٣) .

ويشيع هذا الاسلوب في أغلب الامثال الجحوية . . .

رابعا : ـ كذلك تشيع في كل الامثال الجحوية روح التهكم والسخرية ، والاستهزاء احيانا . . : ـ

* جحا أولى بلحم طوره (٤) .

* جحا اكبر واللا ابنه (٥) .

* ودنك منين يا جحا (٦) .

* جحا قطع النخلة خد بغلته وياه (٧) .

* قالوا يا جحا كلبك بالسخونة (مريض بالحمى) قال اهو فاضي لهـا (٨) .

---

(١) الامثال العامية أحمد تيمور ص ٣٧٣ رقم المثل ٢١٩٥ .
(٢) الامثال العامية أحمد تيمور ص ٣٧٣ رقم المثل ٢١٩٦ .
(٣) الامثال العامية ص ٣٧٣ — رقم المثل ٢١٩٧ .
(٤) الامثال العامية ص ١٦١ رقم المثل ٩٥٠ .
(٥) أخبار جحا عبد الستار فراج ص ١١٩ .
(٦) الرواية الشفوية ولم أعثر عليه مدونا .
(٧) الامثال العامية ص ١٦١ رقم ٩٥١ .
(٨) المصدر السابق ص ٣٧٣ رقم المثل ٢١٩٩ .

* قالوا يا جحا مرت ابوك بتحبك ، قال هي اتجننت ؟ (١) .
* زي بوابة جحا ، وسْع على قلة فايدة (٢) .
* قالوا يا جحا الحداية ترمي لحمه ، قال : بس هي تبطل خطف (٣) .

* ان كان هذا هو القط فأين اللحم ، وان كان هذا هو اللحم فأين القط (٤) .

ولو استرسلنا مع بقية الامثال لما خرجنا بغير ذلك الطابع الساخر والاسلوب اللاذع للامثال الجحوية .

خامسا : ولو اعدنا النظر في الامثال السابقة لوجدنا الخصيصة الخامسة وهي كونها ممعنة في الواقعية . حيث يبدو لنا جحا ، في امثاله هو فيلسوف الواقع التجريبي الذي يقدر الامور على اساس من هذا الواقع ، ومن اقرب الزوايا يتناوله ، برغم كل ملابسات الواقع ومرارته ، دون ان يتنكر له ... وانطلاقا من هذا الواقع الصريح نفسه نرى كذلك بساطة وصدقا في عرض هذا الواقع ، فهو يعرض حقائق مالوفة للناس ، في بساطة وصدق وعفوية . ويمكن القول ايضا بأن الامثال الجحوية تتناول من حيث الشكل ــ هذا الواقع بروح السخرية والتهكم من مواقف بعينها ، ولكنها كذلك تدعو ــ من حيث المضمون ــ الى التأمل واعادة النظر في هذا الواقع بغية رفضه أو مواجهته أو تغييره .

وبهذا نرى ان الامثال الجحوية ، من حيث الشكل والمضمون تعبير عن واقع الرؤية الجحوية ــ وبخاصة الاجتماعية ــ كما رأيناها في نوادره وحكاياته الشعبية من قبل .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٤ رقم المثل ٢٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٩ رقم المثل ١٣٨٦ .

(٣) الرواية الشفوية .

(٤) أخبار جحا ، عبد الستار فراج ص ١٢٧ .

ومن خلال هذه النماذج من الامثال الجحوية ، تتبين لنا السمات الخاصة أو المميزة لها ، لكن ليس معنى هذا انها خصائص جامعة مانعة ، بل ان أغلب الامثال التي أفرزتها البيئة المصرية تنطبق عليها هذه الخصائص ، دون أن تكون منسوبة لجحا (وان كان ذلك لا يمنع نسبتها الى جحا) ولهذا يمكن ان نقول ان هذه الحقيقة تقودنا الى **سمة فرعية أخرى** هي اننا لو نسبناها الى النموذج الجحوي ما لاحظنا أدنى مغايرة ، بل ربما كان ذلك أدعى الى صدقها ، وشعبيتها على النحو الجحوي المعروف ولو شئنا أن نستشهد لذلك أخذنا على سبيل المثال لا الحصر بعض النماذج التالية وخصوصا تلك التي تتسم بطابع الحوار والسخر معا .. وقد أخذنا هذه النماذج من ذلك الكتاب القيم للعلامة أحمد تيمور **الامثال العامية** دون أن يشير الى جحا او غيره في أصول هذه الامثال ... : —

* قالوا : ايش قلتم في جدع لا عشق ولا اتعشق ، قالوا : يعيش حمار ويموت حمار (١) .

* قالوا ياللي أبوك مات من الجوع ، قال هو شاف شيء ولا كلشي (٢) .

* حاجة ما تهمك وصي عليها جوز أمك (٣) .

* حمارتك العارجة تغنيك عن سؤال اللئيم (٤) .

* ما قدرتش على الحمار اتشطر على البردعة (٥) .

* قالوا للمخوزق استحي . قال اللي راجع الدنيا يبكي عليها (٦) .

---

(١) ص ١٢٠ رقم المثل ٧١٩ .
(٢) ص ٣٧٤ رقم المثل ٢٢٠٥ .
(٣) ص ١٧٣ رقم المثل ١٠١٠ .
(٤) ص ١٧٨ رقم المثل ١٠٩٣ ، وقد رأيناه بالفعل منسوبا الى جحا في نوادره .
(٥) ص ٣٤٩ رقم المثل ٢٦٣٣ ، وقد رأيناه بالفعل منسوبا الى جحا في بعض نوادره .
(٦) ص ٣٧٢ — رقم المثل : ٢١٩٠ .

* قال : يا ربي دخلنا بيت الظالمين ، وطلعنا سالمين ، قال وايش دخلك وايش طلعك (١) .

فهذه الامثال واشباهها ـ يمكن ـ ببساطة ـ أن تنسب لجحا .. بل سمعتها منسوبة بالفعل الى جحا ، أو مسبوقة بقولهم : « على راي جحا » ... وهذا ما حدث بالفعل من خلال تداولها في الحياة اليومية عبر الاجيال المختلفة . وتقودنا ـ أيضا ـ هذه الحقيقة بدورها الى **سمة فرعية ثالثة** هي ان هناك كثيرا من الامثال الشائعة ـ المكتوبة والشفاهية ـ تذكر دون نسبتها الى جحا ، بينما هي في الاساس مرتبطة في المنشأ والاصل بحكاية من الحكايات الجحوية الشعبية ، وقد ذكر بعضها العلامة احمد تيمور في كتابه (الامثال العامية) وأشار في شروحه وتعليقاته عليها الى أصولها الجحوية وقد سمعت او قرات الكثير منها وهذه نماذج لهـا ... : ـ

* قالوا للقاضي يا سيدنا الحيطة بال عليها كلب ، قال تنهدم سبع وتبنى سبع ، قالوا دى اللي بينا وبينك ، قال اقل الماء يطهرها (٢) .

* أبوك خلف لك ايه ، قال جدي ومات (٣) .

* لولاك يا كمي ما كلت يا فمي (٤) .

* بركة يا جامع اللي جت منك ما جت مني (٥) .

---

(١) ص ٣٦٦ رقم المثل ٢١٥٩ .

(٢) الامثال العامة احمد تيمور ص ٢٧٢ رقم المثل ٢١٨٧ وقد نسبت لجحا في القضاء .

(٣) المصدر السابق ص ٧ رقم المثل ٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٢٩ رقم المثل ٢٥٦٨ .

(٥) المصدر السابق ص ١٢٩ رقم المثل ٧٧٥ . وقد قالها حين توفيت زوجته وكان عازما على طلاقتها .

* من فاته اللحم فعليه بالمرق (١) .
* حد يقدر يقول البغل في الابريق (٢) .

فيروى فى تفسير المثل الاول من هذه المجموعة قصة طريفة لا بأس من أن نوردها باختصار هنا : ذلك أن احد الطفيليين قد شارك جحا طعامه ، فأراد جحا ان يصرفه بالحديث عن الطعام ، فسأله عن تلك الثروة التي ورثها من ابيه ، وانطلت الخدعة على الطفيلي فراح يبالغ في الحديث عن تلك الثروة المزعومة ، بينما جحا منصرف تماما الى الطعام ، حتى ادرك الطفيلي في النهاية هذه الخدعة ، فأراد أن يثأر ويخدع جحا ، فسأله عما خلفه له أبوه ، ولكن جحا كان أكثر ذكاء ، فعرف كيف يحسن التخلص من هذا السؤال الموجه اليه بقوله : جدى ومات . ثم انهمك في الطعام .. وهكذا نرى أن جحا أنهى القصة حتى قبل أن يبدأها ، وتروى هذه النادرة بطريقة اخرى حينما يقع جحا ضحية أحد الفقهاء الطامعين اذا يسأله عن قصة سيدنا يوسف ابتغاء الهائه عن الطعام ولكن جحا يفوت الفرصة باختصاره القصة في كلمتين : ـ عيل تاه وأبوه لقـاه .

كما تنسب الثانية لجحا باعتباره طفيليا هذه المرة .

وكذلك في سائر امثال هذه المجموعة ... ومن الطريف كذلك ان نذكر قصة المثل الاخير من هذه المجموعة :

قال الشيطان لجحا : اني ساعمل على جنونك ، فقال جحا : انك لا تستطيع . وبعد أيام وجد جحا بغلا كبيرا يدخل ابريقـا صغيرا بجانبه ، فخرج من منزله ، وهو يصيح كالمجنون (البغل في الابريق ، البغل في الابريق) ، تعالوا يا جيراني وانظروا البغل في الابريق ، فأتى جيرانه على صياحه ، وقالوا له : كيف يعقل ان

---

(١) الرواية الشفوية .

(٢) الامثال العامية ص ١٧٧ رقم المثل ١٠٣٢ .

يدخل البغل في الابريق .. ؟ فقال لهم جحا : اني قد رأيته بعيني ، تعالوا وانظروا ، وقادهم الى حيث يوجد الابريق فلم يجدوا فيه البغل ، فدهش جحا ، ودهش الجيران ، فلما خرجوا ، رأى جحا البغل يدخل الابريق ثانية ، فخرج يصيح كالمجنون البغـل في الابريق ، تعالوا يا جيراني وانظروا البغل في الابريق ، فأتى الجيران وقادهم جحا الى حيث يوجد الابريق ، فلم يجدوا فيه البغل ، فاتهموه بالجنون ، وحملوه على أكتافهم وذهبوا به الى مستشفى المجانين ، وهو يصيح : البغل في الابريق ، البغل في الابريق ، وقد مكث في المستشفى مدة ، ثم خرج منها ، فلما رجع الى منزله ، وجد البغل يدخل الابريق ... فضحك جحا وقال : لعنك الله أيها الشيطان ، اني أراك بعيني تدخل الابريق ، وأنا عاقل ، ولست مجنونا ، ولكن من يستطيع أن يقول البغل في الابريق (١) .

وما دمنا بصدد الاستشهاد من كتاب الامثال العامية لاحمد تيمور ، فهناك ثلاثة أمثال ذكرها في كتابه ، ونسبها في تفسير المثل واصل قصته الى جحا المضحك المعروف على حد تعبيره وهي .. :ـ

* « الخناقة على اللحاف » (٢) وقد مرت بنا هذه النادرة من قبل .

* « يكفاه نعيرها » ، ويضرب لمن ينال شهرة كاذبة ليس تحتها طائل وسببه على ما يرونه : أن جحا المضحك المعروف صنع دولابا لرفع الماء ويسمونه بالساقية ، غير انه جعله يرفع الماء من النهر ثم يصبه فيه ، ودعا الناس لرؤيته مفتخرا به ، فلما رأوه قال بعضهم هذه الكلمة ، فذهبت مثلا ، أى حسبه من الفخر نعير ساقيته (١) .

---

(١) نوادر جحا ، مجموعة حسن حسني ص ٢٨ .

(٢) الامثال العامية ص ٢٠٣ رقم المثل ١١٨٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٢٧ ، رقم المثل ٢٥٥٤ .

* لو كان دى الطهى على دى النهى لا رمضان خالص والا العيد جى (١) .

وهناك بعض الامثال الجحوية المشهورة التي سمعتها شفاهيا ولكني لم عثر عليها مدونة في كتب الامثال : ومنها ذلك المثل الاشهر .. : ــ « ودنك منين يا جحا » فهذا المثل على الرغم من ذيوعه وشهرته لم يحظ بتدوين .. وهو فيما يبدو منسوب الى التحامق الجحوي المعروف ... وكذلك « بيت جحا » وما يقاس عليه مثل « شنطة » أو جراب جحا ، دكانة جحا ، سيارة جحا .. الخ وغير ذلك مما يشير الى ان ثمة شيئا غير طبيعي في الامر عما الفه الناس ...

* وكذلك : قالوا لجحا الحداية (الحداة) بترمي لحمة ، قال بس هي تبطل خطف . وكذلك : مسمار جحا ، وجحا أولى بلحم طوره ، وغيرها كثير ..

وثمة ملاحظتان بهذا الخصوص .. : ــ

الاولى .. : ــ ان بعض الامثال الجحوية بعد أن تنفصل عن قصتها أو النادرة المأخوذة منها قد تحمل مضمونا اخر غير المضمون الاصلي الذي ورد بالنادرة ... مثل نادرة : أبوك خلف لك ايه ، قال : جدي ومات . الذي يضرب في أن الذي يصيب من الا القليل كالذي لم يصب شيئا ... لكنه في النادرة التي اخذ منها معنى اخر يدل على ذكاء جحا وحسن تصرفه ، وتلخيصه البليغ لموقف بصدده ...

الثانيــة ... : ــ أن بعض الامثال ــ وهي عادة مجهــولة النشأة ــ ونتيجة لانفصالها عن القصة الاصل الذي قيلت فيه وبعدها الزماني او المكاني ــ قد ساعد علــى أن يختلق المحدثــون

---

(١) الامثال العامية ص ٣٠٣ ، رقم المثل ١١٨٢ .

قصصا من عندهم في تفسيرها او وضع قصص خاصة بهذه الامثال تساير المواقف التي يعالجونها كما حدث في تفسير كثير من الامثال الجحوية او اعطائها مضامين جديدة كما في النوادر التي تضمنتها قصة « آلام جحا » لمحمد فريد أبي حديد ومسرحية « مسمار جحا» لعلي احمد باكثير ومجموعة قصص جحا لكامل كيلاني .. وغيرهم .. واذا ما وضعنا الامثال الجحوية في اطارها التعليمي (الثقافي والاجتماعي والنفسي والاخلاقي والسياسي) في محاولة لتفسير فلسفة المثل الجحوي لوجدنا النموذج الجحوي في أمثاله ــ وهو لا يخرج عنه في حكاياته ونوادره ، وقد استنطقه الناس بما يوافق واقعهم ومزاجهم ــ وجدناه وقد استطاع ان يعكس بعض الابعاد الخاصة بالشخصية العربية بعامة حتى ليبدو لنا جحا في امثاله هو فيلسوف الواقع الذي يقدر الامور على اساس من هذا الواقع ، سلبا وايجابا ، وهو هنا ــ كما في نوادره حريص على تجسيد هذ االواقع ، امين في تصويره ، صادق في التعبير عنه ، وان كان ثمة احتراز نشير اليه هنا مرة ثانية ، وهو أن فلسفة المثل الجحوي لا تختلف في شكلها ومضمونها عن فلسفة المثل الشعبي بعامة ، ما دامت البيئة التي أفرزتهما معا واحدة ، وهي انها فلسفة موقف معين يجابه انسانا للحظة او مناسبة معينة ، ولا نعني بالفلسفة هنا معناها التقليدي او مدلولها الاكاديمي بطبيعة الحال .. فالفلسفة الجحوية عامة وفلسفة المثل الجحوي خاصة لا تتناول قضايا كلية او مباحث في الوجود . ووسائل المعرفة .. الخ كما أنها لا تسعى الى تكوين نظرية او مذهب بعينه ولا تبحث عن منهج للتفكير او المعرفة ... الخ . بل تقترب ــ اي فلسفة المثل الجحوي من أن تكون محاولة لتشكيل رؤية معينة للحياة ... واختصار لموقف او سلوك معين من خلال الحكم عليه فهي فلسفة موقف محدد ، وقضية حياتية بسيطة محددة . وحيال هذا الموقف تنتظرنا رؤية خاصة او تفسير سلوكي عملي تجريبي . وان هذا الموقف ايضا مرتبط بواقع الحركة الاجتماعية ــ بكل ما تتفاعل

او تضج به من تناقضات فكرية او اجتماعية واخلاقية بحيث اننا لا نقع ولا نوقع النموذج الجحوي معنا في تناقض الامثال الشعبية في التفسيرات الاجتماعية للموقف ، لا سيما اذا عرفنا سر استحواذ الامثال على مثل هذه الشعبية ، وسبب استخدامها جميعا للامثال المختلفة في مناسبات خاصة مختلفة ، « وسبب هذا يرجع فيما نراه الى طبيعة حياتنا التي نعيشها ، فاذا نحن تأملنا الحياة بوصفها صنوفا شتى من المدركات والاحوال المعيشية ، فاننا نلاحظ ان هذه المدركات والاحوال تنتهي الى ما نسميه بالتجربة . وعلى الرغم من ان هذه التجارب يتكرر حدوثها كل يوم فانها تظل وحدات متنوعة ، وتظل كل تجربة تدرك في كل مرة في حد ذاتها ، كما أن قيمتها تعيش فيها وحدها ، فاذا حاولنا أن نخضع هذه التجارب لاحكام عامة ثابتة ، فاننا لا نستطيع ان نفعل ذلك . ذلك أن تجاربنا في الحياة قد تتفق في نتائجها ، وقد يتناقض بعض هذه النتائج مع بعضها الاخر تماما ، وقد تعبر هذه التجارب عن النظام الكامل فيحياتنا ، وقد تعبر عن أحوال عالمنا الذي تسير فيه الامور على غير هدى ، فمثل : « ابن الوز عوام » ، يعبر عن مدرك من مدركات الحياة ، يصح أن يصبح قاعدة . ولكننا نفاجأ بمثلاخر يناقضه تماما وهو : ـ « باب النجار مخلع » فاذا بالمثلين يقف كل منهما على حدة ليعبر عن تجربة مفردة (١) . ـ ولا ـ يعني هذا أن ثمة تناقضا صارخا بين الامثال الجحوية كسائر الامثال الشعبية . . ـ فالتجربة الذاتية هنا هي اذن التي تدعو الى خلق المثل ، وكذلك أيضا تكرار التجربة ـ أو ما يشبهها ـ يدعو لترديد المثل ، وبعبارة اخرى يمكن ان نقول أن كل تجربة يتبعها مثل ـ يردده الناس ـ تصور في النهاية مدركا من مدارك الحياة تعكس بدورها بعدا من ابعاد الشخصية التي أفرزت هذا المثل ، ومن ثم ، فهي تصور جزءا من فلسفته الشعبية ورؤيته للحياة ونظرته للمواقف المختلفة

---

(١) د. نبيلة ابراهيم ـ اشكال التعبير في الادب الشعبي ـ دار نهضة مصر ، القاهرة ، ص ١٤٢ .

تبعا لنمط الحياة والظروف الاجتماعية والثقافية التي يمر بها المجتمع ، ودخول مكونات ثقافية جديدة بطريق غير مباشرة مما يثير احتكاكا أو يولد صراعا غامضا بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون .. ودون ما خوض في تبيين الحاجة التي تدعـو الى المثل وتفسير تناقضاته ، وقدرته في التعبير عن الواقع والتجربة الحياتية لقوم بعينهم ... فاننا نتساءل : ما هي المواقف أو الابعاد التي صورها النموذج الجحوي ، وعكست لنا بهذا فلسفته ورؤيته العملية للحياة والاحيـاء ؟

أ) ـ **وضوح الموقف الفردي .. : ـ**

وتقديم المصلحة الخاصة اساسا (وقد تعبر عن انانية فرديـة كذلك) ..

* قالوا متى تقوم القيامة يا جحا ؟ قال : لما اموت انا .

* جحا اولى بلحم طوره .

* كون (كن) في أول السوق يا جحا ولو بقص اللحى (١) .

* قالوا للقاضي (جحا) يا سيدنا الحيطة بال عليها الكلب قال تنهدم سبع وتبنى سبع ، قالوا دى اللي بينا وبينك ، قال أقل الماء يطهرها .

ب) **مواقف التبعية او التوافق الاجتماعي** ـ على حسـاب الذات ، وهي بهـذا أقرب الى مواقف النفـاق او الخضـوع او الولاء .. : ـ

* قالوا : فين بلدك يا جحا .
قال : اللي فيها مراتي .

* حد يقول البغل في الابريق ... ؟؟؟

---

(١) الامثال العامية للعلامة أحمد تيمور ص ٤١٣ رقم المثل ٢٤٦٥ .

* من فاته اللحم فعليه بالمرق .

جـ) مواقف الحرص والحذر والشك وعدم الثقة بالاخرين :ـ

* جحا طلع لنخلة خذ بلغته وياه ، اي اخذ نعاله معه .

د) مواقف العداء التقليدية بين زوجة الاب وأبناء زوجها ـ كقضية اجتماعية تقليدية . . :ـ

* قالوا مرات أبوك بتحبك يا جحا ، قال : يمكن اتجننت .

هـ) التهكم والسخرية من التخبط والحماقة والادعاء الكاذب . . :ـ

* الحكاية على اللحاف ، وانتهى الخلاف .

* زي بوابة جحا ، وسع على قلة فايدة .

* يكفاه نعيرها .

* جحا أكبر واللا ابنه .

* ودنك منين يا جحا .

* قال ياللي أبوك مات من الجوع ، قال هو شاف شيء ولاكلش .

* قالوا يا جحا فين مراتك ، قال بتطحن بالكرا ، قالوا : وطحينك ؟ قال : كريت عليه . قالوا كنت خلي مراتك تطحنه .

و) مواقف اللامبالاة والسلبية . . :ـ

وعدم الاهتمام بالغير ، وفيها تجسيد للحقد وروح الشماتة احيانا . . :ـ

* قالوا يا جحا كلبك بالسخونة (اي مصاب بالحمى) قال : أهو فاضي لها .

* قالوا : يا جحا بقرة أبوك خدوها الحرامية . قال : والله هي عند الحرامية زي عند أبويا .

ولعله من المستحب ان نقف قليلا عند المثل الاخير .. : ــ فلربما قيل هذا المثل تحت وطـأة ظروف اجتماعيـة وسياسية قاهرة ، ولعلك ترى معي أن الحماس الشخصي والقومي ــ يفقدان معناهما ــ ما دامت النتيجة مستوية في النهاية وبخاصة في عهـود الاقطاع المزمنة بكل ملامحها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. فعلام ــ اذن ــ يحمل عصاه ، مدافعا عن حقه ، وحق « ولى الامر » ؟ طالما لم يعد هناك ما يستفزه لحمل عصاه ، واستخلاص بقرة ابيه ، من ايدي اللصوص .. مالفائدة وقد كان جحا لا يذوق شيئا من لبن البقرة وهي عند والده ، فهل من المعقول أن يكون له فيه نصيب وهي عند اللصوص .. ؟ ، واذن فوجدوها عند الحرامية وعند والده أو « ولي الامر » سواء ، وهكذا نرى ان جحا النموذج هنا قد التزم بواقعه ، وبكل ظروف وملابسات هذا الواقع مرارته .

ز) **مواقف المكر والدهاء ... (فالغاية تبرر الوسيلة)** .. :ــ

* مســمار جحــا .

ولعله من الاستطراد المفيد ان نقف عند هذا المثل ايضا ، لا لانه كسابقه ، بل لانه أكثر الامثال الجحوية شيوعا في البلاد العربية وبلاد الشرق ــ تركيا وايران ــ مع الاختلاف الذي تقتضيه البيئة فهو في سوريا واغلب البلاد العربية وتركيا وايران .. « **خازوق جحا** » وفي الكويت « **وتد جحا** » وهكذا يعطينا جحا في امثاله صورة قد تكون قاتمة ــ ولكنها انعكاس حقيقي لقيم ومثل سلبية ومعايير مهزوزة ... لكنه ــ لا يتنكر لها ولا يزيفها بل يجسدها ويبرزها صارخة حادة في أمثاله كما في نوادره ــ لتعيش طويلا صورة حية في وجدان هذا الشعب ... في اطار لاذع من السخر المليء بالحكمة في النهــاية .

واذا كانت ظروف المجتمع هي التي تعمل دائما على تحديد ملامح شخصية بعينها أو نموذج منتخب ، وتسمح لها بالتغلغل في وجدانها ، تبعا لاحتياجاته النفسية الابداعية ، والتعبيرية ومع استمرار وجود هذه الشخصية ـ في مراحل زمنية متتابعة ـ معينا خصبا لتفسير مواقفه الحياتية وتجاربه وسلوكه .. لم يكن عجبا ان يتواجد النموذج الجحوي جامعا في أمثاله بين عنصرين محوريين رئيسيين وجدناهما في نوادره كذلك هما الذكاء والغباء ..

ولهذا سيبقى المثال الجحوي ـ او المثل الجحوي رمزا لفكرة ناقدة ساخرة عالمية وانسانية قبل أن تكون قومية اساسا ، اتخذت من الذكاء والحمق معا عنصرين محوريين كتبا للمثال الجحوي خلودا في وجدان الشعب العربي بأسره ، وقد ظهر جحا « حكيما » في أمثاله . وفيلسوف الموقف ، بعيد النظر . المجرب ، الذي يلخص لنا تجاريب الحياة تلخيصا مركزا في أسلوب ساخر ... ومع أن المثل الجحوي قد اختفى في طياته ـ كما اخفت نوادره من قبل ـ اعماقا حزينة ... وبرغم دروب اليأس التي عاشت فيها الشخصية الجحوية .. أو بالاحرى الشخصية العربية عموما ... وبرغم المتاهات الموحشة التي عشناها مع جحا وامثاله الشعبيين نراه ـ وبالاصالة ـ لا يقف جامدا في نظرته الى حركة الحياة العامة وحركة التاريخ الصاعدة ، وحتمية التطور عند أبواب موصدة ، وانما تراه ـ بالرغم من ذلك كله ـ متفائلا بالغد .. وبالمستقبل ، فالوجدان ، وجدان الشعوب لا يوصد أبواب الامل أبدا ... وحركة الحياة لن تتوقف ... والحازم من استفاد من عبر الماضي سعيا لحاضر افضل ، وأملا في مستقبل احسن ، غير نادم على ما فات .. : ـ

* قالوا يا جحا عد موج البحر
قال الجيات اكثر من الرايحات .

وربما كانت الامثال الجحوية قليلة بالنسبة لهذا التراث الكبير من نوادره لكنها تلمس اكثر الجوانب حساسية في الشخصية العربية .. .كما انها تحوى اغلب تجاربها الشعورية في حياتها اليومية ...

وبهذا كله ـ بالنادرة وبالمثل ـ اسس النموذج الجحوي في فلسفته الشعبية بناء شامخا ، تضج وتتفاعل في أعماقه التناقضات الثقافية والفكرية والاجتماعية عبر ملامح التاريخ الجمعي للامة العربية ، وهي التي مدته دون شك بتفاعلها الخلاق بأسباب الحياة وضمنت للنموذج الجحوي الخلود في وجدانها معلما من معالم تراثه الشعبي الني لا تنسى ... في رحاب لون أو لونين من ألوان الابداع الشعبي العربي هما النادرة أو الحكاية الشعبية المرحة ... والمثل الشعبي .

وقد استخدمت منهما معا ـ كغيرهما من الوان الابداع الشعبي ـ وسيلة لاستحداث التوازن النفسي بين الواقع والامل ، بين الارادة والرغبة وبين ما هو كائن ،وما ينبغي أن يكون ..

* * *

٢ ـ جحا واللغز الشعبي

هناك بعض النوادر أو الحكايات الجحوية تتخذ ـ احيانا ـ طابع اللغز الشعبي ، من حيث كونها أسئلة تطرح بين سائل ومسئول .. واذا كان اللغز في صورته الاولى يعني الصراع من أجل ازالة الحواجز في سبيل الوصول الى المعرفة (١) فان النوادر أو الالغاز الجحوية لا تسعى الى ذلك .. بل تسعى الى ازالة حواجز من نوع اخر **هي حواجز الغباء والغفلة نفسها من العقل الانساني** ... واللغز الجحوي بسيط غاية البساطة ، يعتمد أساسا

(١) د. نبيلة ابراهيم : اشكال التعبير في الادب الشعبي ص ١٧١ .

على المغالطة أو الاجابة غير المتوقعة دائما بقصد خلق جو من السخرية والمرح ، فهي لا تسعى لتقديم معرفة بالمعنى الدقيق . . **بل تستخدم فقط في الكشف عن غباء الانسان العادي الذي تمثل هنا في السائل لا المسئول** . . . على عكس ما تعودنا في الالغاز الشعبية ، والسائل هنا يلقي سؤاله الذي يبدو وكأنه معضلة ، فاذا بالاجابة الجحوية على هذا اللغز اجابة أكثر تعقيدا من السؤال نفسه ولا يملك السائل حينئذ الا الرضوخ . وقد تتمثل في حسن الاجابة ذاتها أو طرافة المخرج نفسه ، وهي في كل هذا لا تقدم معلومة معينة ، بل الامر في النهاية لا يعدو حسن تخلص وبراعة مخرج من السؤال أو اللغز الملقى على جحا . . . وجحا وهو هنا المسئول دائما ـ يبقى في الغازه ذكيا غاية الذكاء . . . ولهذا لم يكن من قبيل الصدفة ان تكون أكثر الغازه مع العلماء ـ **انهـا ببساطـة الغـاز جحوية لا تطرح الا مع المتحذلقين والمتعالمين ومدعي المعرفة في كل** شيء والمتنطعين الذين يرون في الثقافة ترفا لا علاقة بالواقع . . . وما أكثر هؤلاء جميعا ! ان اللغز الجحوي هنا ـ ان صح التعبير لغز متمايز ، وان كان يرتبط باللغز بعامة فانه يثير الفكر ويكشف الغباوة الرانية على العقول . . .وهذه أمثلة لذلك كله . . . : ـ

* خرج ثلاثة من الرهبان يطوفون بالبلاد ، يباحثون العلماء ، ويغلبونهم حتى وصلوا الى بلد جحا ، وسألوا هل من عالم في هذا البلد ؟ قالوا : نعم ، وأحضروا لهم جحا راكبا حماره فسأله الراهب الاول : أين وسط الارض ؟ فأجابه جحا : الموضع الذي وضع فيه حماري يده اليمنى تماما ، وان لم تصدقني فعليك بكيل الارض (أو قياسها) ، فتحير الرجل ثم سأله الراهب الثاني : كم عدد النجوم ؟ فأجابه جحا : عدد شعر حماري ، وان لم تصدقني فعد النجوم ، وعد شعر حماري . قال السائل : وهل يعد شعر الحمار ؟ فقال جحا : أو تعد نجوم السماء ؟ فسأله الراهب الثالث : كم عدد الشعر في لحيتي . . ؟ فأجابه جحا بدون تردد : ان عدد الشعر الذي في لحيتك يساوي عدد الشعر الذي في ذيل حماري ، فان لم تصدقني فاقلع شعرة من لحيتك ، وشعرة من

ذيل الحمار فان اتفق المجموعان كان الحق بيدي والا فالحق بيدك ، فضحك الرهبان من هذه الاجوبة اللطيفة السريعة وفتنوا برقة جحا (١) .

* عندما كان تيمور لنك في مدينة آق شهر جاءه احد العلماء وعرض على تيمور أن لديه بعض الاسئلة سيلقيها عن طريق الاشارة ويريد أن يختبر بها علماء هذه المدينة ، فجمع تيمور لنك سادة المدينة وطلب منهم أن يختاروا من يناظره ، فاتفقوا على أن يستشيروا جحا ، ودعوه واخبروه بالامر فقال لهم : اتركوا المسألة لي ، فقالوا : وماذا تنوى أن تعمل ..؟ فقال : سأباحث العالم ، فان أجبته بجواب سديد وغلبته كان حسنا ، واذا لم أوفق فقولوا ان هذا الرجل مخبول لا نعده عالما ، ثم تأتون بغيري ، وفي يوم معين اجتمعوا واقبل جحا وجلس على يمين تيمورلنك فقام العالم ورسم دائرة ، وانتظر الجواب ناظرا الى عيني جحا ، فقام جحا ووضع عصاه في نصف الدائرة تماما وشطرها شطرين ، ونظر الى العالم ، ثم خط خطا اخر فقسم الدائرة الى اربعة اقسام ، ثم اشار بواحدة منها الى جهة ، وبثلاثة الى اخرى ، فنظر الى العالم محبذا معجبا ثم فتح العالم يديه وأشار بها الى أعلى ، فعمل جحا عكس ذلك وفتح أصابعه وحركها واشار بها الى جهة الارض . ثم ان العالم وضع أصابعه على الارض وصار يمشي مقلدا مشي الحيوانات. واشار الى بطنه كأنه يخرج منه شيئا ، فأخرج جحا من جيبه بيضة وجعل يحرك يديه كأنه يطير . فأعجب العالم بجحا وتقدم اليه وقبل

---

(١) في جريدة الاخبار الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٣/٢٥ ، وجدت نادرة مشابهة لها تحت عنوان (هاول جلاس : جحا الالماني) الذي يذكر فيه كاتبه انه كان يعيش في العصور الوسطى ومما ذكر من نوادر منسوبة اليه نادرة شبيهة بالنادرة السابقة اذ أعلن انه مستعد للاجابة على اي سؤال يوجه اليه فكان منها ما مقدار مياه البحر فقال لسائله ابطل حركة الامواج وانا أقيس لك مقدار المياه . والسؤال الثاني : اين مركز الارض فأجاب هنا في هذا المكان ، وان اردت ان تتحقق فتول القياس بخيط طويل .. الخ .

يده ، وهنأ تيمورلنك وسادة البلد بهذا العلامة النادر المثـال .
وبعد انصراف القوم قال بعض الناس للعالم : نحن لم نفهم الاشارات التي تبادلتها انت وجحا ، فأفهمنا ما كان ، فقال العالم : لقد اشرت بالدائرة الى أن الارض كروية ، فصدق جحا كلامي ورسم خطا يشير الى انها نصف شمالي ونصف جنوبي ثم قسمها الى اربعة أقسام واشار الى قسم بأنه يقابل اليابس والى ثلاثة اقسام تقابل الماء ــ واشرت بيدي من أسفل الى أعلى للدلالة على أن الارض يصعد منها نبات والاشجار فأشار بيده الى أسفل ليدل على ان نزول الامطار وحرارة الشمس تساعد علـى ايجاد الحيـاة في الارض ، وأشرت اليه بما يدل على أن تكاثر المخلوقات من بعضها يكون بالتناسل فأخرج بيضة من جيبه ليشير الى أن هذا حق ، وهذه البيضة يخرج منها صنف الطير من المخلوقات فأعجبوا بهذه التفسيرات وودعوا العالم بالتبجيل . ثم توجهوا الى جحا وسألوه عن هذه الاشارات التي جرت بينه وبين العالم فقال : هذا الرجل جائع ، وقد أضعتم وقتي معه عبثا ، فقد أشار الى أن معه رغيفا مستديرا فأشرت اليه أن يقسمه بيني وبينه ، فلما لم يفهم أشرت اليه أن يقسمه اربعة اقسام يأخذ قسما ويعطيني ثلاثة أقسام فهز رأسه علامة على الرضا ، ثم اشار بيده الى قدر مرفوع على النار به أرز ، فأشرت اليه بأنه يحتاج أن يضع فيه فستقا وزبيبا ، ثـم مشى على أصابعه مشيرا الى جوعه الشديد متحسرا على طعام لذيذ ، فأشرت اليه أنني ايضا جائع اكثر منك واني قمت صباحا لاتناول طعام الافطار فلم أجد سوى بيضة واحدة أعطتني اياها امرأتي ، ولم اجد وقتا لتناولها عندما بعثته الي تطلبون حضوري فوضعتها في جيبي احتياطا . فضحكوا منه وتعجبوا من اختلاف التفسيرات واتفاق الاشارات (١) .

---

(١) نوادر جحا الكبرى ــ ترجمة حكمت شريف بتصرف ص ١٨٨ رقم النادرة ٢٧٧ ، وقد آثرت ذكر النص التركي للنادرة المقارنة بينه وبين النص المصري لنرى مدى ما أصابها من حذف وتغيير واضافات بما يتفق وما اثر عنه مـن ميل للدعابة والسخر أساسا :

* كان جحا مارا ذات يوم بالقرب من أحد الاودية فاعترضه راع وسأله : هل أنت فقيه يا سيدي ، فقال جحا : نعم ، فقال الراعي : انظر الى هذا الوادي ، والى هؤلاء المطروحين فيه ، فانني قتلتهم جميعا لتظاهرهم بالعلم وعجزهم عن جواب لسؤال واحد سألتهم اياه ، فسأله جحا : ـ وما هو السؤال .. ؟ ، فقال : ان القمر حين يكون هلالا نراه صغيرا ثم يكبر حتى يصبح بدرا . ثم يعود فيصغر الى أن يغيب ويطلع غيره . فماذا يصنعون بالقمر القديم ..؟ فتنحنح جحا وقال : يا لهؤلاء الجهلة : الم يكن فيهم من يعرف ان الاقمار القديمة تخبأ للشتاء ثم يدقونها ويصيرونها رفيعة ويعملون منها البرق .. ؟ عند ذلك انحنى الراعي على يد جحا يقبلها وهو يقول .. : ـ احسنت والله ، هذا هو ما خطر ببالي واهدى جحا خروفا .

* جاء الى بلدة جحا عالم كبير وسأل أهل البلدة : من أعلم العلماء عندكم ..؟ فقالوا له : جحا : ودلوه عليه ، فلما جلس امامه قال له : عندى اربعون سؤالا فهل يمكنك أن تجيبني عنها كلها في جواب واحد ؟ فقال جحا : نعم هات اسئلتك . فسرد العالم اسئلته الاربعين . فقال له جحا : وهل تريد جوابا واحدا عنها ؟ . فقال العالم : نعم ، هذا شرطي الاساسي . فقال جحا : الامر سهل ؛ انا لا ادري بها كلها .

« اد تحكي النادرة المصرية ان العالم اشار أولا باصبعه فأشار جحا باصبعين ثم أشار العالم الى أعلى فأشار جحا الى أسفل وان العالم أخرج بيضة فأخرج جحا قطعة جبن ، فلما سئل العالم عن اشاراته قال : أشرت اليه باصبعي الى ان الله واحد ، فأشار باصبعين الى انه لا شريك له ، وأشرت الى أعلى وأقصد ان أقول خلق السموات ورفعها بغير عمد ، فأشار هو الى انه خلق الارض وأرساها . وأشرت بالبيضة الى انه يخرج الحي من الميت . فأشار بقطعة الجبن الى انه أيضا يخرج الميت من الحي . فلما سئل جحا عن معنى الاشارات قال : مد لي اصبعه ليقول : اخرق عينك فأشرت اليه باصبعين الى انني اخرق عينيه الاثنتين وأشار الي بأنه يستطيع ان يرفعني الى أعلى فأشرت اليه بأنني أستطيع ان أقذف به الى أسفل وأخرج بيضة ليغيظني فأخرجت له قطعة الجبن لاغيظه ، فضحكوا منه وتعجبوا من اختلاف التفسيرات واتفاق الاشارات .

٣ ــ جحا والنادرة الحكيمة

وهذه مجموعة أخرى من النوادر ، طغى عليها الجانب الجاد .. التأملي الذي يقترب بنا الى النزعات الصوفية تارة ، أو تتجه في نزوع وعظي مباشر ، وهذا النوع من الكلم الجامع لا يتوفر فيه ما أثر عن النموذج الجحوي من تندر ودعابة وسخر.. وتفكه.. وانما هي أقرب الى أسلوب « الحكمة الجادة » ان صح التعبير ، وقد جمعنا بعضا منها هنا يمكن أن يندرج تحت « النادرة الحكمية » .

وهذه أمثلة لها وللمواعظ التي أجراها الناس على لسان جحا ... : ــ

* سألوه يوما : ماذا تقول في القدرة الالهية ؟ فقال : منذ عرفت نفسي ، علمت أن ما قضاه الله واقع ، ولولا نفوذ القدرة الالهية لكان لي بعض ما اتمناه .

* قيل له : أين مكان الحق ؟ فقال : وهل هناك مكان يخلو من وجود الحق حتى يعين موقعه (١) .

* سألوه يوما : هل تعرف أحدا في البلد يحفظ الاسرار ..؟ فقال : حيث اني علمت ان صدور الخلق ليست مستودعا ، فلم أبح بسري لاحد حتى الان .

* قيل له : اذا طلب منك انسان شيئا فلماذا لا تعطيه اياه الا في اليوم التالي ؟ فقال : افعل ذلك حتى يعرف قدر ما اعطيه .

* قيل له : عد مجانين البلد فأجاب : ان المجانين غير محصورين فان أردتم أن أعد لكم العقلاء فانهم قليلون .

---

(١) اخبار جحا ص ٢١ وقد سمعتها بطريقة مختلفة اذ قال جحا لسائله : ــ الزمن القديم كان الحق في كل مكان ، أما في هذا الزمن فليس له مكان ، ولا يوجد في اي مكان .

ولهذه النوادر أشباه ونظائر كثيرة وقد مر الكثير منها ولكن هناك بعض النوادر تجمع الى جانب الحكمة او العظة بعضا من الخبرات العملية منها على سبيل المثال . . . : ـ

* سألوه عن الطب فقال : خلاصة الحكمة هي أن تدفىء رجليك وتعرض رأسك للهواء والشمس وتعنى بطعامك ولا تكثر منه ، ولا تفكر في همومك واحزانك .

* أصيبت ناقة احد الفلاحين بالجرب ، فأخذها الى جحا وقال له : اقرأ لي على هذه الناقة لتشفى ، فقال له جحا : اذا اردت أن تبرأ ناقتك من الجرب ، فأضف الى قراءتي شيئا من القطران .

* جاءته احدى جاراته وقالت له : انت تعلم ان ابنتي معتوهة ومتمردة فأرجو ان تقرأ لها سورة او تكتب لها حجابا ؛ فقال لها : ان قراءة رجل مسن لا تفيدها ، ولكن ابحثي لها عن شاب في سن الخامسة والعشرين او الثلاثين ليكون لها زوجا وشيخا معا . ومتى رزقت أولادا صارت عاقلة طائعة .

* سئل جحا ـ وكان جالسا في مجلس حاكم بلدته : هل صحيح يا جحا أن القناعة كنز لا يفنى .. ؟ قلت : أجل ، ولكنه كنز لا يطعم جائعا ، ولا يكسو عاريا ، وهو لا يوجد الا عند الذين لا يجدون .



خاتمة

تأثير النموذج الجحوي في الأدب العربي المعاصر

يعد الادب العربي الشعبي بنماذجه الانسانية والفنية وانماطه التعبيرية المختلفة رافدا ثرا متنوعا من روافد التجربة الادبية والفنية عند الكاتب المعاصر .. وليس من شك في ان النموذج الجحوي ، واحد من هذه النماذج الفنية (المحورية) المعروفة في آدابنا الشعبية ، بل من أكثرها ثراء وعطاء وقدرة على الاستلهام الفني بكافة أشكاله الفنية الحديثة بما في ذلك الكتابة للاذاعة السمعية والمرئية . والاعمال السينمائية الطويلة والقصيرة وبخاصة الافلام الكرتونية واشباهها ، وهذا ما فعله كثير من الادباء والكتاب المعاصرين في معظم بلدان العالم حين تخيروا « نموذجهم » الجحوي بطلا لبعض أعمالهم الفنية ، واستلهموه في معالجة كثير من القضايا الاجتماعية والسياسية والانسانية ، المعاصرة . بل لقد واتتهم الجرأة في ان يقولوا ما يشاءون على لسانه ما دامت نوادره الشائعة تؤكد ذلك ــ وهي نوادر لا يمكن لاحد أن يحاكمهم من أجلها ، فهي من تأليف الشعب كله في اطار من الفكاهة والسخر والحكمة ، بعيدا عن نبرة الوعظ والارشاد ، الد أعداء العمل الفني ــ بعامة .

ولسوف نكتفي ــ في هذه الخاتمة ــ بعرض مجمل لبعض هذه الاعمال ــ في الادب العربي وحده ــ من ابداع كتابنا المعاصرين ، في مجال الرواية والتأليف المسرحي وادب الطفل ، **ففي مجال التأليف الروائي** يأتي الاستاذ محمد فريد أبو حديد في مقدمة كتابنا الذين استلهموا النموذج الجحوي (بفلسفته المميزة ، واسلوبه الخاص في الحياة والتعبير) وعرف كيف يستفيد من هذا المأثور الجحوي في معالجة كثير من القضايا المعاصرة .. وذلك في قصته : جحا في أردبيل ، وجحا في جامبولاد ، وقد نشرا اول مرة في سلسلة اقرأ سنة ١٩٤٧ ، ثم أعيد نشرهما في كتاب واحد بعد ذلك سنة ١٩٦٣

بعنوان « آلام جحا » ومن الجدير بالذكر انني التقيت به ـ رحمه الله ـ قبيل وفاته ـ وتطرق حديثنا الى هذا الكتاب ـ وكان مما جاء فيه : ان جحا هو أنا ، هو ابو حديد نفسه بعدما تعرض لاضطهاد بعض الجهات قبيل الثورة ـ لم يشأ أن يسميها لي ـ تصور ! ، بعد هذا العمر الطويل من خدمة الثقافة والفكر والادب.. المهم لم اتمكن وقتها ـ في منتصف الاربعينات ـ من التعبير المباشر عن هذه الازمة .. لكنني على كل حال لن اعدم وسيلة من وسائل التعبير .. تعرف أن التهكم والسخر سلاحنا في الازمات .. تذكرت جحا ، تخيلته حيا يعيش بيننا يسبح في أرجاء هذا الوطن ، يتأمل وينقد ويحتج ويصرخ ويثور .. تداعت نوادره الى ذهني نبتت فكرة الكتاب .. جحا كان حكيما وفيلسوفا عظيما .. أليس غريبا الا يفسح له وطنه (ماهوش) مكانا فيه ؟ فاضطر للرحيل الى « جامبولاد » ثم الى « أردبيل » ... ولا ادرى اين سيرحل بعد ذلك . المهم أن يعود . وسكت ـ رحمه الله ـ برهة ، ثم قال : ترى هل مبررات الرحيل لا تزال قائمة ؟ لكنه عاد فبادرني فجأة بقوله . المهم الا ينسى وطنه مصر . فقلت : تقصد (ماهوش) ؟ فضحك كثيرا . ثم قال : بل مصر الملك ، مصر الاقطاع ، مصر الاحتلال ، مصر الطبقات ، مصر القضاء والعدالة والامن ، مصر الفكر والثقافة مصر الفن والادب ، مصر العلم والتعليم .. باختصار مصر التي نريدها نموذجا ومثالا .. اليس هذا موضوع الكتاب ؟ صحيح أن « ماهوش » أو « جامبولاد » أو « أردبيل » تنتمي جغرافيا الى تركيا ، لكنها تنتمي اجتماعيا وسياسيا وثقافيا ، ليس الى مصر وحدها بل الى الوطن العربي كله .

والحق ان القارىء العربي للرواية لن يخفى عليه شيء من هذا ابدا لسبب بسيط أن الرواية جاءت نقدا فنيا مريرا للحياة الاجتماعية والسياسية والادبية والفنية والفكرية في مصر والوطن العربي وذلك في اطار رائع ، عرف أبو حديد كيف يوظف ـ خلاله ـ

المئات من النوادر والحكايات الجحوية وان يجمع بينها في نسيج فني متلاحم ، ليبلور من خلاله رؤيته وآراءه ، على لسان النموذج الجحوي الذي كان يقطر سخرية والما .

ومن الطريف ان بعض المترددين عليه سألوه ـ في حينه ـ اين ماهوش ؟ جامبولاد ؟ اردبيل ؟ فكان يجيبهم ساخرا : اسألوا مدرس الجغرافيا .. لتقع في اي مكان من خريطة العالم ما دامت تؤدي دورها في التعبير عن مصر .. وهذا صحيح ، مهما توسل أبو حديد بالنموذج التركي .. او توارى وراء التاريخ التركي وبعض البلاد التركية ، « أو لم يكن جحا العربي ، في وجه من وجوهه رمزا تركيا ؟ » هكذا قال لي ، بل ان النوادر والحكايات التي توسل بها بعد « تتريكه » لها ـ تكشف عن وجهها العربي والمصري في غير لبس أو غموض .

ومما هو جدير بالذكر ان ابا حديد رحمه الله . لم يخف اعجابه الشديد بهذه الرواية ، ويراها أقرب الى نفسه من كل ما كتب ، وانه وضع فيها ـ على لسان جحا ـ عصارة فكره ، وخلاصة تجربته ، وآرائه في الحياة والاحياء .. واكد هذا مرارا وتكرارا حتى بعد حصوله على جائزة الدولة التقديرية (١٩٦٤) ، عن كتابه (الوعاء المرمري) ، فلقد سئل لو خيرت في انتقاء كتاب من كتبك الكثيرة لتنال عنه جائزة ، فأي كتاب تختار ؟ ويأتي الجواب هادئا سمحا ذكيا ـ كعادته ـ : لو سلمت معك بأنه من الممكن أن أختار كتابا من مجموعة كتبي .. فاني .. نزولا على رغبتكم ـ اخص بالذكر كتابا كان من اقل كتبي رواجا هو « آلام جحا » . (١)

ولولا التزامي بحجم هذه السلسلة لتناولت ـ في كثير من الرغبة والشوق ـ هذا الكتاب هنا تحليلا وتفصيلا ، وهو الذي تراه الدكتورة نعمات احمد فؤاد « من خير كتبه ان لم يكن خيرها

---

(١) من مقال للاستاذ جمال بدران بمجلة العربي ـ عدد فبراير سنة ١٩٦٥ الكويت .

جميعا » وذلك في دراستها الضافية عنه في كتابها « قمم أدبية » (١) ولعلني اشاركها الرأي في غير تردد على الاطلاق .

* * *

اما في مجال التأليف المسرحي ، فيأتي الاستاذ علي أحمد باكثير ، والاستاذ توفيق الحكيم في مقدمة كتابنا ـ المشهورين ـ الذين استلهموا المأثور الجحوي استلهاما دراميا .

فيكتب باكثير مسرحيته السياسية « مسمار جحا » كما يكتب الحكيم مسرحيته السياسية أيضا « مجلس العدل » (٢) والحق أن كثيرا غيرهم ـ من كتاب العالم العربي بعامة ، قد استلهم المأثور الجحوي ، على نحو من الانحاء ، بطريق مباشرة او غير مباشرة .. ويضيق المقام عن حصرهم (٣) .

ولسوف نكتفي هنا ، بالوقوف عند مسرحية « مسمار جحا » لباكثير (١٩٤٩) لسبب بسيط ، أنه من أوائل كتابنا الذين استوقفهم المأثور الجحوي ـ بطبيعته الدرامية الفطرية وحيوية قضاياه ـ على حد تعبيره لي ـ رحمه الله ـ وهو أمر مغر لكثير من الكتاب المحترفين والناشئين وبخاصة اذا كانت الظروف السياسية تقف حجر عثرة أمامهم ، هكذا قال لي ..

---

(١) قمم ادبية ـ الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ص ٣٠١ـ٣٢٢ ـ عالم الكتب ـ مصر، سنة ١٩٦٦ .

(٢) نشرت أول مرة في جريدة الاهرام العدد الصادر في ١٢ـ٦ـ٧٠ وانظر لنا دراسة مسهبة عن هذه المسرحية تحت عنوان « توفيق والابداع الشعبي العربي » في مجلة البيان ص ٦٨ ـ ٧٥ ـ العدد ١٤٥ ـ ابريل سنة ١٩٧٨ ـ الكويت .

(٣) من هذه الاعمال المسرحية وقت طبع هذا الكتاب مسرحية (بيت جحا) ، التي لا يزال عرضها مستمراً منذ ثلاث سنوات في المنصورة ، وهي من تأليف فتحي فضل ، وقد عرضت مؤخراً في القاهرة في يونيو سنة ١٩٧٨ .

واذا كان محمد فريد ابو حديد قد استلهم او بالاحرى توارى وراء النموذج الجحوي التركي والخلفية التركية اطارا ـ جغرافيا وتاريخيا ـ لوقائع الرواية واحداثها ، فان باكثيرا ، قد انتخب الرمز الجحوي العربي « أبا الغصن » بطلا لمسرحيته ، وجعل ـ من الكوفة ـ موطنه ـ اطارا جغرافيا وتاريخيا ، لوقائع وأحداث هذه المسرحية .. واستمد هيكلها البنائي من النادرة الجحوية الشهيرة بهذا الاسم نفسه « **مسمار جحا** » ، وقد مرت بنا من قبل .. ومغزى هذه المسرحية لا يختلف كثيرا عن مغزى النادرة نفسه ، عندما تتعلل ـ في الظاهر ـ بأبسط الاشياء واوهى الحجج لتحقيق أخطر الامور ، دون ان ينتبه **الطرف الضحية** الى فداحة هذه الاشياء (التنازلات) وما يمكن ان يترتب عليها .

واذا كانت النادرة الجحوية ، تعالج هذا الامر على المستوى البسيط (الاجتماعي) ، فان باكثيرا قد ارتفع بها الى المستوى الجمعي وهو أمر منطقي بحكم طبيعة المأثور الشعبي ـ فجعلها تعالج قضية قومية ذات طابع سياسي ـ هي في رايه ـ اخطر القضايا التي تعرضت لها مصر والعالم العربي معا ، ويعني بهذا قضية التحرير السياسي من المستعمر الدخيل الذي احتل معظم الوطن العربي . وعرف ـ بألاعيبه ووسائله الملتوية التي لا تنتهي ـ وتحت وطأة المد التحرري الشعبي ـ كيف يدق مساميره (الجحوية) هنا وهناك مبررا بها بقاءه واستعماره متحديا ارادة الشعب العربي وحقه المشروع في الحرية والاستقلال . ومن ثم فالمسرحية ـ بهذا المضمون ـ تعد دعوة في وجه الاستعمار تؤكد حتمية الثورة سبيلا الى الخلاص ، وبخاصة بعد ان ادرك الشعب زيف « الجلاء » الذي منحته بريطانيا لمصر ـ على سبيل المثال .. فقد كان جلاء « مشروطا » كما نعلم في ضوء المعاهدات الكثيرة التي عقدت بين بريطانيا أو فرنسا والبلدان العربية ، وان راحت أبواق الدعاية الاستعمارية تهلل لهذا الجلاء (المشروط) وتجعل منه حدثا تاريخيا

غير أن الجماهير العربية بحسها السياسي قد أدركت أنه ليس أكثر من لعبة مخدرة جديدة من الاعيب الاستعمار وعملائه في وطننا العربي .. وأن الاستقلال الحقيقي هو في أن يرحل كلية دون شروط كأن يتذرع ببقاء بعض قواته العسكرية في منطقة القناة ، من أجل الدفاع عن قناة السويس مثلا ، أو توقيع اتفاقيات دفاع مشترك في بعض البلدان العربية الاخرى بحجة حماية المنطقة من المد الشيوعي آنذاك ... أو لغير ذلك من أسباب ، ليست ـ في حقيقة الامر ـ اكثر من مسامير جحوية . يقول باكثير : ان مسمار جحا هو الدعوى أو الذريعة أو السبب الذي يدقه المستعمر في كل بلد ينزل فيه ليبرر بقاءه ، وما علينا الا أن نستعرض أحوال كل بلد شرقي للمستعمر ، فيه أنف ينفخ ، وسم ينفث حتى تضع يدك على هذا (المسمار) وان تسمى بأسماء مختلفة .

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه المسرحية أعدت للعرض المسرحي في موسم عام ١٩٥٠ ، على خشبة المسرح القومي كما قيل لي ، الا أن الرقابة ، تدخلت فمنعت عرضها ليلة الافتتاح ، ومن ثم لم تر النور الا في الموسم المسرحي لعام ١٩٥١ ، وقد مثلتها فرقة المسرح المصري الحديث طوال موسمها ١٩٥١ بنجاح كبير ـ كما جاء على غلاف المسرحية ، حينما أجيز طبعها ونشرها عقب ذلك مباشرة (١) ، وقد صدرها باكثير بآية قرآنية كريمة ـ تفصح عن هدفه ـ وبتقديم واع للاستاذ زكي طليمات ، (مدير فرقة المسرح المصري الحديث آنذاك ومخرج هذه المسرحية) ، تحت عنوان « كل منا جحا » ، وفي ضوء ما جاء في هذا التقديم وفي ضوء كتاب اخر لباكثير (٢) ، نعرف أنه كتب هذه المسرحية استجابة لقوميته الذبيحة ، على حد تعبيره ، والى السخط الذي تمور به نفسه ،

---

(١) مسمار جحا ، مسرحية فكاهية في ستة مناظر ، الناشر : دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥١ .

(٢) فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية . دار المعرفة القاهرة سنة ٦٤، الطبعة الثانية .

وقد امضها ما يلقى الشعب العربي على أيدى المستعمرين ، كما نعرف صراحة أن « المسمار في مصر هو قناة السويس » وانه شاء ان يجعل من جحا ، ومن بعض أشخاص الرواية رموزا وتوريات عن مبادىء وشخصيات سيارة دوارة في الشرق العربي بأسره ، بين حاكم ومحكوم ، وغالب ومغلوب .. ثم انه أخضع حوادث روايته الى ما يزدحم به الشرق العربي من حوادث وأحداث ، وقد عمد الى التورية والتعمية ، فهو يلجأ تارة للاشارة والتلميح ، وتارة اخرى للافصاح والتصريح ، فاذا أحس المؤلف كما يقول زكي طليمات ــ انه اسفر في صراحة بما عسى أن يؤخذ به أو يؤاخذ عليه ، نراه يتراجع، مداورا مموها ، فيفوت أغراض الحاكمين الذين يملكون أمر معاقبته. والمؤلف في هذا كله ، يطرق على لسان جحا جميع المآسي التي يرزح تحتها الشرق العربي ، بأيدي المستعمرين ــ بالتعاون مع القصر والعملاء ــ ، ويجيء عرضه لكل هذا عاما مجملا ، بحيث يحس كل شرقي مستعبد آلامه وآماله (١) مقتنعا في نهاية الامر ، بحتمية الثورة ، سبيلا الى الخلاص ــ الامر الذي تحقق عقب ذلك مباشرة بقيام ثورة ١٩٥٢ وهو أمر ظل موضع فخر كبير لدى باكثير ــ رحمه اللــه .

* * *

اما في مجال ادب الاطفال فليس من قبيل المصادفة ــ ان يكون الطفل محور اهتمام المعنيين بجمع التراث الشعبي ــ عند ظهور علم المأثورات الشعبية ، ولقد برزت هذه الحقيقة عندما نهض في القرن الماضي الاخوان « جرم » بجمع الحكايات الشعبية الالمانية ، فقد أدركا منذ اللحظة الاولى قيمة هذه الحكايات بالنسبة للطفولة والاطفال . واذا كانت مناهج التربية قد مرت بمراحل متعددة منذ أواخر القرن الثامن عشر الى الان فان التقدم الذي أحرزه المربون المتخصصون انما اعتمد في المقام الاول على انتخاب الحكايات الشعبية

---

(١) انظر مقدمة المسرحية ــ بقلم زكي طليمات ص ٥ــ٧ .

واستغلالها وتشذيبها واقبل الادباء عليها يعدونها لمراحل الطفولة ولاشكال التعبير المختلفة ، ويخضعونها لمقتضيات الحوار والتمثيل ويفيدون منها في تنمية المواهب الملكات في الفنون الرمزية والتشكيلية جميعا (١) .

ويعلم المتخصصون في علم المأثورات الشعبية ان الحكاية الشعبية (التي تشكل النادرة الجحوية المرحة احدى حلقاتها الرئيسية) ـ تعد الحلقة الكبرى في التراث الادبي الشعبي بل ليس هناك من أثر أدبي التقت عليه الطبقات ومراحل التطور والعمر كالحكاية الشعبية ـ وهو أمر له مغزاه هنا ـ ذلك لانها تمثل لقاء الماضي بالحاضر .. لقاء الكبار بالصغار .. لقاء الشرق بالغرب .. والباعث على احتفاظها بهذه المزية هو التقاء الخيال بالواقع فيها الى جانب التقاء الحلم بالحقيقة ، مما جعلها أصلح الاشكال للاطفال من فترة التكوين الى فترات المراهقة والفروسية (٢) .

وكلنا يعلم ان هذه الحكايات الشعبية التي تزخم تراث الانسانية قامت بالاداء المباشر واعتمدت على الرواية الشفوية ، وسايرت تطور الكائن الانساني من فترة الى فترة ، فيها الساذج الضئيل في الشكل والمضمون ، وفيها المعقد والمركب الذي تتعدد فيه الشخوص والعلاقات والاحداث ، ولكنها جميعا تستهدف التصعيد الى المثل الاعلى الذي تحرص الانسانية أو الجماعة عليه ، كما تستهدف تثبيت القيم الانسانية العليا ، وتحمل في أغلب الاحيان ـ كما تجمع في الوقت نفسه ـ الكثير من العناصر الترفيهية ـ والتعليمية والتربوية .

---

(١) الدكتور عبد الحميد يونس من مقال له عن « المأثورات الشعبية وادب الاطفال » . مجلة الفنون الشعبية العدد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ص ٩ وما بعدها .

(٢) الدكتور عبد الحميد يونس ، المقال السابق .

واذا كانت حكايات « كليلة ودمنه » وحكايات « الف ليلة وليلة » في الشرق ، وحكايات « ايسوب وخرافاته » في الغرب من أبرز ما تستوعبه مكتبة الطفل الى يومنا هذا ففي رأينا أن ثمة مكانا لا يزال خاليا في المكتبة العربية ـ بخاصة ـ يستوعب « نوادر جحا وحكاياته » التي نراها اثرا أدبيا جديرا بالاهتمام ـ في مجال تربية الطفل وتثقيفه وتنشئته ـ ، لا يقل بحال من الاحوال عن تلك الاثار الادبية المذكورة التي أقبل عليها الاطفال ـ في كل بلاد العالم ـ بل ان « المادة الجحوية » تمتاز عن نظائرها من الحكايات بأنها مادة حية ، جاهزة ـ ان صح التعبير ـ يمكن صياغتها وتقديمها للطفل دون عناء .. فهي أقرب الى طبيعة الاطفال المرحة ، خالية من عوامل الجمود .. بعيدة عن العنصر الخرافي ومن ثم فليس فيها من الرواسب الثقافية أو التربوية ما يخشى منه على الطفل . بل ان المادة الجحوية ـ كما رأينا عند الدراسة الفنية ـ واقعية الاحداث والشخوص ، تستمد موضوعها من تجاريب الحياة اليومية، وتقدمها في عفوية وبساطة وتلقائية محببة ، من خلال عناصرها الجزئية البسيطة ـ غير المركبة أو المعقدة ، ومن خلال شخصيتها المحورية (النموذج الجحوي) ثم هي الى جانب ذلك صالحة للصياغة أو التشكيل قادرة على التطويع وفق اي شكل ادبى او فنى أو تشكيلى يختاره المربون والادباء (قصص ـ مسرحيات ـ رسم ـ اغان ـ تنغيم ـ وايقاع ... الخ) . والمادة الجحوية بذلك قد توفر لها كل ما يمكن أن يتسم به ادب الطفل عامة وادب الطفولة الباكرة خاصة.
وحتى لو أخضعناها لعملية الانتخاب فلن نكون بذلك مناقضين لمنهج التراث الشعبي ذلك لان الحياة تتخير الاشكال والمضامين وتحذف وتضيف وتعدل وتنسخ ، حتى يظل هذا التراث مسايرا لمقتضيات الحياة المتطورة أبدا ، ولا بد من التسليم بتحفظ واحد ، يحدده أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس ـ هو الحرص على أصالة الحكاية الشعبية وهي الاصالة التي جعلت من هذا الشكل اثرا

يجمع مقتضيات التعبير الادبي الى جانب قيامه بالوظائف الاساسية في التربية الفردية والاجتماعية . (١)

وقد خضع ــ ولا يزال ــ المأثور الجحوي ــ في مجال تقديمه للطفل لبعض المحاولات الناجحة في العالم العربي ــ بعضها في الصحافة اليومية أو الاسبوعية ــ وبعضها في كتب متخصصة للطفل هي التي تعنينا في هذا المقام ، نذكر منها في مصر ــ على سبيل المثال ــ هاتين المحاولتين الرائدتين : **المحاولة الاولى : للاستاذ كامل كيلاني** ــ رائد أدب الاطفال وصاحب اول مكتبة متخصصة في أدب الاطفال في العالم العربي ــ وقد اصدر منها مجموعتين ــ المجموعة الاولى تحت عنوان (**قصص جحا**) وقد اشتملت على مجموعة كتيبات ونشرتها مكتبته ، والمجموعة الثانية مجموعة « **جحا قال يا اطفال** » وتشمل مجموعة كتيبات ايضا وقد نشرتها مكتبة « الحلبي » .

اما المحاولة الثانية فهي **محاولة الاستاذ فتحي ابراهيم** الذي أعد مجموعة منها في عدة كتيبات للاطفال نشرتها « مؤسسة المطبوعات الحديثة » منها « جحا وحماره » و « جحا وجاره » و « جحا وزوجته » و « جحا وتيمور لنك » و « جحا وغفلاته » و « جحا وسخرياته » و « جحا والسلطان » . وقد نقف ــ برهة ــ للتعريف بمحاولة الاستاذ كامل كيلاني ، وعلى وجه الدقة عند المجموعة الاولى التي نشرها بعنوان « قصص جحا » وتشمل عدة كتيبات منها : ــ « الحمار القارىء » و « جحا واصحابه » و « سوق الشطار » و « وزة السلطان » و « الغراب الطائر » و « جحا في بلاد الجن » وهذه السلسلة جميعا يضمها عنوان واحد هو : ــ « قصص جحا » وفي هذه المجموعة « يقص جحا على أصدقائه الصغار طائفة من طرائفه الطلية التي تطوى في تضاعيفها حكمة

---

(١) السابق ص ١٠ .

الزمن ، وتجربة الحياة » (١) في اطار من الدعابة البريئة تـارة او من السخر والتهكم تارة اخرى .

والحق أن الاستاذ كامل كيلاني كان معجبا اشد الاعجاب بجحا ، وقد أتيح لي ـ بمساعدة ابنه الاستاذ رشاد ـ ان اقف على المادة المخطوطة التي تركها كامل كيلاني في مكتبته الخاصة بعد وفاته فكان اغلبها محاضرات عن جحا ، ونوادره ، تزيد على المائة صفحة تقريبا .

وقد سرد الاستاذ كيلاني في كل كتـاب « مجموعة مـن النوادر » ، وقد ذكر في مقدمة أحدها ـ برميل العسل ـ مقدمة عن « الشخوص الجحوية في العالم » عامة وعن جحا العربي خاصة وقال انه اعتمد في ذلك على مخطوط قديم عنده « فكان من حسن الحظ أن عثرت على مخطوط جحوي قديم كتبه ابن اخي جحا ـ أبو السبهلل : طارق بن بهلل بن ثابت » . وقد نال منه الزمن ما نال . ومن ثم لا أكتم أنني ضفت اليه أشتاتا من روائع القصص المنسوب الى أبي الغصن جحا (٢) . وقد عرضت هذه القصص بأسلوب ممتع ، في قطع مرقومة ، كما عرضت خلال هذه القصص الصور الرمزية والتوضيحية التي يهش لها الاطفال فيتشوقون الى قراءة القصص الجحوية ، كما انه عادة يختتم هذه القصص بطائفة من مأثور القول مما له مناسبة بموضوع القصة .

وتسعى مجموعات كامل كيلاني ـ في النهاية ـ لتحقيق هدف تربوي ، واخر تعليمي ، حرص عليهما الكيلاني منذ شرع في نشرها في أوائل الاربعينات : **اما الهدف التربوي** ، فغايته غرس الفضائل والمثل العليا التي ارتضتها الجماعة وتوجيه الطفل العربي نحو انماط

---

(١) كامل كيلاني مجموعة برميل العسل ص ٣٢ ـ دار مكتبة الاطفال القاهرة .

(٢) كامل كيلاني مجموعة سارق الحمار ـ وقصص أخرى ـ ص ٣ ـ دار مكتبة الاطفال ـ القاهرة .

السلوك والقيم الاجتماعية ، والمعايير الاخلاقية والتمسك بكل ما هو ايجابي منها ونبذ كل ما هو سلبي ، وذلك كله من خلال منظور وطني وقومي ، واسلامي .

اما الهدف التعليمي ، فغايته ـ كما يقول ايضا ـ أن يصل الطفل بتراثه الادبي من ناحية ، وينمي ثروته اللغوية المضبوطة ضبطا صحيحا من ناحية اخرى بعد شرح ما يستحق منها ـ وطريقته في استخدام اللغة تقوم على التكرار والاعادة اذ يراعى في قصصه عموما الفاظا بعينها ـ يتوخاها فيعيدها المرة بعد المرة ، حتى يعرفها الطفل ، ويعرف مكانها من الجمل ، ومجراها من الحديث ، حتى تثبت في نفسه وتصبح جزءا من ثروته اللغوية ، يستعملها في حديثه وكتابته ، على حد تعبيره .

ان الواجب يقتضينا أن نعرف كيف نستفيد من تراثنا الشعبي بعامة ، والحكايات الشعبية بخاصة . .ولا سيما المرحة وتقديمها للناشئة وبخاصة في مجال **برامج الاطفال في الاذاعة السمعية والمرئية** دون ان نتعلل في النهاية بندرة النص او الموضوع الجيد الذي يكتب للاطفال . . . حقيقة ان كبار الكتاب يحجمون عن الكتابة للاطفال ـ لصعوبة ذلك من ناحية ، ولاهمالنا لتراثنا الشعبي من ناحية اخرى . . . فما من دارس او متخصص الان في تربية الطفل وادب الطفل الا وهو يعترف بأهمية التراث الشعبي في هذا المجال الحيوي من مجالات الثقافة . . . ومن ثم نحن في حاجة الى كاتب يؤمن بأهمية الكتابة للصغار ايمانه بأهمية الكتابة للكبار . . متسلحا بالحس الفني . . ومؤمنا بتراثه الشعبي ، ليلتقط هذا المأثور الضخم ، ويعيد صياغته وتقديمه الى الناشئة من ابنائنا ، شريطة أن يكون على وعي علمي صحيح بهذا التراث وخصائصه حتى يعرف من ناحية أخرى كيف يمكن أن يقدمه كذلك للطفل العربي من خلال قنوات الاتصال الكثيرة ـ بما في ذلك السينما والاذاعة والتليفزيون والرسوم المتحركة وهي وسائل قد أتاحت ـ بالتأكيد ـ للطفل

العصري آفاقا واسعة ، وقد استطاعت الدول المتقدمة ان تستفيد منها أيما استفادة في تقديمها للنشىء ، من خلال برامج قائمة على أسس تربوية وعلمية مدروسة .

واذا كانت المشكلة التي تصادف القائمين على برامج الاطفال ـ في وطننا العربي ـ تتمثل في ندرة النص الجيد ، او الموضوع المناسب ، فنحن ـ في هذه العجالة العابرة ـ انما نحيل المعنيين بالكتابة للطفل الى هذا المصدر ، الخصب من التراث الشعبي الحي للامة العربية أعني المأثور الجحوي بصفة خاصة وضرورة الاستفادة منه ، بالكلمة وغيرها من وسائل الاتصال التي تناسب الطفل العربي ، وليس في صنيعنا هذا شذوذ أو خروج عن المألوف او ردة الى الوراء في عصر العلم ـ كما يتوهم البعض ـ ذلك أن التراث الشعبي كان ولا يزال هو الدعامة الاولى والكبرى لادب الطفل عند جميع الامم على اختلاف البيئات ومراحل الحضارة طالما نهلت منه وسائلها الاعلامية المختلفة ، ولا تزال ـ واخالها-كذلك في المستقبل البعيد ، « ولكن الشيء الوحيد الذي لا بد من الالحاح عليه هو أن الافادة من التراث الشعبي في ثقافة الطفل تحتاج الى وعي صحيح بطبيعة هذا التراث وخصائص وأساليب انتشاره ... ان التراث الشعبي دار كبيرة تضم القديم والجديد ، ولا بد من الاعتصام بالانتخاب عن وعي وعلم (١) .

* * *

وثمة اشارة اخرى ـ وان لم تكن الاخيرة ـ في هذا المجال تكشف الى أي مدى تأثير النموذج الجحوي في الادب الاذاعي والمرئي والسينمائي ، حيث استعانت به هذه الوسائل جميعا في تقديم مادة حية قريبة الى قلب المشاهد او المستمع . الا اننا لم

---

(١) المأثورات الشعبية وادب الاطفال مقال للدكتور عبد الحميد يونس بمجلة الفنون الشعبية العدد ١٤ سبتمبر ـ سنة ١٩٧٠ ـ ، ص ١١ .

نشرع بعد في كيفية الاستفادة بها على الوجه الاكمل ـ ولا شك أن الذين أتيح لهم أن يستمعوا أو يشاهدوا بعضا منها ، في الاذاعة او التليفزيون أو السينما العربية يشاركونني هذا الرأي .

وليس من شك في أن النموذج الجحوي ـ بنوادره ـ يشكل ايضا شخصية محورية شعبية ، يمكن للمعنيين بالرسوم المتحركة والافلام الكرتونية في بلادنا الاستفادة منها في مئات من القصص ، يلعب بطولتها جحا ـ بشكله التقليدي ـ وأسلوبه المميز في التعبير .

ومما هو جدير بالذكر ان تأثير النموذج الجحوي قد انتقل الى السينما العالمية وبخاصة في فرنسا ـ التي انتجت فيلما اجتماعيا موضوعة النموذج الجحوي ... كما أنه أتيح لي أن أشاهد بعض الافلام السينمائية القصيرة في السفارة الامريكية بالقاهرة (١) كان بطلها وموضوعها النموذج الجحوي بمأثوره الشعبي وان كان الغرض السياسي منها لا يخفى على المشاهد (٢) .

ولعل كل من يقرأ هذا المأثور يرتأى معي ، في هذه الكثرة الكثيرة من النوادر التي حرصت على تسجيلها هنا في اطارها

---

(١) مدة الفيلم عشر دقائق تقريبا ـ ١٦ مم صوت وصورة ـ باللغتين العربية والانجليزية وأرقامها (٥٠٢٣ ـ ٥٠٢٤ ـ ٥٠٦١ ـ ٥٠٦٧ ـ ٥٠٧٦) ..

(٢) وهذا ملخص الفيلم ٥٠٦١ ـ لنرى كيف تم استغلال النوادر الجحوية استغلالا سياسيا : يحكي الفيلم تلك النادرة الجحوية المرونة ، حينما اختار له أصدقاؤه زوجة قالوا له عنها : انها جميلة جدا . ولكن جحا اكتشف بعد زواجه منها انها قبيحة جدا ودميمة جدا . فأخفى وجهها القبيح وراء نقاب كثيف لا تخترقه الانظار ، وانتشرت في البلد قصة تقول : ان زوجة جحا جميلة جدا فصدق الناس ذلك .

ويستطرد راوي القصة أو المعلق في الفيلم ـ فيقول : ان النقاب الذي يخفي وراءه دمامة زوجة جحا يشبه الستار الحديدي الذي تخفي وراءه روسيا والدول التابعة لها حقيقة الحياة فيها .

العلمي (التاريخي والفني والموضوعي) فائدة ترتجى ، ليس للمهتمين بالدراسات النفسية والاجتماعية ، او للمتخصصين في الفنون والاداب ، فحسب ، بل في مجال الابداع الفني أيضا (كالرواية والمسرحية وأدب الاطفال) بمضامين وقضايا معاصرة ، في أسلوب يجمع بين النقد والسخر والحكمة في آن واحد ... ذلك ان المأثور الجحوي يعد ـ بالتأكيد بمعطياته الادبية والفنية والفكرية والحضارية الانطلاقية الاولى في عملية الابداع الادبي والخلق الفني ، ومصدرا خصبا من مصادر التجربة الفنية ، ونبعا أصيلا ورافدا ثرا من روافد الاستلهام الفني للكاتب المعاصر ... فهو مأثور حي مرن ، متطور أبدا ، يتسم بالشمول والتنوع ، كأي ابداع شعبي أصيل .

* * *

واذا كانت غاية اية هيئة اجتماعية وهي تحتفل بتراثها ، أن ترتبط بأصولها الحضارية والثقافية وأن تعرف ـ عن وعي وعن علم ـ مكانها من التاريخ ومن الحضارة ، فلا ادري لماذا يجد الباحث نفسه مدفوعا ـ في النهاية ـ الى ترديد دعوة أحد الباحثين المعاصرين في موقف مماثل : ـ « الى متى يظل أدبنا ، نصفه يهال عليه التراب ، والنصف الاخر مختلف عليه » (١) .

وبعد ، فهل كان بمقدور الباحث ان يقول الكلمة الاخيرة في هذا البحث .. ؟ الحق ـ في غير تواضع ـ انها البداية .. وغاية ما نسعى الى تأكيده أن النادرة الجحوية الحق سوف تبقى حية في وجدان الشعوب التي ابدعتها وتذوقتها ، تؤدي دورها الخلاق أبدا ، حيث ترمي دائما الى غرض انساني نبيل وجليل ، سواء في تجلية النزعات البشرية ، أو صقل التجربة الاجتماعية والقومية والعمل على ترسيبها او في ترقية الخلق الانساني ـ عبر الزمان والمكان ـ مما يدفع بالذات الفردية والعامة دوما نحو الكمال الانساني الخلاق ... وتلك هي رسالة الادب الخالد .

---

(١) الدكتور أحمد كمال زكي « الاصمعي من وجهة نظر المأثورات الشعبية » ، مجلة عالم الفكر م ٣ ـ ع ١ ـ ابريل ١٩٧٢ ـ ص ٢٥٩ .

« ثبت باهم المخطوطات والمصادر والمراجع »

اولا ـ المخطوطات .. : ـ

١ ـ **الابـي** : (ابو سعد منصور بن الحسن) المتوفى سنة ٤٢٢ هـ . نثر الدرر في المحاضرات .
مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم ٤٤٢٨ ـ أدب .

٢ ـ **ابن شاكر الكتبي** : (صلاح الدين محمد) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
عيـون التاريـخ .
مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم ١٤٩٧ ـ تاريخ .

٣ ـ **ابن عبد البر القرطبي** : (يوسف بن عبد الله) المتوفي سنة ٤٦٣ هـ .
بهجة المجالس وانس المجالس .
مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم ٤٣٤ ـ أدب .

٤ ـ **مجهول المؤلف** : نزهة النفوس ومضحك العبوس .
(مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم ٥١٠٢ ـ آداب .
مخطوط منسوخ ١٢٦٦ هـ) .

ثانيـا ـ المصادر : ـ

١ ـ **الأبشيهـي** : (شهاب الدين محمد بن احمد ابو الفتح) .
المستطرف من كل فن مستظرف ـ نشر المكتبة التجارية ـ القاهـرة سنة ١٣٧٩ هـ .

٢ ـ **الجاحـظ** : كتاب القول في البغال ـ تحقيق وتعليق شارل بلا ـ الناشـر مصطفى الحلبي سنة ١٩٥٥ ـ القاهرة .
ـ البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون .

٣ ـ **ابـن الجـزي** : (ابو الفرج عبد الرحمن) .
ـ اخبار الحمقى والمغفلين ـ مطبعة التوفيق ـ دمشق سنة ١٣٤٥ هـ .
ـ أخبار الظراف والمتماجنين ـ مطبعة التوفيق ـ دمشق ـ سنة ١٣٤٧ هـ .

٤ ـ **ابن حجر العسقلاني** : لسان الميزان ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ـ حيدر أباد ـ الهند سنة ١٣٣٠ هـ .

٥ ـ **ابن حجـة الحموي** : (ابو بكر بن علي بن محمد) .
ثمرات الاوراق في المحاضرات ـ نشر المكتبة التجارية ـ القاهرة ١٣٧٩ هـ .

٦ ـ **الحصـري** : (ابو اسحق ابراهيم بن علي) .
ذيل زهر الآداب ـ او جمع الجواهر في الملح والنوادر ـ نشر المكتبة التجارية ـ القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

٧ ـ **ابن خلـدون** : المقدمة ـ تحقيق الدكتور علي عبد الواحد موافي .
٨ ـ **الدمـيري** : (كمـال الدين) .
حياة الحيوان الكبرى ـ المطبعة الشرقية ـ القاهرة .
٩ ـ **علي مبـارك** : الخطط التوفيقية ـ الجـزء الاول ـ مطبعـة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٩ م .
١٠ ـ **المقـريزي** : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ القاهرة .
١١ ـ **الميـداني** : مجمع الامثال ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٣ م .
١٢ ـ **ابن النديم** : الفهرست ـ المطبعة التجارية ـ القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ .

ثالثا ـ المراجـع : ـ

١٣ ـ **احمـد امـين** : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ـ ط (١) ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٣ م .
١٤ ـ **احمـد تيمور** : الامثال العامية ـ ط (٣) ـ الشركة الشرقية للنشر ـ بيروت ـ لبنان سنة ١٩٧٠ م .
١٥ ـ **رشدي صالح** : فنون الادب الشعبي ج (٢) ط (١) ـ دار الفكر ـ القاهره سنة ١٩٥٦ .
ـ الفنون الشعبية ـ دار القلم ـ المكتبة الثقافية ـ ٣٤ ـ سنة ١٩٦١ م .
١٦ ـ **أ. د. وينتل** : ايسوب ـ ترجمة الدكتور مختار الوكيل ـ لجنـة البيـان العربي ـ القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
١٧ ـ **احمد صادق الجمال** :الادب العامي في مصر العصـر المملوكـي ـ الدار القومية ـ القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
١٨ ـ **د. احمد لحوفي** : الفكاهة في الادب ـ أصولها وأنواعها ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
١٩ ـ **الكزاندر هجرتي كراب** : علم الفولكلور ـ ترجمة رشدي صالح ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
٢٠ ـ **برجسون (هنري)** : الضحك ـ ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم ـ دار الكاتب المصري ـ القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
٢١ ـ **جلال الحنفي** :الامثال البغدادية ـ بغداد سنة ١٩٦٢ م .
٢٢ ـ **د. جمال حمدان** : شخصية مصر ـ دراسة في عبقرية المكان ـ كتاب الهلال ـ العدد ١٩٦ ـ دار الهلال ـ القاهرة يوليو سنة ١٩٦٧ م .
٢٣ ـ **د. حسين فوزي** : سندباد مصري ـ دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦١ م .
٢٤ ـ **د. حسين مجيب المصري** : تاريخ الادب التركي ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥١ م .
٢٥ ـ **د. زكريا ابراهيم** : سيكلوجية الفكاهة والضحك ـ مكتبة مصر ـ القاهر
٢٦ ـ **د. سهير القلماوي** : الف ليلة وليلة ـ دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦٦ م

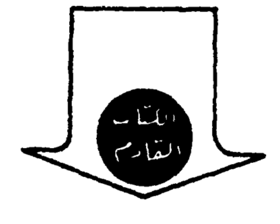
٢٧ ـ د. **شوقي ضيف** : الفكاهة في مصر ـ كتاب الهلال ـ العدد ٨٣ ـ فبراير سنة ١٩٥٨ ـ دار الهلال ـ القاهرة .
٢٨ ـ **صفوت كمال** : مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي ـ مطبعة حكومة الكويت ـ الكويت ط (١) ـ سنة ١٩٦٧ ـ ط (٢) ، ١٩٧٣ م .
ـ تحليل عناصر الرواية كمنهج فولكلوري ـ مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الاول ـ الكويت ، ابريل ١٩٧٢ .
ـ مناهج بحث الفولكلور العربي بين الاصالة والمعاصرة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، يناير ١٩٧٦ م .
٢٩ ـ **عباس محمود العقاد** : جحا الضاحك المضحك ـ كتاب الهلال ـ دار الهلال ـ العدد ٦٥ ـ اغسطس ١٩٥٦ ـ القاهرة .
٣٠ ـ **عبد الستار فراج** : اخبار جحا ـ مكتبة مصر القاهرة سنة ١٩٥٤ .
٣١ ـ **عبد الحميد يونس** : مجتمعنا ـ الدار القومية ـ سلسلة اخترنا لك ـ رقم ٢٤ ـ القاهرة ـ الحكاية الشعبية ـ دار الكاتب العربي ـ المكتبة الثقافية العدد ٢٠٠ ـ القاهرة يونيو سنة ١٩٦٨ م .
ـ دفاع عن الفولكلور ـ الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة سنة ١٩٧٣ ـ .
٣٢ ـ د. **عبد العزيز رفاعي** : الطابع القومي للشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة سنة ١٩٧١
٣٣ ـ د. **عبد اللطيف حمزة** : حكم قراقوش ـ القاهرة
ـ الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي ط (١)
٣٤ ـ **علي احمد باكثير** : مسمار جحا ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة سنة ١٩٥١ م .
٣٥ ـ **محمد ابراهيم ابو سنة** : فلسفة المثل الشعبي ـ دار الكتاب العربي ـ المكتبة الثقافية العدد ١٩٣ ـ مارس ١٩٦٨ م .
٣٦ ـ د. **محمد انيس** : الدولة العثمانية والشرق العربي ـ مكتبة الانجلو ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة .
٣٧ ـ **محمد فريد أبو حديد** : آلام جحا ـ دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
٣٨ ـ **مصطفى السقا** : خرافات ايسوب ـ دار الكتاب العربي ـ لجنة النشر للجامعيين ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ م .
٣٩ ـ **محمد فهمي عبد اللطيف** : مذكرات جحا ـ الدار القومية ـ القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
٤٠ ـ د. **نبيلة ابراهيم** : اشكال التعبير في الادب الشعبي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة .

المحتوى

المؤلف في سطور

د. محمد رجب النجار

- ولد في مصر عام ١٩٤١ .
- تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ .
- حصل على درجتي الماجستير (١٩٧٢) والدكتوراه (١٩٧٦) من قسم اللغة العربية وآدابها .
- عمل مدرسا للغة العربية بوزارة التربية بدولة الكويت حتى عام ١٩٧٥ .
- يعمل حاليا مدرسا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب والتربية بجامعة الكويت
- شارك في الكثير من الاعمال الفنية الاذاعية والتلفزيونية بالقاهرة والكويت ـ معدا ومؤلفا ومخرجا .
- نشر العديد من المقالات والابحاث في الادب الشعبي بالمجلات العلمية المتخصصة .
- وله تحت الطبع بحث بعنوان : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، قضاياه وملامحه الفنية.



تراث الإسلام

تصنيف
شاخت وبوزورث
ترجمة
د. حسين مؤنس
احسان صدقي العمد

الكويت	٢٥٠ فلسا	ليبيا	٢٥ قرشا	عمان	٤ ريال
السعودية	٥ ريال	المغرب	٥ دراهم	اليمن الجنوبية	٤٠٠ فلس
العراق	٣٠٠ فلسا	تونس	٥٠٠ مليم	اليمن الشمالية	٤٫٥ ريال
الاردن	٢٥٠ فلسا	الجزائر	٥ دنانير	البحرين	٤٠٠ فلس
سوريا	٢ ليرات	مصر	٢٥٠ مليما	قطر	٥ ريال
لبنان	٢٫٥ ليرة	السودان	٢٥٠ مليما	الامارات العربية	٥ درهم

الاشتراكات يكتب بشأنها الى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،
ص.ب ٢٣٩٩٦ — الكويت




٢٥٠
فلسًا


مطابع اليقظة